

السيد رائف فضل الله

دار البيان الجديد

السيد رائف فضل الله



دار التيار الجديد



الطبعة الثانية

مصححة ومنقحة

١٩٩٤ - ١٤١٥هـ

دار التيار الجديد

بئر العبد - شارع معوّض

ص.ب: ٤٥ / ٢٥ الغبيري

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

إليكِ أيتها العزة والكرامة والشرف والإباء التي كانت قبساً من كربلاء.

إليك أيتها الإنسانية والصدق والوفاء والفداء وكل المثل التي كانت بصيصاً من كربلاء.

إليك أيتها الشعلة المقدسة التي أعادت الحق للحق والدين للدين والإسلام للإسلام.

إليك أيتها البطولة التي كانت الحسين.

إليك أهدي وهتاف شهدائك سيبقى يدوي للأبد.

السلام عليك يا أبا عبدالله.

رائف فضل الله
١٩٩٤

كلمة لا بد منها

كربلاء أضخم معركة في التاريخ كانت سنة إحدى وستين للهجرة، بدأت في الثاني من المحرم وانتهت في العاشر منه.

وكل معركة لها وجهان: وجه مباشر ووجه غير مباشر؛ فالوجه المباشر هو الحرب الفعلية والوجه الغير مباشر هي الدوافع لتلك الحرب.

ومعركة كربلاء كحرب بدأت من اللحظة التي سُل فيها السيف؛ أما الوجه الغير مباشر أقصد الدوافع، فقد كانت لها جذور امتدت من الماضي البعيد وقبل كربلاء بسنين.

وقد قلت إن كربلاء أضخم معركة في التاريخ.. وأنا لم أقصد بذلك كثرة المحاربين وفرقهم من الطرفين، ولا برقعة الحرب الكبيرة، وإنما: بدوافعها التي كانت ماضيها، وبصفتها التي كانت حوادثها، وبحصيلتها التي كانت نتائجها.. لأن الدوافع والصفات والحصيلة التي كانت لكربلاء وبكربلاء لم تكن لمعركة أخرى، مهما كانت صفة تلك المعركة دينية أو دنيوية مادية أو روحية.. في سبيل الحق أو الحرية أو العدالة أو أي مُثل أُخرى، لأن أية معركة إنما تتصف بصفة الحرية فقط أو الحق فقط أو العدالة فقط. أما كربلاء

فكانت الحرية فيها والحق والعدالة أجزاء بسيطة منها. . لأنها كانت أعظم وأسمى حتى من الحق والحرية والعدالة. . لأنها كانت الملحمة الإلهية.

وقد سميتها بهذا الإسم بعد تفكير طويل بالحسين وأهل الحسين وأصحاب الحسين ونساء وأطفال الحسين. . وبعد تحسس عميق للدوافع والحوادث والنتائج التي كانت لكربلاء.

وأعترف أني لم أجد اسماً يدل على معركة كربلاء وحقيقتها غير هذا الاسم لأن المعركة لم تكن بالحقيقة بين يزيد وعبيد الله بن زياد والثلاثين ألفاً الذين جاؤوا من الكوفة مع عمر بن سعد وبين الحسين وشباب آل محمد والأنصار والنساء والأطفال.

فيزيد وعبيد الله وعمر والذين أتوا معه من الكوفة إنما يمثلون الكفر المتستر بالشهادتين، والخداع واللؤم والدس والفجور والباطل والخيانة والعبودية والذل. والحسين يمثل الخير والفضيلة والحق والحرية والأنفة والفداء والتضحية والنبل والإسلام كما يجب أن يكونوا، والإيمان الأسمى والطاعة الكاملة لله والرسول. . وهذه المثل كلها عبادات لذلك هي لله. ولذلك أيضاً كانت المعركة لله ومن أجل الله، ولهذا كانت الملحمة إلٰهية. . ولأنها إلٰهية لم يخرج منها إلا بقايا أهل البيت من النساء والأطفال. . أهل البيت الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً والذين يحملون بأجسادهم دماء الرسول.

ولن أزيد وأتركك الآن أيها القارىء الكريم مع الملحمة الإلٰهية. .

ولنعد معاً على أجنحة التاريخ إلى ذلك الماضي البعيد البعيد لنرى هناك. .

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية
للملحمة الالهية

في كل سنة تعود ذكرى كربلاء لتهيمن وتسيطر بعظمتها وجلالها ونورها وهداها، ثم بآلامها ودموعها ودمائها، وكأن التاريخ يتوقف بذكراها آمراً بالعبرة والاعتبار.

والناس تنقسم منها إلى فئات ثلاث، الأولى تستهدف الأجر، والثانية التأمل، والثالثة تمط الشفاه مستنكرةً مدعية أنها حقن للصدور بالبغضاء، والكل لم تكن لديه الصورة الواضحة، فلا جواب لماذا وكيف بصورة تفصيلية. فالفئة الأولى لا تعرف كيف حصلت، والثانية منها من تدعي أنها مثقفة، تختصر القول «ذهب الحسين ليقتلهم فقتلوه». والثالثة تؤمن أن كربلاء كانت عملاً طائشاً من الحسين يمثلها ابن قتيبة وأكثر مؤرخيهم ومفكريهم، ويتبعهم أدعياء الإسلام والغرباء عنه.

وهذا ما دفعني أن أبحث طويلاً في أحداث كربلاء وأخرجها على شكل رواية مسلسلة الأحداث ومترابطة بشكل يعطي صورة واضحة دقيقة عن كل تفاصيلها وأبعادها مراعياً حرمة وقدسية التاريخ أولاً ثم التصرف البسيط ببعض الأحداث حتى يكون الترابط بينها صحيحاً وسهلاً لتكون الصورة أوضح

لفئة المؤمنين وجواباً للمتأملين وحجة على الأدعياء.. مع الاعتراف أن الطبعة الأولى كانت منذ سنوات وقد أبدى كثير من أهل العلم والدين والفكر رغبته في إعادة تصحيحها وتنقيحها لأنهم وجدوا فيها ما يشفي الغليل ويملأ فراغاً في المكتبة الإسلامية بموضوع كربلاء.

ومع ذلك نسجل الشكر لدار التيار الجديد للطباعة والنشر لطباعتها الطبعة الثانية لهذه الملحمة مساهمةً منها في خدمة رسالة الحسين عليه السلام والإسلام. والله الموفق.

المؤلف

رائف فضل الله

رفــاق الفــداء

كان الليل يجلبب الكون، والسماء تلمع فيها نجوم ذهبية، ترسل أشعـةً خفيفة على الأرض، وكأنها لمسات حنـان وتقديس، لتلك البقعـة من العالم، التي كـانت تبدو في ذلـك الوقت، منبسـطاً فسيحاً تحـوطـه تـلال من البعـد، متعرجة الخطوط تتطاول أحيـاناً لتبـدو جبالاً عـالية، تنـظر برهبـة إلى كل تلك الـربوع التي مـلأتها صيحـات أبطال، ردد العـالم بأسـره صداهـا، فتجـاوبت وامتزجت بدمائهم، فكانت رسالة اسمها الإسلام.

وفي أعماق ذلك السكون، كان شبح يبدو من البعيـد، أخذ يكبـر رويداً رويداً حتى ظهر فـارساً يـركب جواداً ينهب بـه الأرض نهباً، يضـرب بحوافـره الأربعة تلك الأرض، فينبعث صوت رتيب، كان يقوى عند ملامسة أرض صلبة ويخفت عندما يـدوس تربـةً ناعمـة. . وفوقـه رجل ملثم لا تبين من وجهـه إلا عينان متوقدتان ترسلان الطرف متفحصتين فيما حولها، حتى إذا وصـل لناحيـة معينة، تمهل بسيره قليلاً قليلاً، وتوقف. هامساً:

ـ «أُحد. . السلام عليك يا أُحـد. . » وسكت وعاد يتـأمل المكـان بنظره ثم همس:

ـ «فيك يا أُحد بنيت إحدى أعمدة هيكل الإسلام، وبمعركتك ناضل المسلمون وكافحوا واستشهدوا، ورووا أرضك بالدماء، وفيك قارع الإيمان الكفر، وانتصر الإيمان. . فالسلام عليك يا أُحد».

ثم انحنى نحو الجواد قائلاً:

ـ «أدهم. . والآن إلى هانية، أنت تعرف أني بشوق لها، فقد مضى على فراقنا خمسة أيام، كانت طويلة. . طويلة. . وها هي المدينة المنورة تبدو من البعيد، فأرني قوتك كلها».

وكأن الجواد فهم قول صاحبه فحمحم بصوت عالٍ، ووقف على قوائمه وقفز وأخذ يركض وهو يضرب الأرض ضرباً خفيفاً، وفوقه صاحبه ينحني إلى الأمام ويكاد يلامس رأسه رأس الجواد. . وعادت عيناه تتطلعان في ما حوله.

وفجأة لمع ضوء خافت، من خربة كانت تبعد عن الجادة، وتوقف الجواد رويداً رويداً بلمسة من صاحبه الذي وقف على الركاب وأخذ ينظر متفحصاً، وهمس:

ـ «إن هذا الضوء مريب في هذه الأرض المقفرة». وحدّق أكثر وأكثر، فرأى أشباحاً تدخل تلك الخربة. . لم يتبين للبعد والظلام عددها، إلا أن دافعاً خفياً جعله ينزل عن جواده، ويتقدم على مهل حتى قرب من المكان، فإذا به كما أدرك خربة كبيرة وحولها بعض الأشجار والشجيرات والأعشاب.

واقترب متمهلاً، وأنصت، ولكنه لم يسمع شيئاً، وعاد نحو جواده يريد امتطاءه، فاستوقفه صوت عالٍ وجدل، ثم سمع قعقعة سيوف وصراخاً كالتهديد، وبحركة لا شعورية أبعد رداءه عن قائم سيفه مستعداً. . وإذا بأشخاص يخرجون والسيوف بأيديهم وهم يعاركون شاباً كان يتلقى ضرباتهم بسيفه ويقفز بخفة هنا وهناك، مما جعل مهاجميه يبدون بغضب واضطراب.

وأخذ الفارس يتأمل الجميع، فقد كانوا أكثر من عشرة يهاجمون واحداً وهو يقاومهم بعنف ومهارة وخفة، ولكن إذا بهم يضيقون عليه ويحاصرونه،

مما جعله يستند إلى حائط ويبدأ من جديد بالدفاع عن نفسه وقد أثخن أربعة بالجراح.

وأحس الفارس بصراع بداخله، الأمر واضح، جمع كبير يقاتل فرداً ومهما كان تجب نصرته، ولكن المقاتلين كثيرون، وهو إذا انضم إليه قد يتغلبون عليهما، وهانية بانتظاره، ونازعه الحب شعور واجب النجدة فضعف أمام الحب، فاتجه إلى جواده يريد الانصراف، ولكن صرخة من أحد الرجال أوقفته. قال الرجل:

- «كفوا عنه». فتوقف القتال.. وعاد الفارس ليرى المهاجَم وهو يقف أمام الجدار وسيفه بيده لاهثاً ولكن كله نشاط وقوة.

وعاد القائل للقول:

- «اسمع يا نافع.. حياتك بأيدينا.. ولن تستطيع النجاة، عد إلى رشدك وأكمل معنا المهمة التي أرسلنا بها الخليفة».

فصرخ نافع:

- «خليفة؟ وأي خليفة.. إن ذلك الدعي خليفتكم أنتم أيها المتآمرون، أرسلكم يزيد بن معاوية لتغدروا بسيدي الحسين، وتريدون أن أعينكم على الحسين؟».

وضحك بحقد وأكمل:

- «لا والله.. لن أدعكم تنفذون غدركم إلا بعد أن تمروا على جثتي». ثم أردف قائلاً:

- «تتآمرون على سيدي يا مجرمين؟! ولم تجدوا لخيانتكم وغدركم إلا الطاهر الزكي؟».

أدرك الفارس الموقف، فجحظت عيناه، واشتدت قامته، وامتدت يده إلى سيفه لتستله والتفت ناحية المدينة هامساً:

- «هانية.. أمي.. سامحيني يا أمي هناك أعظم من وعدي لكما

بالمجيء، إن أحد محبي الحسين بخطر».

وكانت تلك الفئة عادت لمهاجمة نافع بعنف وعاد نافع للدفاع المستميت.

وانقض الفارس صارخاً:

- «نافع، أثبت، قاتل المجرمين».

وسمع نافع صوت النجدة فصرخ ضاحكاً:

- «إن أمي دعت لي أن لا أموت إلا بين يدي الحسين، ولن أموت بين أيديكم يا حثالة العرب». وأخذ يقاتل قتالاً عنيفاً.

وهجم الفارس وأخذ يضرب يمنة ويسرة، ضرباتٍ فرقت الجمع للحظات انضم فيها لنافع وأخذا يقاتلان.

وكان دخول الفارس صدمة قوية للمهاجمين، جعلتهم مشتتين للحظات، عادوا بعدها، ليجمعوا صفوفهم ويهجموا، مما جعل رئيسهم يصرخ بأحدهم:

- «إذهب واطلب الآخرين.. فكأننا نقاتل الجن والعفاريت».

وذهب الرجل، وبعد قليل عاد ومعه عشرة مقاتلين سرعان ما انضموا إلى رفاقهم.

وطال الوقت وطال القتال، وطال ثبوت نافع والفارس وسقط البعض.. ولكن ذلك كلف الاثنين كثيراً من الجهد فبان التعب عليهما، فأخذا يتراجعان رويداً رويداً وهتف نافع بالفارس:

- «أبداً.. لن نموت بأيدي هؤلاء المجرمين فأمي دعت لي أن لا أموت إلا بين يدي الحسين، فكيف يحصل هذا؟ يا رب نصرك».

ولم يتم كلماته إلا وسمع الجميع وقع حوافر جياد تقترب حتى علا معلناً عن وصول مجهولَين. وبعد برهة كان يقف قربهم رجلان، أحدهما أسود

اللون كالعملاق وكـل ما بـه ضخم. وكأن الأعـداء خافـوا الفضيحة.. فتقـدم البعض للقادمين والسيوف مشرعة بأيديهم.

وأجال الرجلان بصرهمـا فيما يجـري.. وكأنهمـا كانـا على موعـد فإذا بهما ينظر الواحد لـلآخر نـظرة فهمها كـلٌ منهما، واستـل الأول سيفه وتنـاول الأسود ترساً معلقاً بسرج الفرس ونزلا إلى المعركة.

وكم كانت دهشة الفارس ونافع عندما شاهدا المجهولين يبـطشان بعنف بـالمقاتلين ممـا جعل هؤلاء يـرتدون رويـداً رويداً عن نـافع والفـارس ويتفرغ أكثرهم لقتالهما.

ووقف نافع والفارس يتطلعان بفرح للقادمين الجديدين، والهاهمـا منظر قتالهما عن المشاركة فتوقفا كالذاهلين وهما يراقبان الفارس الأول وهـو يضرب يميناً وشمالاً، تارة بسيفه وتارة بيده. أما الأسود فكان هائلاً وخاصـة لم يحمل بيده اليمنى سيفاً، وإنما كان يمسك ترساً بيده اليسرى يضرب بـه ضربـاً عنيفاً ويتلقى به ضربات السيوف والرماح ثم لا تمسك يده اليمنى شخصـاً إلا رفعته وجلدت به الأرض أو يصفع الصفعة فيسمع لها دوي.

واستيقظ نافع ونصيره من دهشتهما، ونظر نافع إليه ضاحكاً بفـرح.. ثم هجما ليشاركـا الفارسين المجهـولين وإذا بالآخـر يكف عن القتال ويتقـدم من نافع قائلاً:

ـ «تعالوا دعوهم له».

وتأخر الثلاثة ليتفرجوا على الفارس الأسود وأمامه خمسة مقاتلين فـإذا به يتناول رمحاً بيـده اليمنى وكان التـرس لم يزل بيـده اليسرى وأخـذ بالقتـال.. وكـان رهيبـاً إذ لم يـدم أكثـر من دقـائق حتى سقط البعض وفـر البـاقـون... وهدأت المعركة.

ونظر رفيق الفارس الأسود إلى نافع ورفيقه وقال:

ـ «لنبتعد فقد يأتون بنجدة».

وركب كلٌّ جواده وهم بشوق لأن يعرف أحدهم شيئاً عن الآخر. ولما ابتعدوا توقف رفيق الفارس الأسود فتوقف الجميع وقال:

ـ «أعرفكم إلى نفسي فأنا سعيد بن عبدالله الحنفي.. وهذا الفارس جون مولى أبي ذر الغفاري.. وأنتم ما قصتكم؟»

فقال صاحبنا: «اسمي وهب، وهذا الشاب اسمه نافع ولا أعرف شيئاً عنه، وكنت ماراً فرأيت ذلك الجمع يقاتله، ولا أخفي عليكم أن كلمة واحدة جعلتني أخف لنجدته».

فقالوا باهتمام: «ما هي؟».

فقال: «الحسين».

فقال سعيد لنافع: «أوضح».

فقال نافع: كنت قادماً من العراق. ومنذ أيام اجتمعت بقافلة آتية من الشام على طريق الحجاز وهي كلها من الفرسان المسلحين، وطلبوا إلي أن أدلهم على الطريق فأتيت بهم.. ولكن في مسيرنا فهمت أنهم يحملون سراً، وعرفت بطرقي الخاصة أنهم آتون ليغتالوا الحسين بن علي، أرسلهم يزيد لهذا الغرض وخفت منهم بادىء الأمر وأظهروا لي رغبتهم بمشاركتي لهم ووعدوني بمال وفير، فتظاهرت أني رضيت ولكن ضميري وحبي للحسين أبوا علي إلاَّ أن يظهر ما في باطني فكشفوا أمري وأرادوا قتلي.. فحضر وهب ثم حضرتم.. وها نحن».

فهتف سعيد: «أنتم من محبي الحسين؟».

فوضع وهب ونافع أيديهما على سيفيهما وقال وهب:

ـ «نعم».

فضحك سعيد وجون ضحكات عالية، وتطلعا إلى وهب ونافع بحب وإعجاب وقال جون بصوت أجش:

ـ «أنا جون مولى أبي ذر. . وهل يمكن أن يكونَ في بيت أبي ذر من لا يحب الحسين وأبا الحسين؟».

وقال سعيد:

ـ «قلت بيني وبين نفسي أن هذه البطولة من اثنين يقاتلان عصابة كبيرة لا يمكن أن تكون إلا من محبي الحسين، وتلك الفئة التي تسعى مع كبرها لقتل اثنين في هذا الليل لا يمكن أن تكون من محبي الحسين فكم كان ذلك مفرحاً فنحن إذاً أصدقاء وأكثر من أصدقاء».

وفرح وهب ونافع وقال نافع وهو يضحك بمرح ملء صدره:

ـ «الله أكبر فقد دعت لي أمي ألا أموت إلا أمام الحسين وهذا ما أراده الله فأنقذتموني من هؤلاء الفسقة المتآمرين، وأوصتني بذلك بعد استشهاد أبي في صفين مع علي».

فقال سعيد: «ألهذه الدرجة تحب الحسين؟».

فقال نافع وقد تغيرت لهجته وأصبحت غاضبة مقتضبة:

ـ «إنني أشعر وكأنني أعيش فقط حتى أفتديه بلحمي ودمي. . بكل ما بي».

فتقدم سعيد ونظر إليه بحنان وصداقة عميقة وقال:

ـ «تعالوا فاستريحوا قليلاً فقد ابتعدنا. . وليحكِ كل منا ما عنده، إذ يظهر أننا جميعاً نحمل نفس المشاعر». كان يقول ذلك بينما تقدم جون وأخذ يتفرس بوجه نافع والعطف يطل من عينيه وقال:

ـ «أشعر كأنك ولدي، وأحمد الله على أننا سارعنا لنجدتكم فالشكر لله».

وترجل الجميع وأشعل نافع النار وجلسوا يتفرس بعضهم ببعض على ضوئها.

ونظر وهب لنافع فوجده فتىً تجاوز العشرين قليلاً، نحيل البنية، سريع الحركة خفيف الروح، والبسمة لا تفارق فمه. وتطلع نحو سعيد فإذا به شاب تجاوز الثلاثين ممتلىء طويل القامة عريض المنكبين واسع الصدر نحيل الخصر، تدل ملامحه على النبل والقوة والشجاعة. ثم نقل بصره إلى جون فإذا به ضخم، طويل القامة مفرطاً بالطول عريض المنكبين طويل اليدين كبير الرأس بشكل ملحوظ.

وقال سعيد: «أنت يا وهب رأيتنا فاكشف عن لثامك».

فكشف وهب لثامه فإذا به ذو وجه جميل ممتلىء، له شاربان صغيران أشقران ولحية صغيرة مدببة وعينان خضراوان.. ولا يتجاوز الثلاثين.

فقال سعيد: «والآن ليتكلم كل منا بما عنده».

فقال نافع: «أنا قلت الذي عندي ولكن اسمي الكامل نافع بن هلال المرادي فتكلموا أنتم»[1].

فقال جون: «أنا ليس لي قصة إلا أن أبا ذر رضوان الله عليه أوصاني أن أكون في خدمة الحسين لأنه سيحتاجني يوماً، ولكن حدد لي وقتاً وقد حان، وكانت بدايته موت معاوية بن أبي سفيان واستخلاف ابنه يزيد على الخلافة.. وأنا ذاهب إليه، أما سعيد فهو ينفذ وصية أبيه الذي قتل مع الإمام علي في صفين، وقد نذر نفسه بناء على طلب أبيه وهو يحتضر أن يلبي نداء الحسين عندما يحين الوقت، ثم هو يحمل رسالة من أنصار الحسين بالكوفة له في المدينة».

وقال سعيد: «كنت مع أبي في صفين وكنت صغيراً، وأصيب رحمه الله فكانت كل أمنيته أن أفتدي الحسين كما افتدى هو الإمام.. وبيتنا بما فيه حتى حجارته تحب أهل البيت فنحن نرضع حبهم مع حليب أمهاتنا. وها أنا

---

(١) كان بكربلاء اثنان باسم نافع وهما: نافع بن هلال البجلي وهو عابد زاهد ونافع بن هلال المرادي وهو صاحبنا. ثم هناك شخص باسم هلال بن نافع كان مع أعداء الحسين.

أبدأ بنقل آخر رسائل أنصار الحسين بالكوفة له».

وقال وهب:

ـ «أما قصتي فهي أني أصلاً لست بمسلم وأنا من بلاد الشام ويكفي أن أقول أني من أهل الكتاب» وضحك عالياً ثم أردف قائلاً:

ـ «أبوح بأشياء لم أقلها لأحد بعد» وسكت باسماً فقال له نافع:

ـ «إذا كان كل منا يفتدي الآخر بنفسه فهل بعد ذلك من سر؟».

فقال وهب: «كما قلت فنحن أقصد أنا وأمي و. . . خطيبتي لسنا من الحجاز وقد أتينا لنسلم على يدي الحسين».

وعلت البغتة وجوه الجميع. . فقال سعيد بتعجب:

ـ «أتأتون من البعيد إلى الحجاز لتسلموا على يدي الحسين فتتعرضون للمخاطر ومشاق الطريق لهذه الغاية؟».

فقال وهب: «ولم الاستغراب إنها نعمة لا تدرك إلا مرة بالعمر وكان يجب أن تنفذ مهما كلف الأمر».

فقال سعيد: «سبحان الله، وإني أرى أن ليس للصدفة دخل في هذا، فالله هو الذي جمعنا».

وفكر قليلاً وقال:

ـ «اسمعوا. أرى أن اجتماعنا كان فوق إرادتنا، وكأن الله أراد ذلك لنا، ولسر هو وحده يعلمه. والحسين في ضيق؛ إن ذلك المسمى خليفة، أقصد يزيد بن معاوية، لا يتوانى عن الغدر به بأية وسيلة، وقد علمتنا الأيام من أبيه أشياء وأشياء؛ يجب أن ننجد الحسين ونبايع على حمايته والإخلاص له حتى الفداء».

فقال نافع: «أما أنا فقد سبق وبايعت أمي على افتداء الحسين».

فنظر إليه سعيد قائلاً:

- «وأنا بايعت أبي وهو يلفظ النفس الأخير.. ولكن هـذا لا يكفي، وقد حان وقت العمل وبانت بوادره، والشاهد بين أيدينا وهو هذه العصابة الغادرة التي قاتلناها منذ وقت قصير».

فقال جون:

- «أما أنا فلن أكون شاذاً عن طريق سيدي أبي ذر الغفاري فقد عاش بحب أهل البيت ومات بحبهم».

فقال وهب: «إذاً لنبايع الله ونعاهد أنفسنا على الفداء».

ووقف الأربعة واستل سعيد سيفه وبسطه أمامهم ومد يده فمدوا أيديهم لتلتقي على السيف، وقال سعيد بصوت كله عزم وتصميم:

- «نقسم بالله العظيم». وردد الجميع قوله ثم عاد للقول:

- «وبتربة علي بن أبي طالب ودمائه». وردد الجميع.. ثم قال:

- «إننا سنفتدي الحسين بلحمنا ودمنا وأرواحنا ومالنا وكل ما نملك». فردد الجميع. ووقفوا للحظات خاشعين بصمت مهيب.

فقال وهب: «نحن الآن أخوة وأكثر من أخوة وقد ارتبطنا برباط لا يفكه إلا فداء الحسين».

فقال نافع: «يجب أن نكسب الوقت، فلنذهب إلى المدينة ويجب أن أخبر الحسين بما جرى لي مع العصابة ومؤامرتهم». وتنبهوا إلى أن ذلك صواب، فأيدوا رأيه وتهيأوا للرحيل، فأطفأ نافع النار وأهال عليها شيئاً من التراب، وتقدم كل منهم إلى جواده وامتطاه إلا نافع فقد وقف قرب الجواد وانحنى قليلاً ثم وضع كفه على ظهره وقفز فإذا به يعتليه. ولاحظ ذلك الجميع فدهشوا من حركته فقال سعيد ضاحكاً:

- «أعد قفزتك يا نافع إنك مدهش».

فضحك نافع وقفز من على جواده، وعاد إليه.. فضحك الجميع

لحركته واتجهوا بخيولهم نحو المدينة، وأطلقوا لها العنان فاندفعت بهم تضرب الأرض بحوافرها بقوة وكأنها تطير.

* * *

وما هو إلا وقت قصير، حتى كانوا على أبواب المدينة، وبوصولهم كان الفجر ينبثق من المشرق بنور أبيض، انطلق معه الأذان من شتى أنحائها يرتفع لينشر نوعاً من السحر يجلبب النفوس ويسمو بالأرواح إلى عالم من الإيمان بعيد.. بعيد المدى.. وخفف الأربعة سير خيولهم، وبعد لحظات قال سعيد:

ـ «الحسين الآن من المؤكد أنه في المسجد الأعظم يصلي صلاة الصبح فهيوا بنا إليه».

وأداروا أعنة خيولهم ناحية المسجد حتى وصلوا فترجلوا وأخذ كل منهم بعنان جواده وقد قربوا، وإذا بنافع يقف وهو ينظر إلى ناحية معينة نحو بعض الأزقة، وقد رأى فيها أشباحاً لرجال ملثمين يظهرون من هنا وهناك فأشار بيده لرفاقه أن يتوقفوا ويتطلعوا نحوهم وقال هامساً:

ـ «سعيد.. وهب.. جون، هذا أحدهم، رأيت لباسه من قبل». وسكت لحظة وهتف بعدها:

ـ «إنهم هم، تلك العصابة، إنها تسرع بتنفيذ مؤامرتها قبل أن يصل الخبر للحسين».

فأسرعوا الخطى نحو المسجد، ولما وصلوا ربطوا خيولهم غير بعيد ووقفوا قرب الباب ودخل سعيد وأطل برأسه فرأى الحسين وخلفه بعض أصحابه يصلي بهم صلاة الصبح». فهمس بغضب:

ـ «أين أنت يا سيدي وأين هم! أنت بين يدي ربك وهم يدبرون المؤامرات على حياتك.. شتان ما بينك وبينهم».

وتقدم نحو رفاقه هامساً:

- «الحسين يصليّ فلنتصد لهم. . تلثموا وإذا كان قتال، فلا قتل بل دفاع فالحسين لا يرضى به في المدينة». فتلثموا ووقفوا يواجهون الآتين.

وكان المتآمرون قد تجمعوا من أفواه الأزقة، وتقدموا بحذر نحو باب المسجد، واقتربوا وكلهم ملثمون. وأراد البعض منهم الدخول للمسجد فتصدى لهم سعيد قائلاً:

- «إلى أين؟».

فقال أحدهم: «إلى المسجد ابتعدوا».

وبسرعة امتدت يد نافع إلى لثامه وكشفه صارخاً:

- «أنت أيضاً؟».

فاستل الملثمون سيوفهم وهجموا على الرفاق الأربعة، وكان هؤلاء لهم بالمرصاد فاستل كل واحد منهم سيفه وأخذ بالدفاع، أما جون فقد تناول الترس المعلق بكتفه وبدأ الأربعة بالقتال. وكأن المتآمرين كان لهم خطة لإبعادهم عن باب المسجد فاستدرجوهم فابتعدوا قليلاً فهتف بهم وهب:

- «إياكم والابتعاد عن باب المسجد، وامنعوهم من الدخول».

فعاد الأربعة وتراجعوا نحو الباب وأخذوا يقاتلون دفاعاً دون أن يتزحزح أحد منهم عن مكانه.

وطال القتال، وطال الدفاع وجرح البعض من المتآمرين.

اللقاء مع الحسين

وخرج الحسين ووقف على عتبة المسجد ليرى ما هناك، وإذا بسهم يصفر وينغرس قرب وجهه بحافة الباب، فتناول وهب رمحاً ملقى على الأرض وأطلقه معكوساً فطار الرمح ليصطدم بصدر الذي أطلق السهم، بينما كان سعيد ونافع وجون يردون هجمات المتآمرين الذين كثر الجرحى بهم فتراجعوا، فتركهم الرفاق ليختفوا في الأزقة وخلف البيوت.

وهدأ كل شيء والحسين لم يزل في مكانه وأصحابه خلفه على باب المسجد وبداخله. .

وأدرك ما يجري فقال للرفاق الأربعة:

ـ «جزاكم الله خيراً. من أنتم؟».

فقال سعيد:

ـ «سيدي. . أتسمح لنا بمرافقتك لبيتك وهناك نخبرك بكل شيء».

وسار الحسين، فسار جون على يمينه ووهب على يساره، وسعيد ونافع خلفه وأصحاب الحسين خلف الجميع وعيون الكل تتفحص كل شبر من الطريق وما حول الطريق. . وإذا بهم يسمعون جلبة رجال يركضون بلباس

النوم، منهم من ارتدى نصف ثيابه ومنهم يبدو حاسر الرأس ومنهم حافي القدمين. . وبأيديهم السيوف مشرعة. . واتجه الجميع نحو الحسين الذي توقف فتوقف الجميع وعاد الرفاق الأربعة يأخذون أهبة الاستعداد للدفاع عنه، وتجمع المهاجمون ووقفوا أمام الرفاق لاهثين والعرق يتصبب من وجوه البعض وقال أحدهم آمراً:

ـ «ما هذا ومن أنتم؟».

وأراد أن يتقدم نحو الحسين، فاعترضه نافع قائلاً:

ـ لو تقدمت خطوة واحدة لأرديتك».

فقال الحسين:

ـ «دعوهم إنهم أصحابي».

فتقدموا نحو الحسين يستفسرون بلهفة عما يجري، وقال أحدهم:

ـ «قيل لنا أن هناك من يريد اغتيالك في المسجد يا مولاي، فما جرى؟».

فقال الحسين:

ـ «تعالوا إلى منزلي وسنعرف كل شيء».

ومشى الكل يحيطون به حتى وصلوا، وبقي الجميع في الدار بينما دخل الحسين للحظات إلى ناحية أخرى من البيت قائلاً:

ـ «سآتي».

وأخذ الجميع يتأملون الملثمين الأربعة بصمت وفضول، وما عتم الحسين، أن أتى وهو يلبس لباس النهار، وقال:

ـ «والآن أيها الملثمون أحسروا اللثام لنتعرف على أنصارنا».

وكان أول من فعل جون الذي ما إن رآه الحسين حتى هتف قائلاً: «جون؟ حياك الله». وتقدم جون والدموع تترقرق بعينيه وتناول يد الحسين

وقبلها قائلاً:

ـ «فداك أبي وأمي يا سيدي يا بن رسول الله. . الحمد لله على سلامتك».

فقال الحسين:

ـ «أهلاً بك قد أفرحني لقياك. . إنك ذكرى عزيزة من أبي ذر رضوان الله عليه». وعاد جون لمكانه. ثم التفت الحسين إلى سعيد وقال:

ـ «وأنت؟».

فرفع سعيد اللثام وهتف الحسين:

ـ «ابن عبدالله الحنفي يا أنصاري أهلاً بكم».

وتقدم سعيد وأخذ يد الحسين وقبلها قائلاً:

ـ «سيدي. . إن دماء عبدالله الذي فدى أباك تجري بجسد ابنه سعيد». وعاد لمكانه، ثم التفت الحسين إلى نافع وقال:

ـ «وأنت؟».

فأزاح نافع اللثام فبان شاباً حدثاً، وتقدم نحو الحسين وانحنى على يده يقبلها. ثم التفت إليه وأطال النظر إلى وجهه باحترام عميق وقال:

ـ «أنت لا تعرفني يا سيدي فأنا نافع بن هلال المرادي وليس لي أب حتى أقول لك فداك أبي وإنما فداك روحي».

وتراجع مرتبكاً، فتركه الحسين ليهدأ والتفت إلى وهب وقال:

ـ «وأنت؟».

فتقدم وهب وانحنى على يد الحسين وقال:

ـ «لم أقبل يد أحد بعد. . وقد أكرمني الله وشرفني أن تكون يدك الشريفة هي التي أقبلها». وقبل يده وقال:

ـ «أنا وهب بن حباب وقد أكرمني الله بهذا اللقاء. . وسيكون لي حديث معكم».

فقال الحسين:

ـ «أهلاً بكم جميعاً. . تعال يا نافع».

وتقدم نافع فمسح الحسين على رأسه بحنان وقال:

ـ «لن تكون من اليوم فصاعداً بدون أب فاعتبرني كأبيك. . فأبوك لو لم يكن كريماً لم يلد كريماً».

فرفع نافع رأسه وقد امتلأ نشوة وقال:

ـ «شكراً. .» وتراجع.

وجلس الحسين فجلس الجميع بين يديه صامتين وقال:

ـ «ما وراءكم؟».

فقال سعيد:

ـ «هناك أشياء سنحدثك بها يا سيدي على انفراد».

فقال الحسين:

ـ «كل من هنا أصحابي وهم خير الأصحاب ولا أسرار عليهم».

فقال سعيد لنافع:

ـ«يا نافع تكلم بما عندك».

وتقدم نافع وأخذ يروي القصة من أولها إلى آخرها. وما أن انتهى حتى عبس الحسين وبان عليه التفكير العميق ثم قال:

ـ «إذاً بدأوا، ولكن الله جل وعلا لن يسمح لهم أن يتمادوا في غيهم. . فالله حسبنا ونعم الوكيل».

وعاد للصمت والجميع سكوت. . ثم قال بعدها:

ـ «والله ما كُذبت وإن قضاء الله جار أمره فله الحمد على أي حال. وإني أعلمكم أنه منذ مدة أتتني كتب كثيرة من العراق يدعونني فيها للمجيء إليهم وهي دفعة جديدة بعد أن كانوا أرسلوا مرات ومرات مثل ذلك».

فقال سعيد:

ـ «سيدي.. وأنا أيضاً رسول شيعتكَ بالعراق ومعي لك رسالتان منهم».

ومد يده إلى جيبه وأخرج رسالتين سلمهما له فأخذهما قائلاً:

ـ «مساءً نجتمع للبحث في هذا الأمر».

وكانت كلماته ايذاناً للجميع بالانصراف فوقفوا، ووقف الحسين مودعاً بينما طلب إلى الرفاق الأربعة أن يبقوا، وعندما ذهب الجميع توجه نحوهم وقال:

ـ «أنتم أصحاب بررة فجزاكم الله خير الجزاء ووفاكم الله الأجر».

ثم نادى:

ـ «يا عبدالله بن سمعان».

فإذا برجل طويل القامة نحيل الجسم هادىء الملامح يدخل ويقف متأدباً وقال الحسين:

ـ «هيىء لهم كل ما يؤمن راحتهم»

فانحنى عبدالله باحترام وقفل راجعاً:

وقال وهب:

ـ «أتسمح يا مولاي لي بالانصراف فهناك من ينتظرني».

فقال الحسين:

ـ «اسمعوا جميعاً.. ليس هناك حاجز بيني وبين أصحابي».

فقال سعيد باسماً:

ـ «ولكن أخي وهب آت بمهمة قد تكون خطورتها موازية لبطولته».

فنظر الحسين إلى وهب متمعناً وتقدم بجلسته وقال مهتماً:

ـ «أنت الذي من أهل الكتاب؟».

فجحظت عيون الجميع وجرض وهب بريقه وقال:

ـ «نعم يا سيدي».

فأكمل الحسين:

ـ «أين أمك وعروسك؟».

فارتبك وهب وقال:

ـ «هما هنا بالمدينة عند صديق قديم لنا واسمه سعد بن حماد الأنصاري كان يتجر بالشام وينزل في بلدنا.. ولكن يا سيدي قد تكون مني جرأة أن أسأل، لم يعلم بذلك إلا الله ونحن الثلاثة».

فقال الحسين:

ـ «إذهب واستأذن صاحبك واستدع أمك وعروسك فأهلاً بكم».

ثم نادى الحسين عبدالله فحضر فقال له:

ـ «ليذهب نعمان مع وهب إلى بيت سعد بن حماد الأنصاري».

ثم قال لوهب:

ـ «مرحباً بكم.. وعندما يلتئم شملك بوالدتك وعروسك ننفذ رغبتك».

ووقف وهب ذاهلاً وودع مستأذناً وخرج ليتبع نعمان.. وفي رأسه فكرة تحيره، فما الذي أدرى الحسين به وبغرضه قبل أن يعلنه؟ ومن قال له ذلك؟ ولكن ألا يمكن أن تكون أمه قالت لسعد المضيف عن سبب مجيئهم للمدينة، وهذا قال للحسين؟».

لذلك ما إن اجتمع شمله بأمه وهانية حتى فاجأ أمه قبل أن يرد عليها تحيتها وسلامها قائلاً:

ـ «أماه، هل قلت لأحد عن سبب مجيئنا إلى المدينة؟ وأنت يا هانية هل قلت ذلك؟».

فأنكرتا مؤكدتين أنهما لم تتكلما بهذا الموضوع البتة أمام أحد.

فجلس وجلستا وأخذ يخبرهما بكل ما جرى. وإذا بالأم تعانقه مقبلة قائلة:

ـ «أفرحت قلبي بنصرك للحسين والدفاع عنه ثم بإدراكك أن الحسين يحمل أسراراً لا يعرفها البشر».

وقالت هانية بدلال:

ـ «نحن جميعاً متفقون سلفاً على ذلك ولكن لسنا متفقين على أن تنساني» وتبسمت.

فنظر وهب إليها بحب وقال:

ـ «كان ذلك فوق طاقتي يا هانية، ولكن يعلم الله أني لم أنسك ولم أنسَ أمي أبداً».

وأخذ الثلاثة بالحديث والأسئلة وبث الأشواق وأخبرهم برغبة الحسين بالانتقال إلى داره.

وبعد قليل استأذنوا من صاحب الدار وانتقلوا إلى دار الحسين.

وفي تلك الأثناء كان الحسين يسأل سعيداً وجوناً ونافعاً عن أهلهم وأحبائهم ويتبسط معهم بالحديث ويهبهم كل عطفه ورعايته وقال لنافع:

ـ «وأنت يا نافع إذا أردت الإقامة عندنا فأهلاً بك وإذا أردت الرحيل جهزناك بما تريد إلى حيث تريد».

فقال نافع:

ـ «أوصتني أمي أني إذا بلغت المدينة أن أبقى معكم».

فقال الحسين: ـ

ـ «حباً وكرامة فأنت من أصحابي، فأهلاً بك».

وفرح نافع واستأذن ليخرج كما استأذن سعيد وجون فقال لهم الحسين:

ـ «أنتما ليس بيننا وبينكم تعارف جديد».

وخرجوا.

وعاد وهب بأمه وهانية لينضم هو إلى الرجال في دار الحسين وأمه وهانية لنساء الحسين وأهل بيته.

ورحب أهل بيت الحسين كثيراً بأم وهب وهانية وتم تعارفهما بكل من في الدار.

لقاء مع العباس وشباب آل محمد

ولم يمض وقت طويل حتى عاد سعيد وجون ليجتمعا بوهب في دار الحسين، حيث وجدوا شاباً طويل القامة مفرطاً في الطول، جميل المنظر قوي البنية، في خده شامة وشعره جدولة طويلة واحدة إلى الخلف يقف مع وهب يتحادثان. وما أن رآهما الشاب حتى هتف:

ـ «سعيد.. جون.. كنت بانتظاركما».

وإذا بنافع يدخل فالتفت وهب إلى الشاب وقال:

ـ «هذا نافع».

فمد الشاب يده مرحباً بنافع باشاً له وتبسم نافع بمرح وهو ينظر للعلاء لفرط طول الشاب ومد يده قائلاً ضاحكاً:

ـ «أشعر كأنني غصن صغير أمام نخلة هائلة».

وضحك الجميع، وكانت لحظة منعت جون من الرد على ترحيب الشاب فأجاب سعيد:

ـ «سيدي أبا الفضل.. السلام عليكم والرحمة أهلاً بكم أنتم».

وقال جون محتضناً أبا الفضل قائلاً:

ـ «ألا بارك الله بك يا سيدي ما شاء الله. . لم أرك منذ زمن بعيد».

ونظر نافع بغباء للكل فقال وهب:

ـ «نافع. . هذا العباس أبو الفضل أخو مولانا الحسين».

فشعر نافع بالبغتة تعتريه لمزاحه مع العباس فجرض بريقه وقال مرتبكاً:

ـ «أرجو المعذرة يا سيدي. . لجرأتي».

فشعت بعيني العباس ابتسامة ممتزجة بالعطف والحنان وقال:

ـ «أخبروني عنك ما يجعلك كبيراً بنظري. . فأنت غصن وردة يا نافع».

فنظر نافع لرفاقه فرحاً وقال:

ـ «شكراً».

وقال وهب:

ـ «كنا ذاهبين أبو الفضل وأنا إلى داره حيث يتمرن بعض الشباب على السلاح».

فقال العباس:

ـ «تفضلوا معنا. . تفضلوا. . واليوم مساء نحن على موعد مع سيدي أبي عبدالله (الحسين)».

وسار الجميع في بعض الأزقة، حتى وصلوا إلى بيت، وتقدم العباس وفتح الباب ودخل. . وبدخولهم واجهتهم ساحة واسعة، فيها بعض الشباب يتمرنون على القتال بأنواع مختلفة من السلاح، فهنا شابان يتقارعان بالسيوف وهناك اثنان بالرماح والتروس وآخران كل منهما يحمل ترساً وسيفاً يتضاربان، وهذا شاب يركع وهو يسدد سهماً لهدف وذلك آخر يأتي بحركات جميلة.

وبدخول العباس توقف الجميع. . وتقدم شاب في العشرين من العمر جميل جداً متوسط القامة ممتلىء الجسم تطل من عينيه الباسمتين سيماء

النجابة وعلى وجهه وجسده كله مسحة نبل وشجاعة وحياء وكل شمائل الرجولة الفذة، تقدم نحو العباس ورمى التحية على الجميع.

والتفت نافع نحو جون فإذا به يحدق بالشاب مبهوتاً والدهشة تطل من عينيه وهو يتمتم بصوت مسموع:

ـ «أقسم بتربة أبي ذر كأني أمام رسول الله».

وبنفس الدهشة تطلع الجميع للشاب.. وعاد جون للقول:

ـ «رأيت رسول الله مرات ومرات وأحفظ صورته بأعماقي وأجدد قسمي.. فكأنه رسول الله».

فقال العباس:

ـ «أعرفكم به فهذا ابن سيدي أبي عبدالله الحسين، علي الأكبر، وصدقت يا جون فنحن جميعاً كلما اشتقنا لرسول الله نظرنا إليه وتمعنا به فهو يشبهه خَلْقاً وخُلُقاً ومنطقاً». ثم التفت إلى علي الأكبر وقال معرفاً الرفاق:

ـ «جون مولى أبي ذر.. وهب.. سعيد بن عبدالله الحنفي.. نافع بن هلال المرادي».

فمد علي الأكبر يده مسلماً مرحباً.. وجون لم يزل ينظر إليه مندهشاً.

وقال وهب:

ـ «وصف لي رسول الله وصفاً دقيقاً.. والله إنها تنطبق على علي الأكبر بحذافيرها.

وقال سعيد:

ـ «الحمد لله.. إن أهل البيت ورثوا رسول الله بخلْقه وخُلُقه».

وإذا بالعباس ينادي الشباب قائلاً:

ـ «قاسم.. تعالوا كلكم».

وأسرع الشباب ووقفوا بين يديه متأدبين.

وأخذ العباس يقدمهم واحداً واحداً مشيراً لكلٍ باسمه:

ـ «القاسم بن الحسن، عبدالله بن مسلم بن عقيل، محمد بن مسلم بن عقيل،، محمد بن أبي سعيد بن عقيل، جعفر بن عقيل، عبدالرحمٰن بن عقيل، عبدالله الأكبر بن عقيل، عبيدالله بن عبدالله بن جعفر، أبو بكر بن الحسن، عبيدالله أخي وملقب بأبي بكر، عمر أخي، محمد الأصغر أخي، عبدالله أخي وهؤلاء الثلاثة عبدالله وجعفر وعثمان أخوتي من أبي وأمي».

وبعد أن تم تعارفهم بالأربعة الرفاق قال لهم العباس:

ـ «عودوا للتمرين».

فعاد الشبان وأخذ كل موضعه فتبسم جون بحنان وحب وتقدم للساحة مستأذناً العباس، ثم تناول ترساً معلقاً على الجدار وأدخل فيه يده اليسرى وقال للقاسم:

ـ «أضربني بسيفك كيفما شئت».

وعند ذلك توقف الجميع للتفرج على جون والقاسم، ونظر هذا لعمه العباس وكأنه يسأله أن يأذن له، فتبسم العباس علامة الموافقة، فتقدم الفتى وأخذ يضرب بسيفه جون وأخذ جون يتقي ضربات الشاب بحذر وهو يشجعه على ذلك، وتتابعت ضرباته سريعة محكمة إلا أن جون كان يتلقاها بحنكة، وبقيا كذلك حتى بان التعب على الفتى، وتثاقلت ضرباته وخف وقعها، فتقدم جون منه وأخذ السيف ثم تقدم إلى عمود خشبي مغروس بالأرض وضع للتمرين عليه بضرب السيوف، وقال للقاسم مصححاً له:

ـ «هكذا. . هكذا». وضرب العمود أفقياً وإذا بالسيف ينغرس كله بالخشب.

ولاحظ الجميع أن ضربة جون كانت قوية فخطر لهم أن يجربوا هم أيضاً، فتقدم سعيد باسماً وانتزع السيف من العمود وضرب ضربة قوية فانغرس السيف كضربة جون. . وترك سعيد السيف، فتقدم وهب وضرب

بدوره فكانت ضربته أقل بقليل من ضربة سعيد وجون. . فبان التعجب على وجوه الجميع ونظر سعيد لنافع وقال له:

ـ «تقدم يا نافع وجرب».

فضحك نافع وأخذ يشد السيف لينتزعه من الخشب، وبعد جهد أفلح وضرب فإذا بالسيف ينغرس قليلاً فضحك الجميع لذلك. وابتسم العباس ونظر إليه الكل وعلى وجوههم علامة انتظار. وأدرك أنهم يطلبون إليه أن يضرب هو أيضاً فتقدم بهدوء وأخذ السيف ووقف مواجهاً العمود ورفع يده به وأهوى بضربة هائلة فإذا بالسيف يبتر العمود بتراً ويفصل القسم العلوي عن القسم السفلي. فعلت أصوات التعجب والإعجاب من الجميع وصرخ بعض أنسبائه:

ـ «الله الله . . يا عم».

أما جون وسعيد ووهب ونافع فقد تبادلوا النظرات المدهشة وفيها الكثير من التعجب والإعجاب. . وتراجع جون وعلق الترس مكانه بينما هتف العباس بالشبان:

ـ «عودوا للتمرين».

ثم التفت للرفاق الأربعة وقال باسماً:

ـ «تفضلوا لنذهب لأبي عبدالله».

* * *

وبالطريق عند رجوعهم استأذن العباس من أنه سيعرج على بيته ويلحق بهم إلى دار الحسين، وبقي الرفاق بصمت حتى حطمه جون قائلاً:

ـ «قد تكونوا استغربتم ضربة أبي الفضل».

فقال سعيد:

ـ «فعلاً استغربتها مع علمي أنه ابن أمير المؤمنين».

فقال جون:

ـ «أتعرفون ما يلقب العباس بغير لقب أبي الفضل؟» فنظروا إليه متسائلين فقال:

ـ «إنه يلقب بقمر بني هاشم.. ولا غرابة فأبوه كانت ضربته تسمى البتراء فإذا ضرب أفقياً قط وإذ ضرب عمودياً قد حتى يصل السيف فالقاً هامة الفارس حتى ظهر جواده».

فقال وهب:

ـ «الحق أنني لم أر ولم أسمع بمثل هذه القوة الخارقة».

فقال جون باسماً:

ـ «سأحكي قصة من قصصه وهي تشبه الأساطير، ولكني رأيتها بأم عيني وأعتقد أن سعيداً رآها أيضاً ولو أنه كان صغيراً.. أتذكر ذلك يا سعيد في صفين؟».

فقال سعيد:

ـ «تقصد مبارزته مع الشامي وأولاده؟».

فقال جون:

«هي.. هي».

فقال سعيد:

ـ «لم أنسها منذ ذلك اليوم».

فقال نافع:

ـ «احكها لنا يا جون».

فقال جون:

ـ «كان ذلك في صفين وقد اجتمع عسكر الشام وعليه معاوية، وعسكر العراق وعليه أمير المؤمنين.. وكانوا كثيرين يعدون بعشرات الألوف، وكلهم

شاكوا السلاح وقد اصطفوا صفين في ساحة المعركة، وأخذ يخرج من هذا المعسكر بطل ومن ذاك بطل ويتبارزان. وخرج العباس وكان ما زال شاباً في أوائل عهد الشباب، وكما لاحظتم أنه هادىء رزين صارم له شخصية قوية جداً وله هيبة عظيمة مع أنه لا يتجاوز الآن الرابعة والثلاثين واسمه يرعب الأعداء ثم أنه حيي طيب مع الأصحاب والأحباء يكاد النبل والشجاعة والتقى جميعاً تتفجر من جوارحه، وبرز العباس. وكان أمير المؤمنين قلما يأخذه لحرب خوفاً عليه حتى من عيون الأعداء، ثم ادخاراً له على ما علمت ليكون ناصراً لأخيه مولانا الحسين، وعندما برز العباس كان ملثماً ولم يعرفه من الأعداء أحد، ولكن كانوا رأوا منه بالحرب قبل ذلك مما جعلهم يحسبون له ألف حساب. ووقف بين الصفين بفرسه وطلب البراز وكما قلت كان لم يزل صغيراً لم يصلب عوده بعد فهابه الجميع ولم يبرز إليه أحد فقال معاوية وكان يعرفه لأحد كبار أبطال معسكره واسمه ابن شعثاء وكان يعد بعشرات الفرسان لبطشه . . .

ـ «قم بارز هذا الشاب».

فقال الرجل باستهزاء واستخفاف:

ـ «أنا أنازل هذا الغلام؟ عندي أربعة أولاد أرسل له أحدهم».

وانتدب أحد أولاده فنزل هذا للمعركة وبلمح البصر كان مجندلاً. ووقف العباس ينتظر. فانتدب الأب الثاني، وأيضاً كان مجندلاً فغضب الأب وانتدب الثالث فلحق بأخويه ثم الرابع وإذا بهم كلهم قتلى.

وبهت الأعداء فقام الأب مغضباً ووقف أمام العباس صارخاً:

ـ «من أنت؟».

ولم يرد عليه العباس فازداد غضباً وكان قوياً صلباً شجاعاً فقال وهو يرعد ويزبد:

ـ «أنا ابن شعثاء. . وسأقطعك إرباً».

ولم يرد عليه العباس، وحبس الجميع أنفاسهم. وتطلع أمير المؤمنين إلى ولده وأرخى عينيه حباً وعطفاً وحناناً وألماً. وخاف الكثيرون على العباس فقد كان ابن شعثاء معروفاً ببطشه. ولكن كان العجب العجيب أنه عندما هجم بقي العباس، واقفاً مكانه، وتعددت هجمات ابن شعثاء والعباس لا يتزحزح وإذا بسيفه يرتفع ويهوى.. أرأيتم ضربته على عمود الخشب؟ كانت تلك الضربة أعظم بكثير.. بكثير. فقد شقت خوذة الحديد ونزلت إلى حنكه. وسقط ابن شعثاء قرب أولاده بمنظر رهيب. وبدأ الرعب مرفرفاً فوق عسكر معاوية بينما كان معسكرنا بفرح وعلا منه التكبير والتهليل. ورجع العباس بنفس الهدوء والسيف بيده اليمنى والترس بيده اليسرى ولم تبد عليه آثار معركة ومبارزة.. وتقدم من الإمام الذي نظر إليه بلهفة كبيرة وهو يقف أمامه ثم احتضنه وأرخى اللثام عن وجهه وقبله بين عينيه وأمره بنفس اللهفة أن يبقى بعيداً عن الحرب. وهو لذلك لم يحارب أبداً بعد ذلك».

فقال وهب:

- «لاحظت مع كل ما ذكرت يا جون أن في جبهته آثار السجود فهل هو ورع لهذه الدرجة؟».

فقال جون مستنكراً ومؤكداً:

- «العباس؟ تقي ورع متعبد زاهد وله أخلاق وآداب لا أجد أحداً في الدنيا يتحلى بها إلا أهل البيت فمثلاً:

فهو لم يقل حتى اليوم لأخيه الحسين مرة واحدة يا أخي إلا سيدي أو يا أبا عبدالله وهو من شدة احترامه لأخيه يبقى واقفاً بين يديه حتى يدعوه للجلوس».

فقال وهب:

- «هذه بيوت الإسلام الحقيقية وهذه أخلاق آل محمد».

ثم ضحك وقال:

ـ «يزيد مات أبوه ولم يكن حاضراً وبويع بالخلافة غيابياً وهو يستجم مع الغواني والخدم وأمه واسمها ميسون لم تكن مسلمة وقد تربّى في أديرة ثم هو خليفة لرسول الله إنها مهزلة يمثلونها ويريدون منا بالعنف أن نشترك بتمثيلها على مسرح خلافتهم. . وأنى لهم ذلك».

فقال نافع مازحاً:

ـ «أما أنا فكيف لا أكون غصن وردة كما قال أمام نخلة كبيرة وعملاق هائل؟».

وضحك الجميع لكلمات نافع وانعطفوا بالطريق يتوجهون نحو بيت الحسين. وإذا برجل يعترضهم قائلاً:

ـ «أنا عمر بن قرظة الأنصاري».

وتأملوه فتذكروا أنه ممن أتوا لنجدة الحسين فرحبوا به فقال:

ـ «كنت أفتش عنكم. . فأرجو مرافقتي فهناك من يريد التعرف إليكم».

ووافقوا، ورافقوا الرجل حتى وصلوا إلى أحد البيوت فإذا بهم في دار بها عدد كبير من الرجال.

رفـــاق الفــداء

وما إن دخلوا حتى هب الجميع يستقبلونهم ووسعوا لهم فجلسوا وجلس الجميع. . وبعد الترحيب وكلمات الإطراء والثناء وقف رجل وقال:

ـ «أيها الاخوة بالإيمان، يسعدنا أن نـراكم بيننا ونشعـر وندرك أنكم من أنصار الحسين فأهلاً بكم فقد حللتم أحباء على قلوبنا».

فقال سعيد:

ـ «إن ذلك لشرف لنا ونحن كما قال الأخ أخوة بالإيمان ولا صلة أشرف من هذه الصلة، فنحن نرحب بإخوتكم فأهلاً بكم أيضاً ومرحباً».

وسر الجميع لكلمته. . ثم قال الواقف:

ـ «والآن سأعرفكم على هؤلاء وأمـا نحن فعرفنـاكم». وأخذ يشيـر لكل واحد من الحاضرين باسمه قائلاً:

ـ «عمـر بن قرظـة الأنصاري. . عمـر بن خالـد الصيداوي، حنـظلة بن سعد، عمرو بن خالد الأزدي وابنه خالد بن عمرو، سعد بن حنظلة، عميـر بن عبدالله المذحجي، عبدالرحمٰن بن عبدالله المزني، قرة بن أبي قرة الغفـازي،

مالك بن أنس المالكي، عمر بن مطاع الجعفي، أنيس بن معقل الأصبحي، جنادة بن الحارث الأنصاري، عبدالله وعبدالرحمٰن ابني عروة الغفاريان، سيف بن الحارث بن سريع ومالك بن عبدالله بن سريع الجابريان، أبو عمر النهشلي، مالك بن ذودان.. وابراهيم بن الحصين الأزدي».

ثم التفت إلى الرفاق الأربعة وقال:

- «وأنا سويد بن عمر بن أبي المطاع.. وهناك غيرنا لم يتسن حضورهم، ولكن كلمتهم كلمتنا».

وجلس وعرفوا أنه صاحب الدعوة ثم قال سويد:

- «أيها الرجال.. عرفتم أن الطاغية معاوية قد هلك، وقد ترك أمر المسلمين ملكاً ووراثة لابنه الدعي يزيد، ويزيد هذا لا يؤتمن على قطة فكيف به أمين هذه الأمة وخليفة الرسول الأعظم وإمام المسلمين، فهذه والله جريمة كبرى بحق المسلمين والعرب بأن يولى عليهم جلف جاف لا يعرف من الدين والعدالة أكثر مما يعرف عن موبقاته وخموره.. فلهذا نحن من اليوم نعتبر خلافته تحدياً للإسلام والإيمان والعدالة. وإننا كنا صبرنا قبلاً لأن الخلافة، ولو أنها لم تكن اسماً على مسمى، إلا أن معاصيها كانت مستترة، أما اليوم فهي ملك ومعنى هذا سيكون الإسلام جسراً تمر عليه أمية إلى أهدافها بملاذها وبفجورها في الدنيا، وسنكون نحن المسلمين في جميع أقطار الأرض لسنا سوى عبيد وجنود، عبيد نعمل لأجلهم، وجنود نحمي ملكهم، وما عدا ذلك لن يكون لنا سوى اللقمة والسوط، وهذه لعمري للموت أهون ألف مرة من أن نجعل أبناء آكلة الأكباد علينا ليتحكموا برقابنا ولقمتنا وديننا وحياتنا، وها هو الزكي ابن الزكي الحسين ابن بنت رسول الله بين أظهرنا ما غيّر وما بدل فهو هو كما كان أبوه وكما كان أخوه وكما هم أهل البيت على هدى جدهم رسول الله».

ثم التفت إلى وهب وقال:

- «أنت يا وهب من الشام، هل تشهد أن بيوت بني أمية وخاصة يزيد

فيها إلاّ الرجس والخمر والفجور والظلم والاستعباد؟».

فقال وهب:

ـ «نعم أشهد وأزيد، أن لحياة بني أمية طابع خاص، أعطي مثلاً من يسمون أمراء، فلباس أحدهم يكلف أكثر من خمسة آلاف درهم، وهناك واحد منهم مثلاً له طيب خاص يؤتى له خصيصاً من الهند حتى إنه يعرف من البعيد من رائحته[1] ثم أحدهم إذا كان ماشياً وسقط رداؤه على الأرض، رداؤه الذي يكلفه أكثر من ألف درهم لا يتنازل ويلتفت إلى الرداء الذي سقط ويتركه ليلتقطه الناس.. وأيضاً إذا كان سائراً ودخل طرف ثوبه بالنعل فإنه يشده ويمزقه ولا ينحني ليرفعه، وذلك ليبرهن للناس أنه أكبر بكثير من أن ينحني على شيء تافه ثمنه ألف درهم أو خمسة أو عشرة آلاف درهم.. ثم أشهد وأن الحالة هذه هناك سجون تضم آلاف المعذبين الجائعين الذين يذوقون الموت كل يوم مرات وذلك لأنهم لم يدفعوا الجزية كيلاً من قمح أو من شعير».

فعلت همهمة استنكار من الجميع فيها الكثير من الغضب.. فقال سويد:

ـ «وأنا أشهد وكلنا نشهد.. أن بيوت أهل البيت كلهم وعلى رأسهم سيدنا الحسين عامرة بالقرآن، قائمة على الصلاة والعبادة والتسبيح والتكبير وخوف الله والعدل وإنصاف المظلوم وعقاب الظالم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وأنا أشهد وكلنا نشهد أن بيوتهم طاهرة مطهرة قائمة للإيمان أمناء على عهد الرسول إليها في أمته وأمناء على عهدها للرسول في دينه.

«لذلك أيها الرجال.. إن أهل العراق دعوا الحسين عن حسن بصيرة وتبصر فإذا ذهب إليهم فأنا أول من سيرافقه إلى الخير أو الشر.. لأن بنفسي شيئاً منهم لأنهم كانوا غدروا بأبيه وأخيه».

(١) راجع الفتنة الكبرى لطه حسين.

ثم التفت إلى سعيد وقال:

ـ «نحن لا ندين أهل العراق عن الماضي مع أن هناك أبطالاً أحراراً مثلك ومثل أبيك ولكن نقول ذلك لنكون على بينة من أمرنا».

فهب الجميع قائلين بصوت مرتفع:

ـ «ونحن معك. . كلنا للحسين».

فقال سويد:

ـ «رجاء. . ليتكلم كل بدوره».

فأخذ كل واحد يقف قائلاً بقوة وعزم:

ـ «كلنا للحسين. . كلنا فدى الحسين».

فتبسم وهب وقال:

ـ «إنه لأسعدني وشرفني التعرف بكم جميعاً، وأنا لن أذيع سراً إذا قلت أننا نحن الأربعة الرفاق لم يكن تعارفنا لأكثر من ساعات فقط وبدأ بأننا أقسمنا على فداء الحسين وأنا أرتئي أن نكون كلنا تحت ذلك القسم». فوافق الجميع وبايعوا وأقسموا على فداء الحسين.

وتنبه نافع إلى أن الوقت تأخر ويكاد يحين موعدهم مع الحسين، فاستأذنوا مودعين وموّدعين بمثل ما استقبلوا من حفاوة وتكريم؛ وفي الطريق قال وهب:

ـ «الحمد لله حمداً كثيراً على أن هداني فأنا على بينة من أمري».

فقال جون:

ـ «هناك ما لم تعرفوه بعد وسأحكيه لكم».

فأنصتوا باهتمام. . وقال جون:

ـ «قبل مجيئنا حدثت أشياء للحسين هنا في المدينة، وكل الرفاق يعرفونها وقد حكى لي ذلك أحدهم، وهذا يفسر كثيراً من اهتمامهم وتخوفهم

على الحسين، ثم هذا يفسر ما تنطوي عليه نفس يزيد والمؤيدين له.

فمنذ وقت قصير وبعد موت معاوية مباشرة، أرسل يزيد الرسائل إلى العمال ومن جملتهم والي المدينة الحالي، وكلكم تعرفونه وهو الوليد بن عقبة بن أبي سفيان وهو بالطبع أموي ولكن به شيء من التدين. ومما جاء برسالته على ما أذكر بالحرف الواحد قوله للوليد هذا: (يجب أن تأخذ أهل عملك الأصاغر منهم والأكابر البر منهم والفاجر تجديداً لبيعتنا والانقياد لأمرنا والتسارع إلى طاعتنا أخذاً شديداً بلا رخصة ولا تأخير والسلام). ولم يكتف يزيد بذلك بل أرسل للوليد مع هذه الرسالة رسالة أُخرى صغيرة جداً جداً جاء فيها الخطير الخطير وهي: (أما بعد فخذ حسيناً وعبدالله بن عمر (بن الخطاب) وابن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا وانفذ إليهم كتابي هذا والسلام).

ولما قرأ ذلك الوليد بعث من يطلب من هؤلاء الثلاثة الحضور إليه وكانوا عند تربة النبي، فقال عبدالله بن الزبير للحسين: (يا أبا عبدالله ما تظن أنه يريد بنا؟ فقال الحسين: أظن أن طاغيتهم قد هلك وبعث إلينا ليأخذ البيعة منا ليزيد قبل أن يعرف الناس خبر موت معاوية ـ أعيد القول أن ذلك كان بعد موت معاوية مباشرة ـ فأجاب ابن الزبير: والله ما أبايع يزيد أبداً وقال عبدالله بن عمر: أنا لا أجيب الوليد، أدخل داري وأغلق الباب على نفسي. أما الحسين فقال: أنا لا بد لي من الدخول على الوليد والاطلاع على ما عنده؛ وبينما هم كذلك إذ أقبل الرسول ثانية، ونسيت أن أقول لكم إنه كان عمر بن عثمان بن عفان وقال:

ـ (طال انتظار الأمير أجيبوه). وذهب وحده للوليد. ورفض عنده البيعة ليزيد وقال له ما معناه ليس ليزيد عندي بيعة ولا يكون علينا خليفة).

وأرسل الوليد ليزيد يخبره بذلك فإذا بجوابه يأتي بكلمات كلها لؤم وسم وكان الجواب بالحرف الواحد:

(أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فعجل علي بالجواب وبيّن لي في كتابك

كل من في طاعتي أو خرج عنها وليكن مع الجواب رأس الحسين بن علي والسلام).

فعبس سعيد وقال:

- «ألهذا وصل به طغيانه أن يستخف بدم الحسين ابن بنت رسول الله؟ . . ثم التآمر على الحسين لم يكن التجربة الأولى».

فقال جون:

- «هناك ما هو أدهى فاسمعوا بقية القصة: عند ذلك استدعى الوليد مروان بن الحكم ذلك الفاسق واستشاره بالأمر فسرعان ما قال له: لو كنت مكانك لضربت عنقه (يعني الحسين). فأنفذ الوليد للحسين بالليل يستدعيه فعرف الحسين ما يريدون، فدعا جماعة من أهل بيته من شباب آل محمد الذين رأيتموهم وعلى رأسهم العباس وجماعة من أصحابه وأولهم سويد وكان الكل تسعة عشر رجلاً».

فقاطعه وهب قائلاً:

- «يظهر أن القضية أخطر مما نتصور».

فقال جون:

- «كل ما عرفناه كان حلقة من حلقات كلها حول الحسين خوفاً منه. . المهم. . (استدعى الحسين هذه الجماعة وأخبرهم بطلب الوليد وقال لهم: كونوا معي فإذا دخلت عليه فابقوا عند الباب فإن سمعتم صوتي قد علا فادخلوا علينا فأغلب الظن أنه يريد بي شراً. ونفذت الجماعة أمر الحسين وتقلدوا خناجرهم ووقفوا عند الباب ودخل هو لعند الوليد فوجد عنده مروان بن الحكم، فطلب الوليد من الحسين أن يبايع، فقال الحسين مماطلاً: طبعاً لن تقنع ببيعتي سراً حتى أبايع جهراً أمام الناس فنصبح وترى رأيي. فقال الوليد: انصرف على اسم الله تعالى حتى تأتينا غداً أمام الناس. . فقال مروان: والله لئن فارقك الحسين ولم يبايع الآن لن تقدر عليه، احبس الرجل

ولا تدعه يخرج حتى يبايع وإلا اضرب عنقه. فقال له الحسين مغضباً: يا بن الزرقاء أنت تقتلني؟ أم هو؟ كذبت والله ولئمت. ثم قال للوليد: إن يزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس التي حرم الله معلن بالفسق والفجور، ومثلي لن يبايع مثله.. ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة. فجرد مروان سيفه وقال للوليد: مر سيافك أن يضرب عنقه قبل أن يخرج ودمه في عنقي. وسمع ذلك أنصار الحسين بالخارج فاندفع العباس وضرب الباب برجله فكسره وخلفه ثمانية عشر شاباً بأيديهم الخناجر وانتشروا مستعدين للقتال ولم يقولوا كلمة واحدة اللهم إلا عيونهم فقد كانت تنطق بأشياء ارتجف لها مروان والوليد. فخرج الحسين وهم يحفون به»).

وأراد نافع أن يتكلم فأشار له جون بالسكوت قائلاً:

ـ «هناك تتمة.. إذ أنه في اليوم الثاني لقي مروان الحسين بالطريق فتقدم منه بذل ليقول ناصحاً مشفقاً: بايع يزيد. فكان جواب الحسين: إنّا لله وإنّا إليه راجعون وعلى الإسلام السلام إذ قد ابتليت الأمة براعٍ مثل يزيد».

فقال نافع:

ـ «صدق مولاي».

* * *

وهمهم الجميع باستنكار. وتابعوا طريقهم. ووصلوا لبيت الحسين فاستأذنوا ودخلوا. وإذا بأشخاص كثيرين يفدون زرافات ووحداناً فغص الدار بهم. ولم يمض وقت طويل حتى أتى الحسين ومعه أخوه العباس وابنه علي الأكبر. فوقف الجميع احتراماً وأومأ لهم بالجلوس فجلسوا.. وبعد صمت قصير التفت إلى وهب وقال:

ـ «أدن مني يا وهب».

فوقف وهب وتخطى الناس حتى دنا من الحسين الذي قال:

ـ «يا وهب ما الذي جعلك ترغب الدخول بالإسلام؟».

وعلت البغتة وجوه الكثيرين الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عنه وعن سبب مجيئه. . وانصبت عيونهم عليه وكلهم انتباه لما يقول:

ـ «هدى محمد رسول الله».

فقال الحسين:

ـ «تشهد بالشهادتين».

فقال وهب:

ـ «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

فقال الحسين:

ـ «ها أنت أسلمت يا وهب وبقي عليك الإيمان، والإيمان عمل ويقين، والعمل الصلاة والصوم والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . أما اليقين فالخوف من الله سراً وجهراً والاعتقاد اعتقاداً راسخاً بما أنزل على رسوله».

فقال وهب بنشوة:

ـ «وحبكم يا مولاي إيمان».

فقال الحسين:

ـ «أصبحت واحداً منا له ما لنا وعليه ما علينا وسيعلمك برير بن خضير ما لا تعرفه عن الإسلام».

فوقف شيخ جليل نحيل البنية متوسط القامة وعلامة السجود في جبينه وقال:

ـ «السمع والطاعة يا مولاي».

وتراجع وهب بين نظرات الحب والصداقة من الكل وجلس ليلتفوا حوله وتتعالى كلمات الفرح به. وأشار الحسين بيده فإذا بالسكوت يعم الجميع وقال:

ـ «إن أخاكم سعيداً بن عبدالله الحنفي أتاني بالأمس برسائل من أهل العراق يدعونني فيها كعادتهم منذ مدة للذهاب إليهم وكلكم تعلمون أنه للآن أصبح بين يدي منهم آلاف الرسائل من الواحد والاثنين والجمع وحتى الآن لم أقرر الذهاب أم لا ولكن ما سيكون إن شاء الله هو أني سأرحل إلى مكة المكرمة بعد أيام».

وعلا الاستغراب وجوه الجميع وارتفعت همهمة فيها مزيج من عدم الرضا والإذعان لأوامر الحسين.. ووقف أحدهم وقال متأثراً:

ـ «مولاي.. ما دام ذهابكم للعراق ليس مؤكداً فلم الرحيل عنا وتركنا وكيف نعيش بدونك؟».

فعبس الحسين وقبض على لحيته بيده اليمنى وقال بعد تفكير طويل وزفرة صامتة:

ـ «إنه أمر الله عز وجل وأمر رسوله».

فسكت الجميع وقد عمهم صمت حزين تجلى على وجوههم وحركاتهم. وطال السكوت. وأشار سويد للبعض إشارة الخروج فوقفوا واستأذنوا وخرجوا.

وبقي الرفاق الأربعة وقليل من أصحاب الحسين الذي التفت إلى وهب وقال:

ـ «بقي زواجك على سنة الله وسنة رسوله».

فقال وهب:

ـ «مولاي.. إذا سمحتم بتأجيله أكون شاكراً».

فقال الحسين باشاً:

ـ «إن زواجك يجب أن يتم».

وأراد وهب أن يعترض ولكنه لم يتجرأ تهيباً فأذعن.

ووقف الحسين ليدخل الدار وغاب وقتاً يسيراً قابل به هانيـة عند النسـاء اللواتي كن على علم بذلك، وقد هيأن كل الترتيبات اللازمة، فعقد عقد هانية ثم أتى حيث وهب وعقد قرانه عليها. وبذلك أصبحت هانية زوجة وهب على سنـة الله ورسـولـه. وهنـأه الحسين والحـاضـرون والتفت الحسين إلى سعيـد وقال:

ـ «وأنت يا سعيد يجب أن ترجع إلى العراق وجوابي أني لـم اتخذ قراراً بعد بخصوص رحيلي أم لا».

فوقف سعيد ووقف وهب وقال سعيد:

ـ «سمعاً وطاعة يا مولاي.. ولكن أتسمح لي بالعودة».

فقال الحسين:

ـ «حباً وكرامة».

فقال سعيد:

ـ «إذاً سأذهب اليوم واستودعكم الله».

وتقدم مستأذنـاً وكذلـك وهب وخرجـا.. ولـم تمض لحظات حتى وقف جون ونافع واستأذنا وخرجا ليلحقا بسعيد ووهب في الطريق واستوقفاهما وقال نافع:

ـ «قبل ذهابك يا سعيد تعالوا لدار سويد».

فنظر سعيد إلى وهب باسماً وقال:

ـ «هل توافق؟».

فقال وهب متجاهلاً:

ـ «هيوا بنا».

* * *

وسـار الأربعة إلى بيت سـويد فـوجدوا من كـانوا تعـرفـوا عليهم ومعهم

غيرهم مجتمعين، وما أن دخلوا حتى هتف سويد:

ـ «كنت سأرسل بطلبكم ولكن، الحمد لله ها أنتم أتيتم». ولما التأم الجمع قال سويد:

ـ «لن نطيل البحث فالأمر واضح فهل من معترض على مرافقتنا الحسين إلى مكة؟».

فلم يفه أحد بكلمة فقال سويد:

ـ «إذاً نحن موافقون على أن نرحل مع الحسين إلى مكة».

فأجاب الجميع بالإيجاب فقال وهب:

ـ «أرجو إجابتي على سؤال خطر ببالي وأنا أسمع عن رغبة الحسين في الانتقال إلى مكة».

وارتفع صوت من الجمع قائلاً:

ـ «أنا أجيبك يا وهب».

فالتفتوا فإذا به برير بن خضير الذي أكمل:

ـ «إن الحسين يرغب بالذهاب إلى مكة إنما هو يهرب من طريق يزيد وشياطينه الذين يرسلهم لاغتياله وهم بنو أمية وأعوانهم. ومع تآمرهم فهم يستفزونه ويتحرشون به ويضيقون عليه ليدافع عن نفسه فيكون ذلك مبرراً لقتله أمام الناس.. والدافع إلى رحيله هو طهارة الحسين ودين الحسين وخوف الحسين من أن يقتل غيلة في مدينة جده الرسول فتهتك بذلك حرمة المدينة.. ثم في مكة يكون آمناً على أساس أنهم مهما بلغ بهم الفسق والفجور لن يتجرأوا عليه فيها.. هذا هو سبب رحيل الحسين إلى مكة وأنا أعلم الناس بنياته».

فعلت صيحات الغضب من الجميع وقال وهب:

ـ «حكي لي الكثير عن ثورة أبي ذر بالشام ولم أتلمس ذلك عملياً إلا

هنـا. . حيث تلقى أبـو ذر مبـادئـه من الـرسـول وأهـل البيت فـالله والـرسـول والإسلام فوق الجميع. . فوق أي اعتبار. الحسين يهرب من مدينة جـده، من موطنه، من بلده، من أملاكه، من ذكرياته، من جوار جده وأخيه، يهرب فقط حتى لا تخرق حرمة مدينة جده ويكون هو مسـاعداً ـ ولـو معتدى عليـه ـ على ذلك. الله. . الله. . إنها حقاً أخلاق أنبياء. . أما ذلك الدعي العاهر، شـارب الخمر، رفيق القرود والكلاب فهل يـا ترى يقف مـوقفاً مثـل هذا؟ لا والله لـو مات وعاش ألف مرة لما خطرت بباله مثل هـذه الأخلاق فهـو لم ينشأ إلا على الفسق والفجور. .

فيا رجال، إن الأمر خطير ولن نسمح للحسين أن يبقى وحيداً فيجب أن نكون شرطة الله فيه وفي أهل بيته وأنـا أعلن أني لن أعود إلى بـلادي وسأبقى حتى تنتهي مهازل يزيد أو أموت في سبيل الحسين».

واستبـد الحماس بـالجميع فـأخذ كـل واحد ينهض ليؤكـد أنـه سيـرافق الحسين حيث يكون. وقال سعيد:

ـ «وأنا بدوري سـأبدأ بـالذهـاب إلى العراق. . وأرجـو أن يكثر أنصـاره هنـاك ونتحد ونثـور على حكم الطغـاة والبـدع، ونعلن الحسين خليفـة ونعيـد الحق لنصابه فنعيد الإسلام إلى عهـده المشرق النقي، وإذا جـد شيء فسآتي للانضمام لكم وطبعاً بذلك انضم للحسين».

واستحسنوا رأيه فأضاف:

ـ «وكسبـاً للوقت فسأتهيـأ فوراً وسـأسير اليـوم وهذا أمـر مولاي الحسين ويجب أن ينفذ وذلك لأرد الجواب إلى أهل الكوفة».

وقام من فوره مستأذناً فوقفوا يودعونه وداعاً حاراً. . وكذلك رفاقه خرجوا معه متوجهين لدار الضيافـة وهناك سـرعان مـا تهيأ سعيـد للرحيل وذهب لـدار الحسين ليستأذن بالسفر بينما بقي الرفاق الثلاثة بانتظاره فوجده مع أبي الفضل وبعض أهل البيت فتقدم من الحسين قائلاً:

ـ «تأهبت للرحيل، أتسمح لي يا مولاي؟».

فوقف الحسين ومن معه قائلاً:

ـ «محفوظ بالسلامة يا سعيد».

فقال سعيد:

ـ «كنت استأذنت بالرجوع في حال انتهاء مهمتي».

فتبسم الحسين قائلاً:

ـ «إذاً تجدنا بمكة إن شاء الله»

وخرج سعيد مودعاً الجميع الذين دعوا له، واتجه حيث كان الرفاق بانتظاره، وما أن وصل حتى قفز نافع إلى ظهر جواده واستوى عليه ووجهه نحو البوابة الكبيرة وتوقف منتظراً سعيداً الذي ظهر عليه الاستغراب من حركة نافع فأشار لجون ووهب عن معنى ذلك، فتبسما وأتيا بحركة بأيديهما يقصدان أنهما لا يعرفان. فتقدم سعيد إلى جواده وامتطاه واتجه نحو الباب وانحنى نحو جون ووهب ماداً يده مودعاً ثم التفت نحو نافع قائلاً:

ـ «استودعك الله يا نافع».

فلم يرد وبقي ينظر لجهة ثانية فتعجب سعيد ورفع صوته قائلاً:

ـ «قلت استودعك الله يا نافع فلم لا تجيب؟».

فالتفت إليه نافع وقال كلمة كلمة:

ـ «لأني ذاهب معك».

وإذا بضحكات جون ووهب تتعالى وهم يرون البغتة تعلو وجه سعيد الذي نظر إلى نافع وقال بعد برهة صمت:

ـ «الذي أعرفه أنك كنت مصمماً البقاء مع الحسين فما الذي غيّر رأيك؟».

فقال نافع:

ـ «كـان ذلك عنـدما كنت لا أعـرف أن هناك مثـل جون ووهب وسـويد وأصحابنا. . على كل قد تحتاجني في العراق وأكون بذلك أخدم الحسين فلا تنفعه صحبتي الآن. . ثم. . ثم أريد أن أرى أمي».

فقال سعيد مقتنعاً:

ـ «هيا».

وفـرح نافـع ولكز جـواده ملتفتاً إلى وهب وجـون رافعاً يـده مـودعـاً. . ووراءه انطلق سعيد بجـواده خارجين من البـوابة الكبيـرة مارين بـطريق طويـل يؤدي إلى طريق العراق. .

أما وهب فقد التفت إلى جون قائلاً:

ـ «والآن يا جون سأذهب إلـى بـرير بن خضيـر فأحب أن يفهمني أشيـاء أجهلها عن الإسلام».

فقال جون:

ـ «سأرافقك». وسارا متجهين إلى بيت برير؛ وهما سائران قال جون:

ـ «هل كونت فكرة عن برير؟».

فقال وهب: «كلا».

فقال جون:

ـ «برير قبـل كل شيء مجـاهد من كبـار المجاهـدين. . ثم فهو صـريح الرأي جريء وعابد زاهد ويلقب بسيد القراء لأنه أقـرأ أهل زمـانه وهـو مشهور بتعبده وتقواه وما سيقوله لك فهو الحق».

فقال وهب:

ـ «كأنك كنت تعرفه قبلاً».

فقال جون:

ـ «لا تنس أني نشأت في العراق قبـل الانتقال إلى الشـام والحجاز مـع

أبي ذر لذلك فأنا أعرف الكثير عن هذه البلاد ومن فيها».

فتبسم وهب وقال:

ـ «إذاً سيكون لي معه شأن.. ولكن، هل نجده الآن في منزله؟ لأننا تركناه في بيت سويد».

فقال جون:

ـ «أرجو ذلك».

صـوت الحـق

ووصلا وقرعا الباب وفتحته جارية فسألها جون عن برير فأجابت أنه للتو قد وصل. فدخلا ورحب بهما وقادهمـا إلى غرفـة الضيوف ودعـاهما للجلوس ثم قال:

ـ «أهلاً بك يا جون أهلاً بك يا وهب، أهلاً بالأحرار».

فقال وهب:

ـ «بالفعل كنت أعتقد بأني حر حقاً إذ رضيت الإسلام ديناً ومبادءه عقيدة وقـد كنت أستكبر ذلـك من نفسي ولكني عنـد الاجتمـاع بكم واختبـاركم وجدتكم أنتم الأحرار حقاً حقاً».

فقال برير:

ـ «يـا بني، الإسلام ليس مبادئياً بكلمات تقـال وفقط وإنمـا هـو عمـل وإيمان عمل يؤتى وإيمان يرسخ في الأعماق وما عدا ذلك فهو مـظهر أستـطيع أن أسميه نفاقـاً. نعم إن كثيرين ممن يـدعون الإسـلام ديناً هم منـافقون ومـع أنهم يختلفون بنظراتهم إليه فهم يجتمعون بكلمة واحدة هي منافقون لأن منهم من يرى الإسلام إرثاً ورثوه عن آبائهم وكفى فهم رضوا به لأنهم ورثوه؟ ومنهم

من يرى الإسلام حزباً سياسياً وعصبياً (قومياً) يتمسكون بـه ويحافـظون عليه لأنـه يناسب أهـدافهم ومصالحهم. ومنهم من يـرونه نـظاماً اجتمـاعيـاً فينـظم حياتهم بما فيها من مال ومصلحـة. . وقد يكـون أحد هـذه النظرات صحيحـاً ـ ولنفرض ذلك أو كلها صحيحة ـ إلا أنها ليست الصورة الواضحة للإسلام بل. هي أطراف وجوانب لقلة ضئيلة من مبادئه ـ هذا إذا افترضنا صحة ذلـك ـ . . وهو غير ذلك البتة لأنه الصلة بين الله والإنسان أولاً وأخيراً لذلك فالـدين فوق كـل شيء وهو يفـرض نفسـه على الجمـاعـة (يقصـد المجتمـع) ولا تفـرض الجماعة نفسها عليه ولسبب بسيط وهو أن الإنسان إذا كـان متصلاً بـربه بصلة حسنـة فهو من المؤكـد سيتصـل مـع النـاس بصلة حسنـة عنـد ذلـك ستكـون الجماعة بسلام بجميع نواحي حياتها. كما أنه عندما تكون صلة الإنسـان بالله سيئة لا يمكـن أن تكـون صلته بالناس إلا سيئة».

فقال وهب:

ـ «هـا قد طـرقنـا صلب المـوضـوع الـذي جئت من أجله. . فمـاذا إذاً تسمي كثيرين من المسلمين إذا افترضنا صحة نظرتك؟».

فقال برير:

ـ «اسميهم مسلمين اسماً فقط أما مؤمنون فلا».

فقال وهب:

ـ «معنى ذلك أن الإسلام شيء والإيمان شيء آخر».

فقال برير:

ـ «نعم ولا. . أمـا نعم فالإسـلام هو قـول الشهادتين وعنـدمـا يقـولهمـا شخص يصبح مسلماً. أما القول لا فأقول هل تكفي لأن يكون المسلم مسلمـاً أن يتشهـد الشهادتين وتفتـح له أبـواب الجنة؟ ذلـك غير ممكن فـالقرآن ينفي ذلك والرسول والعقل أيضاً».

فقال وهب:

ـ «إذاً كما أن هناك شروطاً للإسلام هناك شروط للإيمان».

فقال برير:

ـ «أحسنت يا وهب فالإسلام هو الباب والإيمان هو المدينة والإسلام هو مدخل الإيمان وأنا أرى كثيرين من المسلمين دخلوا الباب ولم يتعدوه وتوهموا أو ظنوا أنهم آمنوا، لأن للإيمان شروطاً وكما قلت أولها العمل أقصد العمل بمبادىء الإسلام وهي تشبه الطريق في قلب المدينة فبدلاً من أن يمشي المسلم خبط عشواء في المدينة لا يعرف إلى أين يذهب فهناك مبادىء الإسلام التي تشبه الطرق الصحيحة التي توصله إلى نواحي الإيمان.. وذلك لا يكون ولا يمكن الوصول إليه إلا مع معرف أو دليل لمبادىء الإسلام أي طرق الإيمان وهو الإمام، فلذلك كان واجباً على الإمام أن يكون عارفاً بالإسلام ومبادئه وطرق الإيمان واحداً واحداً حتى يستطيع الوصول بالمسلم للهدف لأن نهاية المطاف في هذه الحياة هي: أما النار وأما الجنة.. وإذا كانت الشهادتان وبضع صلوات وصوم تكفي للدخول للجنة والانعتاق من النار فلم حث الله تعالى عباده على العبادة والزهد بالدنيا والابتعاد عن المحرمات وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان ذلك دقيقاً بدرجة تبعث التساؤل.

فلذلك كلنا مسلمون ولكن لسنا كلنا مؤمنين فخذ يزيدَ مثلاً أو أباه معاوية أو زياداً ابن أبيه أو كثيرين لا أحد ينكر أنهم مسلمون ولكن هل نستطيع أن نقول عنهم أنهم مؤمنون؟ أنا أقول وضميري هادىء مطمئن أن لا، فالمؤمن لا يكذب وهم يكذبون والمؤمن يؤثر مصلحة الإسلام فوق أي شيء وهم لم يروا إلا مصالحهم، والمؤمن لا يغدر ولا يخدع وهم غدارون خداعون، والمؤمن لا يقتل النفس التي حرم الله وهم يا ويلهم من ربهم ومن دماء الآلاف المؤلفة الذين قتلوا غدراً وخداعاً وتضليلاً.. والمؤمن لا يسرق وهؤلاء سرقوا مال المسلمين واستولوا على فيئهم وجعلوه فقط للشهوات والمؤامرات والترغيب والدسائس. ومثلاً، تكفي لأحدهم وهو آخر غير من ذكرت غدره

وفتنته يوم التحكيم بصفين وتكفي معاوية قتله حجر بن عدي ودس السم للحسن بن علي ابن بنت الرسول ووضع الأحاديث الكثيرة عن رسول الله كذباً وزوراً، وتكفي يزيد فوق موبقاته أنه يرسل أجلافه ليغتالوا الحسين».

فقال وهب:

- «سأفترض أني لست منكم وأقول إن الجماعة إنما يحافظون على مصلحة العرب والإسلام، والقرآن حث والرسول على وحدة الكلمة وعلى تكتل الجماعة، ثم حث على قتال من يشق عصا المسلمين».

فتبسم برير بألم وقال:

- «هنا المصيبة الكبرى للمسلمين.. أحسنت يا وهب إذ تكلمت عن شيء يهم كل مسلم بالدنيا..

وهل كان الغدر والاحتيال والنفاق وقت التحكيم في مصلحة الإسلام والعرب؟ وهل قتل الحسن بالسم لمصلحة الإسلام والعرب؟ وهل قتل حجر وآلاف من المؤمنين لأنهم لم يشتموا علياً وفقط لمصلحة الإسلام والعرب؟ فالحسن ترك الخلافة واعتزل الناس. وهؤلاء الذين قتلوا صبراً وعذبوا وسجنوا وصلبوا لأنهم لم يشتموا علياً ما ذنبهم. وهل ذلك لمصلحة الإسلام والعرب؟ ثم هل وضع الأحاديث كذباً وزوراً عن رسول الله لمصلحة الإسلام والعرب؟

هناك قصة أحكيها لك وهي تنبىء بوضوح أن هدفهم لم يكن لجمع كلمة المسلمين والعرب بل لتحطيم هذه الكلمة ولتمزيق وحدة الإسلام وطعن الدين ووقفه عند حده لينكمش ولا يستطيع الانتشار..».

فقاطعه وهب قائلاً:

- «الأمر خطير أرجو أن يكون كلامك واضحاً».

فقال برير بجد:

- «يا بني.. إن كل ما مر من أخطار مع عظمها وفظاعتها لم تكن إلا

البداية لشيء صمم يختصر بكلمة واحدة وهي أخطر ما مر بالإسلام ولن أقولها لك وسأترك أقوالي تصورها فنعود للقصة:

أنت تعرف أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد تزوج على حياة أبي سفيان ابنته وهي بالطبع أخت معاوية، وقد كان وقتها أبو سفيان لم يزل مشركاً.. ثم أتى معاوية منذ زمن غير بعيد، أتعرف ما فعل؟.. أتى بجمع كبير وأشهدهم بالطبع زوراً ـ وبرشوتهم بمال المسلمين، بحق المسلمين، أشهدهم أن زياداً والد عبيد الله بن زياد أخوه من أبيه بالزنا».

ففغر وهب فمه وقال:

ـ «أحقاً ما تقول؟».

فقال جون:

ـ «كنت قلت لك لا يقول إلا الحق».

فأكمل برير:

ـ «كان زياد يا وهب ابن رجل مجهول ولسبب بنفسه سيوضحه قولي أتى معاوية بالشهود ليشهدوا أن أبا سفيان كان زنى بأم زياد فولدت زياداً فأصبح هذا أخاً لمعاوية وبذلك أصبح أيضاً أخاً لزوجة الرسول فماذا تفسر ذلك؟».

فشهق وهب تعجباً وقال بطريقة عفوية:

ـ «أفسر ذلك بأنها إهانة للرسول وتحدياً له ولمبادئه ودينه.. ثم إن هذه المجموعة معاوية وزياد والشهود ومن رضي بذلك إنما هم منافقون».

فقال برير:

ـ «والأشد ألماً.. أن من يعترض على ذلك يسمون بمفرقي الجماعة».

فقال وهب:

ـ «لا والله.. أولئك هم الثوار، أولئك هم الأحرار الأبرار والمسلمون المؤمنون».

فقال برير:

ـ «كنت قلت إن هذه الحادثة وحدها تفسر من هي الفئة التي تؤيد السلطان ومن هي الفئة التي تؤيد أهل البيت. والفئة التي تؤيد السلطان هي مزيج عجيب من المصالح والذهب والفضة والحرير والديباج والأملاك الواسعة مع خمور وغواني وجواري وعبيد ولهو ولعب.. أما الفئة التي تؤيد أهل البيت يكفي أن نعد منهم من الصحابة: أبا ذر، عمار بن ياسر، المقداد بن الأسود، ابن مسعود، سلمان الفارسي، ذا الشهادتين وكثيرين شهد لهم البر والفاجر، أنهم خير الصحابة.. ويكفي هؤلاء الذين لم يغيروا ولم يبدلوا تبديلاً، أن الرسول قال بكل واحد منهم قولاً لم يقله بأحد أبداً أبداً ولم يكن فوقهم إلا أهل البيت بل كانوا مصدقين به حتى بمماتهم فأبو ذر مثلاً بعد قول الرسول به «ما حملت الغبراء وما أقلت الزرقاء أصدق لهجة من أبي ذر» قال له: «تعيش وحدك وتموت وحدك وتبعث أمة وحدك». وهكذا كان.. فكان مصدقاً للنبوة حتى بموته بعد أن نُفي إلى الربذة. وعمار قال له: آخر شربة لك من الدنيا شربة لبن، وعندما أصيب بصفين مع الإمام علي قدم له لبن ليشربه وهو جريح قال: صدق حبيبي رسول الله بقوله كذا وكذا ومات.. كما قال له الرسول: يا عمار تقتلك الفئة الباغية وقتلته فئة معاوية، وسلمان قال الرسول عنه: سلمان منا أهل البيت، وهل يقاس هؤلاء بأولئك الذين بذروا بذور الشك حتى في النبوة فمنهم من روى أحاديث متناقضة عن لسان الرسول متنافرة حتى أن المطلع عليها يشك بأن محمداً رسول وأعوذ بالله.. أعطي مثلاً على أحدهم أنه وضع من عنده وبالرشوة من معاوية بمال وحق المسلمين وضع أربعة آلاف حديث زوراً وكذباً عن لسان الرسول وزيادة في النفاق والتشكيك وهدم الإسلام قال ذلك الخبيث المنافق قال بعد ذلك بلسانه: وضعت أربعة آلاف حديث عن لسان الرسول لوجه الله تعالى. فأين هؤلاء من أهل البيت الذين أقدم برهاناً واحداً كافياً على تقديسهم وهو أن الرسول إذا كان شجرة طيبة فهي لن تحمل إلا ثمراً طيباً وإن كان ثمرة طيبة فهو لن يكون الا من شجرة طيبة».

فقال وهب متعجباً:

ـ «إنها حقاً كانت... على الإسلام..»

فقال برير:

ـ «كانت كذلك يا وهب وأزيد فأقول.. كان اللؤم والحقد والحسد من أخطر العوامل التي جعلت المسلمين بما هم عليه. ومهما أنكر المنكرون فالأحداث يذكرها الجميع رغم المبررات والتشكيك ورغم ما بُذل لذلك من تقتيل ورشوة بالمناصب والضياع والذهب والتعذيب فالجميع يذكرون أن النبي عليه الصلاة والسلام أوصى بالإمامة وأمرة المؤمنين لعلي يوم الغدير ولكن الحقد والحسد واللؤم استكثروا أن تكون النبوة والإمامة مجتمعة ببني هاشم ولو أضفنا إليهم المنافقين لاكتملت الحلقة حول الإمام وبانت الدسائس. وكان لهم ما أرادوا ولكن ذلك كان مدروساً بشكل دقيق مدعين وحدة الجماعة وأكتفي بأمثلة واضحة:

عندما نصب الإمام علي أميراً للمؤمنين ولا أقول خليفة لأن الخلافة بدعة نعم بدعة فلم يأمر بها الله ولا الرسول ولا القرآن وإنما أمروا بإمامة وإمرة للمؤمنين أما الخلافة فوضعها الناس. وأكمل، عندما انتخب الإمام علي خليفة حسب الاصطلاح لِمَ قامت الدنيا ولم تقعد حتى أنهم يشتمونه لليوم؟ وبعد خلافته مباشرة ولا تتعدى الساعات قامت القيامة وبدأت المؤامرات والدسائس حتى وصل ذلك للحرب الدموية والاغتيالات والسرقات والنهب حتى بدت الدنيا فوضى وانضم على الفور المنافقون والذين في قلوبهم مرض بل تطوعوا ليكونوا مع الذين نصبوا أنفسهم أخصاماً له، فكانت حرب الجمل وحتى يكون حربهم له فعالية وحساسية ضده أركبوا إحدى زوجات النبي جملاً لتقودهم لحرب الإمام ولم يهمهم بقليل أو كثير وحدة الإسلام والعرب والجماعة حتى ولا حرمة الرسول في حرمه، ولعبوا بعواطف السذج فأخذوهم للقتل. يا وهب.. إذا كان ادعاؤهم صحيحاً أنهم يريدون جمع شمل المسلمين وليسوا هم مفرقي الجماعة فكيف سمحوا لأنفسهم أن يشقوا عصا

الطاعة للإمام الذي كانت خلافته أصح وأثبت ممن سبقوه وخاصة، أن أكثرهم كان بايعه، وكيف سمحوا لأنفسهم أن ينكثوا وكان الرسول أخبرهم أنهم الناكثون. شيء واحد واضح وهو أنهم كانوا منافقين بدخائلهم ثم لم يروا إلا مصالحهم أما العرب والإسلام فحجج وتبرير وأقنعة لتستر ما هم عليه.

ثم أسأل لِمَ لم يأمر أحدهم عمر بن العاص أن يحارب الروم وخُيّر بين ذلك وافتتاح مصر ذلك الفتح المضحك فمصر كانت بصورة عامة مسالمة. لا حول لها ولا قوة.

ثم أسأل وهنا يظهر ما بنفسي وفكري بوضوح، فلِمَ أعطي معاوية بالذات ولايةً في بلاد الشام وهو من الطلقاء والذي لم يكن يزيد إسلامه على سنتين فقط ثم زيدت له الولاية تلو الولاية حتى أصبح كالملك فيها يفعل بها ما يشاء ولم يحاسبه أحد أبداً أبداً؟ وأطلقت يده بكل ما في أقطار الشام الواسعة العريضة يكنز الذهب والفضة ويستميل الناس إليه بالطريقة التي يريد لم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر أبداً ولم ينشر الدين الجديد ولم يحث على صلاة ولم يقم حداً ولم يحل حلالاً ولم يحرم حراماً.. حتى إنه وهنا الخطير الخطير والبرهان الواضح أنه استأذن بأن يحارب الروم العقدة المتينة في كيان العرب والإسلام والخطر الكبير على العرب والإسلام والسد القوي الهائل أمام الإسلام ودعوة الإسلام أمام الدنيا.. نعم استأذن أن يحارب الروم وكان الجواب: لم يؤذن له وأُمر أن يبقى مكانه يكمل استعداده.. يا وهب.. ما يتبادر لذهنك؟ أنا أقول لك يتبادر بذهنك أنهم جعلوا معاوية بذلك الوضع القوي المتين لسبب واحد وفقط، حتى يكون القوة الفعالة في وجه الإمام علي ليوقفه ومبادئه عند حدها ليكون، في حال فشل المقاومة بالحجاز والعراق، يكون معاوية كالاحتياطي ضد الإمام.. وتسأل عن الدليل؟ الدليل كان عملياً.. فبعد فشل المقاومة ضد الإمام علي وبعد أن صفى الإمام كل مقاوميه تحرك معاوية بكل السنين الطويلة والأموال الهائلة والنفوس التي أنشأها حسب ما أراد.. وكانت النتيجة التي يعرفها الناس.

أعود لكلمتك يا وهب التي كانت سبب كل هذا القول فأقول أين قولهم وتسترهم بجمع شمل العرب والمسلمين؟ ومن شق عصا المسلمين وفرق الجماعة؟ بل أين الإسلام والغيرة على الإسلام؟ وإذا كان الإسلام غير موجود في علي فهل يمكن أن يكون له أثر في معاوية ويزيد؟».

ثم سكت برير قليلاً وعاد للقول:

- «يا بني هذا القول ليس قولك وإنما من المؤكد سمعته في الشام.. والأشد ألماً أنهم مقتنعون بذلك بشكل سيؤذي الإسلام بالمستقبل.. نحن الآن ثلاث فئات فئة تؤيد أهل البيت وعلى رأسها الحسين وفئة تؤيد السلطان وعلى رأسها يزيد وفئة تسمى الخوارج وهذه الأخيرة لم يعد لها خطرها بعد موقعة النهروان. فالفئة التي تؤيد الحسين ومن سبقه تستند على نصوص من القرآن والحديث واضحة بل على أحداث جرت على أيام الرسول من أن علياً هو الإمام بعد النبي والحسين بعد أبيه».

فقال وهب:

- «تقصد الخليفة».

فقال برير محتداً:

- «خليفة؟.. سبق وقلت مَن الذين سموا الإمام خليفة.. إن الرسول لم يعين خليفة بالمعنى المفهوم أو الذي أصبح مفهوماً وإنما عين إماماً وبعض الناس هم الذين عينوا خليفة».

فقال وهب:

- «ببحثك أشياء لم أفهمها أرجو تفسيرها فأقول إن ذلك جائز أن يضع الناس خليفة على أساس الشورى والشورى حث عليها الإسلام».

فضحك برير بعد أن كان محتداً وقال:

- «شورى! مسكينة هذه الشورى فلو سلمنا بصحتها فأين هي؟ فإن كان قد انتخب الخليفة الأول بالشورى وكانت هي الأساس فكيف جاز له أن

يسلمها يداً بيد للخليفة الثاني دون شورى؟ ثم إذا كانت هي الأساس فماذا نقول عن معاوية وهو يجعلها ملكاً وإرثاً لولد له مثل يزيد؟ إن ذلك من المؤكد مخالف للإسلام أليس كذلك؟ لأن الأساس يجب أن يكون الشورى والخليفة على الأقل إنسان صالح وليس كيزيد».

فقال وهب:

- «مخالفة واضحة».

فقال برير:

- «معنى ذلك أنه منكر».

فقال وهب:

- «بل ألف منكر».

فقال برير باسماً:

- «أعود للقول فلماذا إذاً نسمى بمفارقي الجماعة إذا ثرنا والرسول قال لنا من رأى منكم منكراً فليقومه بيده ومن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان؟».

فسكت وهب.. فقال برير:

- «أزيدك.. إنهم يخلطون بين الإسلام وبين أشخاص تكاتفوا على مصالحهم ومصالح أرحامهم وأنسبائهم فسخروا الدين وجعلوه أداة لتنفيذ مآربهم الدنية ولم يهمهم من الدين بكثير أو قليل إلا القدر الذي أمن لهم تلك المصالح أما الدين كدين فهو لا شيء بنظرهم».

فقال وهب:

- «لن أمل من سماعك.. أرجو أن تعطي مثلاً».

فقال برير:

نحن لنا على مؤيدي السلطان ألف مأخذ فهل يستطيع أحدهم أن

يسجل علينا مأخذاً واحداً اللهم إلا القول أننا فئة منشقة لا تريد وحدة الإسلام. . إن ذلك كعادتهم تبرير لأعمالهم ثم تملص من مسؤولياتهم وستر لما كان.

نحن نستطيع أن نقول إن أحدهم كان العبيد يقطعون ذهبه بالفؤوس حتى تكل أيدي عبيدهم. وإن أحدهم مات وتركته أكثر من خمسين ألف ألف ذهباً[1] وغيره كما يقول المقللون خمس وثلاثون ألف ألف (٣٥ مليون) ذهباً حتى أحد الخلفاء أعطى لكل واحدة من بناته الأربع مائة ألف درهم كبائنة زواج وهكذا[2]. . وهكذا هناك آلاف الشواهد والحوادث أن العدل الذي هو رمز الإسلام كان مظلوماً مهاناً وأكثر الناس جياع».

فصفر وهب متعجباً وقال:

ـ «طيب وما المآخذ التي تؤخذ على أهل البيت؟».

فضحك برير وقال:

ـ «المشكلة لديهم أنهم فتشوا وبحثوا وتشاوروا فلم يجدوا إلا أطهر وأتقى أهل البيت علياً ليختلقوا له ما هو واضح بين، والأهم أن الذي أرادوا وصم علي به فضحهم هم».

فقال وهب:

ـ «مثلاً». .

فقال برير:

ـ «مثلاً هناك قصة: أتى معاوية للمدينة ومعه من يقال له صحابي فإذا بهذا دون أن يسأله أحد ودون أن يطلب إليه أحد اللهم إلا معاوية طبعاً، أمسك عمامته وضرب بها الأرض والناس كثير وقال صارخاً: سمعت بهاتين

---

(١) يقصد خمسين مليوناً.

(٢) طه حسين الفتنة الكبرى.

(أذنيه) وإلا صمتا أن الآية: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله . . .﴾ قد نزلت بعلي بن أبي طالب تحقيراً به وذماً له. وعندما اختلى بمعاوية قال له هات الثمن فإذا به ولاية المدينة. والصحابي نفسه يروي أن الرسول قال يوم الغدير من كنت مولاه فعلي مولاه. فكيف يتفق ذلك التناقض؟. نعم يتفق بحالة واحدة هي أن الرسول ـ ونعوذ بالله ـ كان ينطق حسب الأهواء ونسوا أن الله تعالى قال: ﴿وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى﴾. . وطبعاً هذا الذي أراده معاوية ليبين أن الرسول صاحب الإسلام كان كذلك. وثم أخذ وضع الحديث عن رسول الله يكثر ويكثر بما يريدون وحسبما يريدون وبالثمن المطلوب، بينما مضت سنوات بعد الرسول مُنع فيها الحديث عنه حتى حرّم ذلك، وعوقب عليه محدثه، بينما الرسول نفسه قال: «أتيت بالقرآن ومثله معه». وطبعاً كان المنع لأحاديث التكريم بأهل البيت وأولهم علي وهذا المنع لم يزل لليوم، وزيد عليه شتم الإمام على المنابر وكأنه فريضة.

أسأل: أين الدين؟ أين الأخلاق؟ أين الصدق؟ أين نفوس الأحرار؟ أين شهامة المؤمن وكرامة المسلم؟

وقد يقول قائل وأنتم ما دخلكم؟ ولم تهتمون بما كان؟ فالجواب: إن الإسلام لم يكن ملكاً لأحد، حتى للرسول نفسه، فهو أتى به ووضعه نقياً طاهراً أمانة بأيدينا، ويجب أن يبقى نقياً طاهراً، ويجب أن نحفظ الأمانة سالمة سليمة ولا نسمح لأحد أن يمد لها يداً.

لذلك نحن نثور على مثل هذه الموبقات والتحريف، والمؤلم أننا ننعت من أنا شققنا عصا الجماعة فواعجباً من التعامي عن الحقائق. . فنحن ثرنا وسنثور على الكذب. . على الخداع. . على النفاق. . على الفجرة. . على الفاسقين. . على محرفي الكتاب والسنة. . ولن يهزنا الدهر حتى الدهر سنقاومه بقلوبنا. . بأقوالنا. . بأجسامنا حتى يبقى الحق سليماً ولو بعد مئات وآلاف من السنين فنحن نعيش لمبادئنا ولسنا لنفوسنا وما دامت مبادؤنا سليمة فلا تهمنا نفوسنا أبداً».

فقال وهب:

ـ «هـذا إذاً السبب الذي يفسـر تكتلكم حول أهـل البيت عـامـة وحـول الحسين خاصة».

فقال برير:

ـ «. . . ولم يبـدلوا تبـديلاً ولم نبـدل تبديـلاً. . فمنهم من قضى نحبـه ومنهم من ينتـظر وما بـدلوا تبـديلاً. . إنهم حبـل الله الممدود من السمـاء إلى الأرض».

فقال وهب:

ـ «وأنا معكم فشرف لي أن يكـون مولاي الحسين، وأبـو الحسين وأخو الحسين».

ووقف وهب وجون مستأذنين شاكرين لبـرير جلستـه وعاد كـل منهم إلى مسكنه.

خفقة قلب

ولنعد لنرافق سعيداً ونافعاً فنجدهما:

يسير بهما جواداهما وهما يقطعان الفيافي والقفار، والجبال والأودية، والأراضي الشاسعة الواسعة، والصحراء المقفرة الموحشة يلهب أجسامهما حرها وتلفح وجوههما شمسها ويهز أبدانهما برد الليالي، حتى وصلا يوماً إلى واحة تعترض طريقهما من الحجاز إلى العراق، فإذا بهما أمام عين ماء عذب تتوسط خضرة وأشجاراً ونخيلاً عالياً، تتلاعب بأغصانه نسيمات تهزها بعذوبة ونشوة. وبالقرب من الواحة مضارب بدو. وعرجا على الماء ليستقيا وترجلا وانتحيا ناحية في الظل وجلسا وتركا جواديهما يمدان عنقيهما نحو الماء يعبان منه بنهم.

وبعد الراحة تقدما من الماء وخلع سعيد ثيابه العلوية فبان بجسد جميل عريض المنكبين دقيق الخصر عالي الصدر ضخم العضلات قوي البنيان وأخذ يغسل يديه ووجهه ورأسه وصدره، ولفت ذلك نظر نافع فوقف والماء يقطر على ثيابه من رأسه ووجهه، وصفر صفرة تعجب وقال:

- «الله.. الله.. ما شاء الله.. صحيح أنك كنت مختبىء بثيابك».

فتبسم سعيد تحبباً ومد يده للماء وتناول حفنة بكفه وألقاها على نافع الذي رفع يديه إلى وجهه بحركة عفوية يتقي الماء ضاحكاً.

وعادا إلى الظل ووضعا العلف أمام جواديهما ولبسا ثيابهما وأخذا يتناولان طعاميهما. . وإذا بجلبة خفيفة تقترب رويداً رويداً فتطاول نافع ليرى فتاة تحمل قربة ففهم أنها آتية للماء فتبسم وأخذ يتابعها بنظره. ووصلت الفتاة ووقفت على جذع شجرة ممتد حتى الماء،وانحنت بالقربة لتغمسها، فتنحنح نافع بصوت مسموع، فأجفلت بحكم المفاجأة واختل توازنها فجربت الوقوف متمايلة فإذا بها تسقط، فوقف نافع وأسرع وقفز بخفة واقفاً على جذع الشجرة ومد يده قائلاً:

ـ «هات يدك».

فنظرت إليه بغضب وقالت بلهجة بدوية:

ـ «وأمد لك يدي؟ ابتعد».

فوقف باسماً يتأملها وهي تأتي بحركات متعبة ومضحكة لتتخلص من الماء ولكنها لم تستطع فنظرت إليه وكأنها تسلم بالأمر الواقع، ومدت يدها بغضب، فمد نافع يده ورفعها فوقفت ومشت إلى اليابسة والماء يقطر من رأسها إلى قدميها فلم يتمالك أن حدق بها برهة ثم أخذ يضحك ملء فمه، فتقدمت إليه ودفعته بيدها فأخذ يتمايل يمنة ويسرة وإلى الأمام وإلى الوراء بحركة مضحكة ثم سقط في الماء، وإذا بالفتاة تضحك بصوت عال حلو، فنظر إلها نافع مفتعلاً البغتة والتعجب، ثم شاركها الضحك ومشى حتى وصل إلى قربها والماء يقطر منه ومنها وقال:

ـ «والآن لنتعارف. . أنا اسمي نافع وأنت ما اسمك؟».

فقالت باسمة:

ـ «اسمي بوغان».

فنظر إليها عابساً متعجباً وقال:

ـ «ماذا؟ بوغان؟. . بوغان وما يعني ذلك؟».

فقالت ببساطة:

ـ «بوغان يعني بوغان».

وأخذ ينظر إليها من رأسها إلى قدميها وهي مبتلة، فإذا بها نحيلة القوام وكل ما بها نحيل، حتى وجهها كان مستطيلاً فيه عينان سوداوان كبيرتان وفم صغير جميل وأنف صغير، وهي لا تتجاوز الثامنة عشرة من العمر وجميلة بشكل ملحوظ.

فأعاد القول:

ـ «لم أسمع كل حياتي بهذا الاسم. . بوغان. . أنا لا أفهم ما معنى بوغان؟. مثلاً اسمي نافع يعني نافع كالخبز. . كالماء. . كالهواء. . أما بوغان!. .» ثم أطلق ضحكة عالية ساخراً من هذا الاسم. .

وكان سعيد يراقبهما مبتسماً فإذا به يطلق ضحكة قصيرة فتنبهت الفتاة وتطلعت إلى مصدر الصوت وما أن رأت سعيداً حتى نظرت إليه ملياً وتقدمت من جرتها وملأتها وذهبت. . فتقدم نافع من سعيد قائلاً:

ـ «بوغان يعني ماذا؟ ما هذا الاسم؟»

فضحك سعيد وقال:

ـ «بوغان. . يعني بوران. . وهي يظهر أنها تلدغ بحرف الراء فتلفظ الراء غين فتصبح، بوران بوغان».

فشرد نافع بنظره حيث ذهبت وقال:

ـ «ما أجمل هذا الاسم وأنا أفضل بوغان على بوران».

فقال سعيد:

ـ «لم تأكل بعد. فأمامنا مسافة طويلة».

فالتفت نافع إليه قائلاً:

ـ «هل عرفت الحب يا سعيد؟».

فقال سعيد متجاهلاً كلماته:

ـ «وهكذا دفعة واحدة توقعك وقعتين الأولى في الماء والثانية في الحب وكل ذلك بدقائق؟».

فتنهد نافع.

فقال سعيد:

ـ «أراك كأنك دخلت الجد.. كل.. كل.. وبعد قليل سنسير».

فتبسم نافع متذمراً ومد يده للطعام وأخذ يأكل.

وسمعا من جديد وقع خطوات فقفز نافع وقد ظن أن بوران عادت، فنظر إليه سعيد مستطلعاً فبانت على وجهه الخيبة. ثم عاد وجلس قائلاً:

ـ «شاب قادم».

وعادا يتناولان الطعام. وبعد لحظات كان الشاب يقترب من الماء ثم يركع ويمد كفيه ليشرب، وتقدم نحوهما ووقف أمامهما بصمت. فتطلعا إليه بتساؤل، فإذا بهما يريان شاباً نحيل البنية متوسط القامة جميل الوجه ولكن، ثيابه ممزقة منبوش الشعر وكأنه لم يسرحه منذ شهور. وكان كل ما به تعمه الفوضى، وكانت فوق ذلك نظراته زائغة تائهة. وفتح فمه بهدوء وقال:

ـ «السلام عليكم».

فرد سعيد عليه، وتبسم بوجهه ودعاه للطعام فلم يمانع وأخذ يأكل بصمت.

ونظر إليه نافع بفضول فوجده ليس طبيعياً، وأشار لسعيد دون أن يراهما الغريب أن من هذا؟ ففتح سعيد فمه يريد أن يهمس مجيباً فإذا بجلبة كالسابقة ترتفع لتظهر بعدها بوران. ولكن هذه المرة كانت قد بدلت ثيابها فبدت أنيقة مرتبة وثيابها جميلة مزركشة وتقدمت، فوقف نافع ملتفتاً إلى سعيد، الذي نظر

إليه مقطباً مستنكراً فقابله نافع بنظرات استرحام كـأنه يـطلب منه أن يسمـح له بدقائق ليكلمها فتبسم سعيد، وتقدم نافـع من الفتاة وأخـذ منها القـربة وتقـدم وهي تتبعه وغمسها بالماء ثم حملها بيده وواجهها قائلاً مازحاً:

ـ «أتدرين أنه لم يحل لغز اسمك إلا صديقي فلم يخطر ببالي أن بوغان يعني بوران.. وعلى كل فالاسمان جميلان ولو أني أنا شخصياً أفضـل الاسم الأول».

فقالت باسمة:

ـ «أنا ليس لي اسمان بل اسم واحد».

فقال بخبث:

ـ «ما هو؟».

وبطريقة عفوية قالت:

ـ «بوغان».

فاتسعت ابتسامته وقال:

ـ «لو أعدته خمسين مرة لكانت كل مرة أحلى من السابقة».

فقالت:

ـ «من أين أنت؟».

فشد قامته مازحاً وقال:

ـ «من العراق».

فقالت:

ـ «أنت حضغي (تقصد حضري) فما تعمل؟».

فضحك منكمشاً على نفسه وقال:

ـ «ساعي بغيد.. أقصد ساعي بريد».

فتمايلت من الضحك وقالت:

ـ «إلى أين أنت ذاهب؟».

فقال:

ـ «إلى العراق».

ثم أشار لها بالسكوت وقال بسرعة وكلماته تتتابع:

ـ «الآن دوري. . وقد فهمنا أنك بوغان، ومن أية قبيلة أنت؟ وهل تأتون إلى هنا كثيراً؟وهل لك أخوة؟ ومن أنتم في القبيلة؟ وهل لك أم أيضاً؟ وهل تأتين دوماً لحمل الماء؟».

وكانت سرعته في الكلام كالنكتة مما جعلها تواصل الضحك وسعيد يبتسم لهما من بعد بحب وصداقة. وقالت بعد أن هدأت:

ـ «أنا ابنة أخ شيخ القبيلة واسمه عامغ (تقصد عامر) وأبي اسمه غبيع (ربيع) ونحن من قبيلة غبيعة (ربيعة) وأمي حفظها الله عندنا وأطال عمغها (عمرها) ولي ثلاثة أخوة شاب وبنتان إحداهما صـ. . .» وانتبهت ضاحكة لأنها أرادت قولها إحداهما صغيرة ولكنها سكتت وبدلت ذلك بإشارة بيدها لما فوق الأرض وقالت:

ـ «طولها هكذا».

فأضاف نافع بمرح:

ـ «يعني أنتم أغبعة أبناء وأنت الغابعة».

فعادت للضحك وشاركها ضحكها. وما أن سمع الغريب ذلك حتى كف فجأة عن الطعام وأخذ يتطلع محدقاً إلى نافع وبوران بلهفة وألم تجلى على كل ملامحه.

وقال نافع جاداً:

ـ «إذا مررت من هنا المرة القادمة هل أستطيع أن أراك؟».

فقالت بحياء:

ـ «سنبقى أكثر من شهرين».

فقال هاتفاً:

ـ «شهران؟ الله أكبر.. سأعود قبل ذلك وعلى كلٍ إن كنت هنا أو في أي مكان سأفتش عنك.. ما دمت توافقين».

فقالت تغير الموضوع وهي تنظر إليه نظرة طويلة:

ـ «ألم تتعب من حمل القربة؟».

فقال وهو يحدق بعينيها:

ـ «لا».

فقالت:

ـ «ولكني تأخرت وسيفتقدونني».. وكأنها تطلب منه أن يعطيها القربة.. إلا أنه لم يفعل.. وكان سعيد يراقبه فقال:

ـ «نافع.. حان وقت مسيرنا». وكان ذلك ايذاناً بانتهاء اللقاء. فنظر إليه مسترحماً، إلا أن سعيداً حدجه تحبباً، فمد نافع يده بالقربة وأعطاها إياها وكأنه يستسلم للأمر الواقع فأخذتها واستدارت قائلة:

ـ «سأذكرك».

فقال نافع بهدوء وهمس:

ـ «لن أنساك.. إلى اللقاء».

وبذهابها وقف الغريب يتطلع إلى حيث ذهبت فوقف قربه نافع يتأمله وقد بدا الغضب على وجهه فأشار له سعيد أن يتركه.. وإذا بالغريب يهتف بصوت مبحوح متهدج:

ـ «ليلى.. ليلى».

ثم ركض يتعثر للجهة التي ذهبت منها بوران فتقدم نافع يريد اعتراضه

فأمسكه سعيد من يده قائلاً:

ـ «إنه ينادي ليلى. . وليس بوران. . أعرفت هذا الشخص؟».

قال نافع:

ـ «لا». .

فقال سعيد:

ـ «هـذا قيس بن الملوح من بني عـامـر حبيب ليلى. . ويـظهـر أن مضاربهم قريبة من هنا».

فقال نافع مشفقاً:

ـ «مسكين. . أهكذا يبعثر فيه الحب كل ما فيه. . كنت أتصوره فردوساً يجعل كل ما بالإنسان جديداً فإذا به عتيق مهلهل».

وكان سعيد يرتب هندامه ويهيىء أغراضه للرحيل فضحك قائلاً:

ـ «خير الأمور أواسطها. . يجب أن نحكم عقلنا بما نعمل وما نشعر».

فتقدم نافع ينظر إليه متعجباً قائلاً:

ـ «ونسير كأن لم يحدث شيء». فضحك سعيد وقال:

ـ «يظهر أن ذاكـرتك ضعيفـة حتى نسيت أننا بمهمـة. . ولا تزعـل، إذا عدنا سنمر من هنا قبل شهرين. . هـل أنت غاض (راض؟)». فضحـك نافـع وأخذ يهيىء نفسه لمتابعة السفر. .

وبالطريق سكت نافع مدة طويلة فقال له سعيد:

ـ «نافع. . نحن قلنا إننا إذا عدنا سنمر من هنا وقبل شهرين. . فَلِمَ هذا السكوت؟».

فقال نافع بجد:

ـ «أسـألك هـل عـرفت الحب؟ أنـا أقـول مستحيـل أن يكـون لا وأنت تتحلى بمثل ما تتحلى».

فقال سعيد:

ـ «سأختصر وأقول عرفته، ولكن لن يفتح هذا الموضوع بعد الآن مطلقاً حتى تتم مهمتنا».

فقال نافع متجاهلاً تنبيه سعيد:

ـ «الآن استقامت. . وهل كان ذلك منذ زمن بعيد وهل كان حبك قوياً أم أن ذلك كان عابراً؟».

فنظر إليه سعيد نظرة جد وقال:

ـ «هذا الموضوع لن يطرق. . الواجب أولاً».

فسكت على مضض وهو يفكر ببوران وكل ما قالت بوران. .

أصـداء الكوفـة

. . . وبعـد جهد وتعب ومشـاق وطول سفـر، وصل سعيـد ونـافـع إلى الكوفة، وقال سعيد:

ـ «قبل ذهابك يا نافع لأهلك تعال وابق عندي اليوم».

وافق نافع ووصلا إلى دار سعيد، فـإذا به بيت كبيـر واسع الأرجـاء كثير الغرف.

ودخلا البيت وقال سعيد:

ـ «تستطيع أن تتصرف وكأنك في بيتك». ثم هتف بصوت عالٍ:

ـ «عمـرو». وبعد لحـظات إذا برجـل، نحيل الجسم، هـرم، له لحيـة بيضـاء تتدلى على صـدره يخرج من إحـدى الغرف ومـا أن رأى سعيـداً حتى تقدم ماداً يديه، وتعانقا بحرارة. وأخذ عمرو يقبل وجنتي سعيد بمحبة وحنـان وهو يقول.

ـ «الحمد لله على سلامتك. . قرة عيني. . أهلاً بك. . أهلاً بك».

فوضع سعيد يده اليمنى على كتفه وقال:

ـ «وأنت كيف حالك؟ هل ضايقتك الوحدة؟».

فقال عمرو:

ـ «أنا أتضايق في هذا البيت؟ وبه ذكرى طفولتك وشبابك وبه صوتك ووقع خطواتك وبه كل أشيائك». ودمعت عيناه.. فتأثر نافع وأكبر تلك العاطفة من الشيخ فقال له سعيد:

ـ «إنه عمرو وهو الذي رباني، إنه كعمي تماماً اعتنى بي منذ كنت طفلاً حتى بعد استشهاد أبي وكان لي دوماً الأخ والأب والصديق والعم والخال وكل الأقارب». وتبسم بوجه عمرو الذي قال:

ـ «كيف حال سيدي الحسين وأهل بيته جميعاً وإن شاء الله سيشرفنا بمجيئه إلينا؟».

فقال سعيد:

ـ «الحمد لله بخير هو وأهل بيته». ونظر إلى نافع نظرة ذات مغزى ففهم نافع أنه يلمح للمتآمرين. وأكمل:

ـ «أما مجيئُه فلم يقرره بعد».

فقال عمرو:

ـ «على كلٍ ستشرح لي ذلك فقد قاسيتم الكثير من السفر فسأهيىء لكم أسباب راحتكم» ثم استدار ودخل إحدى الغرف، وطلب سعيد من عمرو أن يعلم أشخاصاً سماهم له بحضوره، ومن أنه يطلب إليهم الاجتماع في دار سليمان بن صرد الخزاعي.

وما إن أتى المساء حتى تهيأ سعيد وطلب من نافع أن يرافقه قائلاً:

ـ «سيكون اجتماع مهم ويجب أن تحضره معنا وتعرف ما يجري».

ووافق نافع ورافق سعيداً.. وخرجا من البيت ولم يتجاوزا البوابة الخارجية وإذا بامرأة تلبس ثوباً أسود يغطيها من رأسها لقدميها تهتف:

ـ «سعيد. . إلى أين؟». فقال بتذمر:

ـ «إلى موعد».

فقالت:

ـ «سأنتظرك حتى تعود». فلم يرد عليها وأكمل طريقه، بينما استغرب نافع. . وما هو إلا وقت قصير حتى وصلا لأحد الدور الكبيرة وطرقا بابه ففتح لهما ودخلا وإذا بهما وجهاً لوجه أمام جمع كبير تدل مظاهرهم جميعاً على أنهم رؤساء وأشراف. وبدخول سعيد وقفوا وتقدم يصافح كلًّا بدوره وخلفه نافع. ورحب الجميع بهما أجمل ترحيب وجلس سعيد بدعوة من البعض وجلس قربه نافع وتوجه الكل بعد أن هدأت الضجة لدخولهما إلى خمسة كانوا يجلسون في صدر البيت، وافتتح الكلام كبيرهم وهو رجل مهيب قد جاوز الثمانين من العمر، وعرف نافع أنه سليمان بن صرد صاحب الدار، الذي قال لسعيد:

ـ «من هذا الغلام الذي معك؟».

فقال سعيد:

ـ «إنه نافع بن هلال المرادي وهو منا ورفيقي من الحجاز».

فقال الرجل:

ـ «والآن ما عندك يا سعيد فكيف خلفت مولانا الحسين؟».

فقال سعيد:

ـ «بخير. . ولكن لم يعطني وعداً بمجيئه كما لم يقل الرفض أو القبول».

فعلت من الجميع همهمة استغراب. . فقال الرجل:

ـ «الحق مع مولانا بذلك فنحن لم نجعله بعد يثق بنا».

فوقف الواحد تلو الآخر يقول بإصرار.

ـ «إن له بالكوفة مائة ألف سيف وكلنا جنوده وكلنا نقاتل في سبيله».

فمال الذي هو سليمان بن صرد الخزاعي إلى الأربعة الذين قربه وقال:

ـ («يا رفاعة بن شداد ويا مسيب بن نجبة ويـا حبيب بن مظاهـر وأنت يا عبدالله بن وال. . ما تقولون؟»).

فوقف المدعو حبيب بن مظاهر. . وتأمله نـافع فـإذا به شيـخ نبيل قـوي البنية مهيب الطلعة نبيل الملامح . . قال:

ـ «الحمـد لله الذي أهلك معـاوية الغشـوم، ونحن كما كنـا اتفقنـا يـداً واحدة مع الحسين فهذا الأمر لا يصلح إلا بأهله وأنا عند قولي، قـوله قـولي، وعـدوه عدوي، ومحبـه محبي، وأنا عنـد قولي لا أغيـر ولا أبـدل ولن أسمـح لنفسي أن يكون عليها أمير مثل ذلك الفاجر الدعي يزيد»). وجلس. .

فقال كبير القوم مشيراً إلى سبعة أشخاص يجلسون في الصف الأمامي:

ـ («وأنتم ما تقولون. . يا شبث بن ربعي. . ويـا حجار بن أبجـر. . ويا زيد بن الحارث. . ويزيد بن رويم. . وعـروة بن قيس. . وعمرو بن الحجـاج الزبيدي. . ومحمد بن عمير التميمي؟»).

فوقف الذي اسمه عمرو بن الحجاج وقال:

ـ («نحن متفقون على أن نبعث له بكتاب مستقل. . ونحن على أقـوالنا السابقة فلا نعدل بالحسين أحداً»).

فقال سليمان بن صرد:

ـ («إذاً سنرسل باسمكم كتاباً للحسين ندعوه إلينا من جديد»).

ثم التفت إلى أحدهم وقال:

ـ («خذ قلماً ورقعة واكتب»).

فنفذ الرجل للحال طلبه وأخذ يكتب ما يملي عليه الرجل:

«بسم الله الـرحمٰن الـرحيم. . للحسين بن علي من سليمـان بن صـرد

الخزاعي والمسيب بن نجبة وحبيب بن مظاهر وعبدالله بن وال وشيعتهم من المؤمنين والمسلمين.

أما بعد.. فحيهلا (معناها أسرع) فإن الناس ينتظرونك لا رأي لهم غيرك فالعجل ثم العجل العجل والسلام»).

(وانتهى الكاتب من الكتابة وسلم الكتاب لسليمان بن صرد فاطلع عليه ووقعه وقدمه للأربعة الباقين فوقعوه وأعطوه لسعيد وقال سليمان:

ـ «اخترناك هذه المرة أيضاً لتكون رسولنا إلى سيدنا الحسين لأننا كلنا نثق بك وهو يثق بك، فنرجو أن تنقل له رغبتنا وإلحاحنا لمجيئه»). ولم يعترض سعيد بل أخذ الكتاب مرحباً قائلاً:

ـ «إنه يوم المنى أن أرى الحسين بيننا».

فقال عمرو بن الحجاج:

ـ («ما دمت ستذهب يا سعيد إلى الحسين فنرجو أن تأخذ رسالتنا نحن إليه». فوافق سعيد فالتفت عمرو إلى الكاتب وقال:

ـ «اكتب.. بسم الله الرحمٰن الرحيم للحسين بن علي.. أما بعد:

فقد اخضر الجناب وأينعت الثمار فإذا شئت فأقبل على جند لك مجند والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبلك».

وختم السبعة الرسالة وأعطوها لسعيد فوقف رجل في العقد الرابع وقال:

ـ «لي رجاء» فالتفتوا إليه فأكمل:

ـ «لي رجاء وهو اعتباري رسولاً ثانياً مع أخي سعيد»).

فرحب بذلك الكل وأولهم سعيد الذي قال له:

ـ «هاني بن هاني السبيعي؟ أهلاً بك ومرحباً ستكون رفيقي»..

ثم التفت إلى الجميع وقال:

ـ «ولكن هناك مَنْ لم تعرفوه بعد».

فسكتوا وتطاولوا، فقال:

ـ «هناك مؤامرات تحاك ضد الحسين لاغتياله». وفوراً علت همهمة استنكار وغضب واهتمام شديد فأكمل سعيد:

ـ «والذي دبرها هو يزيد نفسه».

فعلا الغضب من الجميع بكلمات استنكار.. فقال سعيد:

ـ «والذي كشف المؤامرة هو الله تعالى على يد هذا الفتى». وأشار إلى نافع. وانصبت العيون عليه فأخذ ينظر حوله وقد هزته المفاجأة.. فقال سليمان باهتمام:

ـ «ما حدث؟ وكيف كان ذلك؟».

وأخذ سعيد يحكي قصة المؤامرة حتى انتهى. فنظر الجميع إلى نافع بإعجاب وحب ورحبوا به مجدداً فقال عمرو بن الحجاج:

ـ «إذاً يجب أن نعجل بقدوم الحسين فقد طفح الكيل وأنا أرى أن يذهب سعيد وهاني بعد أيام دون تأخير».

فقال سعيد:

ـ «بل بعد غدٍ إن شاء الله».

فرحب الجميع بذلك وأخذوا يتداولون الأمر باهتمام شديدٍ. ووقف سعيد وهاني ونافع واستأذنوا فوقفوا يرجونه تبليغ تحياتهم للحسين وأهل البيت والتأكيد له أنهم جنوده وهم رهن إشارته.. وودعهم سعيد وهاني ونافع وخرجوا.

وفي الطريق قال هاني:

ـ «تأخر الليل.. وسأذهب لأتأهب للسفر وسآتيك لبيتك» وذهب. وسار

سعيد ونافع. وبعد قليل قال نافع:

ـ «هناك سؤال».

فقال سعيد:

ـ «ما هو؟».

فقال نافع:

ـ «وهل يا ترى سيأتي الحسين لنداء بضعة رسائل فقط؟».

فابتسم سعيد وقال:

ـ «لم تكن هاتان الرسالتان هما الأوليّين بل كانتا تتمة آلاف وآلاف من الرسائل التي أرسلت من الواحد والاثنين والعشرة والخمسين، وبعد أن ذهب وفود كثيرون ومداولات كثيرة ويظهر أنك نسيت أني عندما كنت بالحجاز إنما كنت أحمل رسائل أيضاً»

فقال نافع:

ـ «هذا مستقيم».

فقال سعيد:

ـ «وإن شاء الله تكون هاتان الرسالتان هما آخر الرسائل ويقدم الحسين وعند ذلك نعيد للإسلام وجهه الحقيقي».

فقال نافع:

ـ «هناك سؤال آخر».

فقال سعيد:

ـ «ما هو؟».

فقال نافع:

ـ «ما الذي جعلك تذكر اسمي بما رويته؟».

فضحك سعيد وقال:

ـ «أنت بطل يا نافع. . رغم أن فتاة أوقعتك بالماء بدفعة خفيفة».

فقال نافع وقد هزته عناية سعيد به ومحبته له:

ـ «أشعر كأنك أخِي وأحب إلي من أخ».

فقال سعيد دون أن يلتفت إليه:

ـ «ومن قال إني لست أخوك فالمؤمنون أخوة. . وأنت فرد منا ثم أنت عضو مشرف».

* * *

وبقيا سائرين صامتين حتى وصلا للبيت فإذا به لم يزل مضاء رغم تأخر الليل. وما أن دخلا حتى أتت من إحدى الغرف المرأة التي كانت قابلتهما وهما بالباب. ولكنها كانت هذه المرة سافرة فبانت جميلة جداً جداً بيضاء البشرة لها شعر أسود فاحم وعينان سوداوان واسعتان ووجه بديع الملامح وجسمها أهيف طويل، ممتلئة قليلاً ومعها عمرو. . وكان وجودها مفاجأة لنافع الذي التفت إلى سعيد فرآه غير مبال وكأن الأمر لا يعنيه. فأشار إلى عمرو فإذا بهذا ينسحب وفهم نافع إشارة سعيد فخرج بدوره برفقة عمرو. . وما إن خرجا حتى سمعا الفتاة تقول:

ـ «سعيد. . لِمَ كل هذا منك؟ ألم يلن قلبك بعد. . إنك تحطم حياتي. . إنك تحطم قلبي بهذا الجفاء».

فقال سعيد:

ـ «قلت لك للمرة الألف لستِ لك ولست لي. . فأنت بطريق وأنا بطريق».

فقالت بما يشبه التحدي:

ـ «نفس الكلمات. . نفس اللهجة. . نفس الظلم. . ماذا فعلت حتى تكون قاسياً علي؟».

ثم رققت لهجتها وقالت:

ـ «ماذا فعلت لك. . أحبك يا سعيد بملء جوارحي. . بملء حياتي. . أنا لا أستطيع العيش بدونك ولا أحتمل لهجتك القاسية. . فلم تعذبني كل هذا العذاب؟».

وكان نافع سائراً ولما سمع قولها وفهم مغزى اجتماعهما وقف باسماً بينما أكمل عمرو سيره. .

وتابعت الفتاة قولها:

ـ «منذ سنوات وأنت تعاملني هذه المعاملة. . ولو كنت تحب فتاة أُخرى لقتلتها، أقسم إني كنت قتلتها ولكن ليس بينك وبيني امرأة فَلِمَ هذا الظلم. . ألم تزل على ما كنت عليه؟ ألأجل الحسين؟».

وإذا بنافع يسمع سعيداً يصرخ:

ـ «لا تلفظي اسمه بفمك. . فمثلك وقلبها يأكله الحقد لا أسمح لها بلفظ اسم الحسين».

فقالت بشدة:

ـ «وكيف أحبه وأبوه قتل أبي وأخي في صفين وتركني وحيدة أعاني مرارة الوحدة. . ألم يكن علي هو السبب؟ وتأتي اليوم ودوماً لتفرض علي محبة ابنه. . لا أحبه. . ولن أحبه. . بل أكرهه بكل قواي».

فقال لها سعيد وهو يضغط على الكلمات ويكاد ينفجر:

ـ «كم مرة قلت لك لا أحبك ولا أريد أن أراك؟ فما الذي يأتي بك إلي؟ أفهمت. . أعيدها. . لا أريد أن أراك. . والله لو رأيتك تتقطعين من أجلي لن أمد لك يدي وأنت تكرهين الحسين».

فرققت من لهجتها وأصبحت كالتوسل وقالت:

ـ «أنا لا أريد إلا أن أراك يا سعيد. وتستكثر علي أن أراك؟. . أنسيت

مرة أنك قلت أنك تحبني؟ كانت تنطقها عيناك وقلبك قبل فمك. . وأنا أعيش على تلك الكلمة منذ سنوات، وأنت تقتلني بجفائك، تحطمني بقسوتك».

فقال وهو يدير ظهره لها:

- «الشيء الوحيد الذي ندمت عليه في حياتي كلها هي تلك الكلمة اللعينة».

فقالت بلهفة وهي تشرق بدموعها بما يشبه الهمس:

- «لا. . لا تقل ذلك. . ارحمني وانظر إلي. . صدق يا سعيد أني أعيش على أمل أن أراك فعلى الأقل إذا كنت مصمماً على قسوتك وظلمك، فلا تحرمني من ذلك الأمل».

فاستدار نحوها وأراد أن يقذف بوجهها كل ما في نفسه من غضب فإذا به يرى محياها الجميل مبللاً بالدموع ويبين الانكسار عليه. . فسكت قليلاً مرتبكاً، ثم قال بهدوء:

- «متى ستفهمين يا جميلة أن علياً لم يقتل أباك وأخاك؟ ألم يكونا مع معاوية يقاتلانه؟ ولو تمكنا منه ألم يقتلاه؟ ثم ألم يعظ جميع من كانوا ضده بصفين، وبقي يعظهم ويبين لهم ويخطب بهم أياماً وأياماً وخوفهم من الله ومن الفرقة. . وبين لهم أنهم يظلمون أنفسهم بحربهم له. . ومع كل ذلك لم يفهموا وبدأوا هم بالقتال فما كان عليه أن يفعل؟».

وكان سعيد يتكلم وجميلة تنظر إلى وجهه وكأنها لا تسمع قوله ولا تفهم منه شيئاً، فقالت برجاء:

- «وأنت. . لِمَ كل هذا الاهتمام منك بعلي والحسين وقد قتل أبوك بسببه؟».

فعاد لغضبه قائلاً:

- «أبي عندما ذهب إلى صفين لم يكن كأبيك الذي كان بحالة من اثنتين إما بالترغيب وإما بالترهيب، أما أبي فقد قدم نفسه متطوعاً مختاراً لأنه

كان يعلم أنه يتاجر الله فكـانت له الجنـة فقد مـات وعمره ستـون سنة فلو بقي فكم كان سيعيش عشر سنين؟ عشرون سنة؟ أكثر؟ وبعد ذلك سيموت، هذا إذا لم يمت قبل ذلك فتاجر الله بهذه السنين فكانت تجـارته الـرابحة. . أمـا أبوك فتـاجر معـاوية. . شيء واحـد يؤلمني منك. . وهـو كيف تبكين أباً وأخـاً مثل أبيك وأخيك وهما يدافعان عن ملك يتربـع عليه معـاوية ليـزداد بنو أميـة نعيماً ويزداد المسلمون شقاء».

فقالت بانكسار:

- «ولكنهما أبي وأخي مهما كانا».

فقال بحدة:

- «إذاً إنسي تلك الكلمة اللعينة التي كنت قلتها مرة واحدة واذكري أني للمرة المائة قلت إني ندمت عليها».

فقالت بلهفة:

- «إنك لست صادقاً مع نفسك فَلِمَ توهمني بما لا تشعر به؟».

فقال بنفس الحدة:

- «والله لو يدي كرهت علياً أو الحسين لقطعتها».

فقالت بيأس:

- «لا أستـطيع أن أكـذب عليك. . جـربت كثيراً أن أشعـر نحوهمـا بما ترغب ولكني لم أستطع».

فقال بتذمر:

- «إذاً تأخر الليل». ثم نادى عمراً فأتى هذا بالحال، فقال له سعيد:

- «أوصل جميلة إلى بيتها».

فنظرت إليه نظرة طويلة فيهـا الحقد والحب والهيـام والألم، ثم أشاحت بوجهها وتقدمت نحو الباب قائلة:

ـ «لن أدعك تتخلى عني».

وما أن خرجت حتى سمع نافع سعيداً وهو يزفر زفرة طويلة وكأنه يرتاح من حمل ثقيل. . فعاد ليراه يسرح بطرفه شارد الفكر فتبسم وقال:

ـ «أرجو عذري فقد سمعت كل ما جرى».

فالتفت إليه سعيد بهدوء وابتسم ابتسامة شاحبة، فقال نافع:

ـ «أصارحك؟ استنتجت شيئاً واحداً».

فنظر إليه سعيد نظرة تساؤل فقال:

ـ «أنت تحبها».

فحدق سعيد به قليلاً ثم أدار وجهه متجاهلاً، وقال:

ـ «لننم، فبعد غد عند العصر سأسافر إلى مكة».

فقال نافع:

ـ «سأسافر؟ معنى ذلك إني لن أسافر أيضاً».

فقال سعيد:

ـ «أنت اذهب إلى أمك فأتِ بها وأسكنها هنا وانتظرني حتى أعود».

فقال نافع:

ـ «وماذا ستفعل أمي هنا؟».

فقال سعيد باسماً بطيبة:

ـ «ألسنا أخوين. . وأنت أخي الأصغر؟».

فتبسم نافع وقال:

ـ «سيكون ذلك إن شاء الله».

* * *

ولما حل موعد السفر تهيأ سعيد وانضم إليه هاني وركبا ناقتين وأردفا

خلفهما جواديهما واتجها إلى مكة وبدأا السير الطويل؛ أما نافع فقال له عمرو:

ـ «والآن إلى أين أنت ذاهب؟».

فقال نافع:

ـ «إلى قريتي وهي ليست بعيدة عن الكوفة.. ولكن أود أن أسألك».

فقال عمرو:

ـ «عن ماذا؟».

فقال نافع:

ـ «ما علاقة جميلة بسعيد؟».

فتبسم عمرو وقال:

ـ «سعيد شاب زين الشباب، وجميلة رائعة بكل ما فيها، ولكنها تعيش بحقد يسمم حياتها، وقد نشأت هي وسعيد منذ الطفولة وتحابا، ولكن بعد مقتل أبيها وأخيها في صفين حقدت على الإمام علي وبعده على ابنه الحسين ففرق ذلك بينها وبين سعيد لأن سعيداً كما تراه يعيش لمبادئه أكثر مما يعيش لنفسه».

ثم تنهد مبتسماً:

ـ «سعيد ضوء عيني وهو على صواب، ثم وقد ربي تربية نبيلة مستقيمة بكل معنى الكلمة فقد كان أبوه أحد الأبطال الشجعان المعروفين في كل العراق ولا يمكن أن يكون سعيد إلا نسخة عن أبيه».

فقال نافع وقد فهم شيئاً عن سعيد:

ـ «شكراً.. والآن سأذهب.. استودعك الله».

وصفر صفرة خفيفة للجواد، فتقدم وامتطاه ورفع يده ملوحاً لعمرو، وانطلق إلى قريته.

لقاء مع أم

وما إن وصل نافع حتى عرج على أحد البيوت المتواضعة، وقفز عن جواده وتركه فسار إلى معلفه ومكانه. ودخل البيت ونادى أمه فإذا بامرأة بدينة عليها مسحة من جمال باقية رغم السنين الخمسين التي ترتسم على وجهها وجسدها وملامحها. وما إن رأته حتى مدت ذراعيها بلهفة والدموع تملأ عينيها. وارتمى نافع بين ذراعيها بحب عميق فاحتضنته لبرهة طويلة ساكتة باكية بهدوء ثم تركته وعادت تحتضن وجهه وتنظر إليه بكل ما أوتيت الأم من عاطفة وحنان ثم انهالت على وجهه تقبيلاً وضماً فانحنى نافع على يدها يقبلها ثم احتضنها بذراعه اليمنى وقادها لأحد المقاعد وجلس يواجهها قائلاً:

ـ «اشتقت لك يا أماه».

فعادت تضمه إليها قائلة:

ـ «يا حبيبي يا نافع كيف حالك يا بني؟ وما جرى لك أخبرني بكل شيء أم بعد أن ترتاح؟».

ثم تمعنت به فإذا كأنه لم يكن على سفر فقالت باسمة بتعجب:

ـ «لست كعادة المسافرين أين التعب الذي يظهر عليك. أين الغبار

الكثيف وثيابك الوسخة؟».

فقال نافع ضاحكاً:

ـ «سألتني عما جرى وسأحكي لك كل شيء..».

وبدأ يحكي لها كل ما مر معه وكل قصته وسفره ولقائه مع الحسين وكيف كان، ثم عن وهب وجون وسعيد ولكنه عندما وصل إلى قصة بوران تجاوزها دون تعليق فنظرت إليه أمه بريبة مفتعلة باسمة ولما انتهى من قصته قالت:

ـ «أفرحت قلبي يا بني.. حفظك الله.. ورد الله عنك كيد الأعداء إنك كهلال بكلماته بحركاته.. ولكن؟».

وسكتت قليلاً لتنظر إليه بتمعن باسمة قائلة:

ـ «ولكن لاحظت أنك تخفي عني شيئاً».

فقال متجاهلاً:

ـ «أبداً فقد علمتني الصدق ولم أعرف الكذب».

فقالت:

ـ «بلى.. أشعر أن بقلبك صورة غير صورة أمك».

فقال ضاحكاً مستسلماً:

ـ «نعم.. نعم سأحكي لك فأنا لا أعرف أن أخفي عليك شيئاً».

وحكى لها كل ما جرى له مع بوران.. فعلت ضحكات الأم وعادت تحتضنه قائلة:

ـ «حبيبي.. ولكن ألم تجد إلا فتاة من البدو تضع مصيرك بين يديها؟».

فقال متصنعاً الجد:

ـ «صحيح أن ذلك كان أمراً عابراً ولكن إذا قدر لي أن أجدها مرة ثانية

وقدرت لي ستكون رفيقة حياتي وحياتك».

فأمعنت نظرها به وكلها تقطر حناناً وقالت:

- «ذلك يوم المنى يا بني. . ولكن لن يكون قبل نصرك للحسين».

وما إن لفظت اسم الحسين حتى انقلبت ملامح نافع لمنتهى الجد وقال:

- «أماه. . هناك شيء لم أفهمه، إذا كان لك به علم أرجو أن تقوليه لي».

فقالت بطيبة:

- «ما هو؟».

فقال:

- «لم أكن أعلم أن هناك كثيرين مثلنا يهتمون بالحسين وكأنهم على موعد سابق، فهم كلهم متشابهون متكاتفون متفقون سلفاً على أمر الحسين فما سر ذلك؟».

فقالت الأم بجد ممزوج بالحنان:

- «أنت تعلم أن والدك كان من أصحاب الإمام علي وتعرف أنه كان معه في جميع الحروب، وهو الذي أوصاني قبل موته أنه عندما يموت معاوية لتذهب أنت لنصرة الحسين».

وسكتت قليلاً ثم أضافت:

- «وقد شدد والدك على ذلك، وأقسم علي أن أنفذه ولم يقل شيئاً آخر إلا كلمة واحدة».

فقال نافع بلهفة:

- «ما هي؟».

فقالت:

ـ «قال . . وستفسر له الأحداث كل شيء . . وها هو معاوية قلب الخلافة إلى ملك وها هو الدين يصبح وسيلة بعد أن كان هدفاً، وتولى أموره الفاسقون ومعنى ذلك أنهم بدأوا ينحرفون به انحرافاً ظاهراً بعد أن كان انحرافاً مستتراً تحت شعارات دينية . . وعلى كل مهما كان الظاهر غير الباطن إلا أنه كان للدين حرمة . . أما بفعلة معاوية بجعل الخلافة ملكاً وراثياً فهذا بدء الهدم بالدين .

ومن الطبيعي أن أصحاب الإمام علي كانوا على علم بذلك من علي نفسه وعلي من النبي والنبي من الله ومن الطبيعي أيضاً الالتفاف حول الحسين القائد الصالح لأنه وحده الأمل في إنقاذ الدين من الهدم . . أما غير ذلك يا بني لا أعرف» .

فقال نافع باهتمام :

ـ «ذلك كاف . . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» .

ثم أخبرها عن سعيد ورغبته في الانتقال إلى بيته . ففكرت قليلاً وقالت :

ـ «يعز علي با بني أن أترك بيتي . . ولكن عندي فكرة وهي أني سأنفذ رغبتكم حتى يتم انتقال الحسين إلى الكوفة فأهلها لن يدعوه حتى يأتي ، وبعد ذلك أعود لبيتي . . فقد تكونون بحاجة إلي هناك» .

فأخذ يد أمه وقبلها شاكراً فرحاً ، وبذلك انتقل نافع مع أمه لدار سعيد .

مع سعيد

أما سعيد وهاني فقد جدا السير الحثيث نحو مكة لا يرتاحان إلا قليلاً، يصلان الليل بالنهار وينتقلان مرة إلى الجوادين ومرة أخرى للناقتين وهما يقطعان الصحاري والمخاطر والمشاق بصبر وجلد كبيرين وخاصة سعيد الذي كانت هذه هي السفرة الثالثة بمدة قصيرة تكاد تكون متصلة ومع ذلك فهو أبداً هو هو ذلك الشديد الصلب القوي الصبور. ولم يكلم هاني إلا بما ندر وكذلك كان هاني، إذ كانا يتطلعان لهدف واحد ويرنوان لهدف واحد ويتجهان بكليتهما إلى نقطة معينة هي مكة.

وكانا يمران بطريقهما على قوافل كثيرة من الجمال والخيل يركبها أو يقودها أناس عرفوا أنهم تجار إلى الحجاز فكانا ينزلان مع القوافل أو ينفردان بالسير كاتمين أمرهما.

وأخيراً بعد الجهد الكبير والتعب الشاق والسفر المضني أشرفا على مكة، فتنفس سعيد الصعداء قائلاً:

ـ «الحمد لله.. ها نحن وصلنا إلى مكة».

ولم تمض دقائق حتى دخلاها والشمس قاربت الغروب فقال هاني

لسعيد:

- «إلى أين سنذهب قبل مقابلة الحسين؟».

فقال سعيد:

- «سنذهب فوراً إلى الحسين عليه السلام».

وقطعا الأزقة والدروب حتى وصلا إلى منازل الحسين فترجلا. وكان الليل قد غمر الدنيا وهدأت الحركة في الأسواق وخلت الشوارع من المارة إلا من قليل ذي حاجة، وربطا راحلتيهما ولكن ظهر على محياهما التعجب والتساؤل من هذا الهدوء الشامل في المنزل فكأن ليس به أحد، فأخذا ينظران حولهما فلم يجدا أحداً اللهم إلا عدداً كبيراً من الخيول والجمال في زرائبها واسطبلاتها فقال سعيد:

- «لعل الحسين يصلي صلاة المغرب في الحرم».

ولم يتم كلامه حتى ظهر شبح في الظلام أخذ يقترب رويداً رويداً فبان واضحاً ووقف قليلاً ثم تقدم بسرعة هاتفاً:

- «سعيد.. الحمد لله على سلامتك أهلاً بك ومرحباً.. ومن؟ هاني أيضاً يا أهلاً ومرحباً بك وبكما.. أهلاً أهلاً».

وكان جون. وفرح سعيد وهاني بلقياه وتعانق الثلاثة طويلاً وقال سعيد:

- «إني لا أرى أحداً».

فقال جون:

- «الحسين في الحرم ومعه من تعرف وهم أصحابنا من المدينة.. وهل وراءكما خير؟».

فقال سعيد:

- «كل الخير وستعرف كل شيء.. فالحسين يجب أن يعلم بذلك أولاً».

فقال:

- «من المؤكد أنكما تعبين فتعالا واستريحا».

* * *

ودخل الثلاثة دار الضيافة وأخذوا يتحدثون. وبعد وقت طويل سمعوا ضجة وجلبة بالخارج فعرفوا أن الحسين وأصحابه آتون فتهيأوا لاستقبالهم.. وما عتم أن دخل الحسين ووراءه أخوته وأبناؤه وأقاربه وأصحابه وكانوا كثيرين وما إن رأى سعيداً وهانياً حتى قال مرحبا:

- «سعيد.. وهاني السبيعي؟ أهلاً بكما يا ابني أخي.. أهلاً ومرحباً».

فتقدم سعيد وهاني وقبلا يد الحسين الذي جلس داعياً الكل للجلوس.. ولم يتقدم أحد للسلام على سعيد أو هاني تهيباً للحسين الذي عاد للترحيب بهما وهش بوجههما مرحباً وقال:

- «ما وراءكما؟».

وتطاول الجميع لمعرفة ما سيقولان. فقال سعيد:

- «خيرٌ إن شاء الله يا سيدي ونحن ننقل لكم تأييد أهل الكوفة وقول أشرافهم أن لك هناك مائة ألف سيف يأتمرون بأمركم وهم ينتظرون قدومكم على أحر من الجمر ثم لكم معنا رسالتان».

ومد يده بالرسالتين فقال الحسين مشيراً لإحداهما:

- («هذه ممن؟»).

فقال سعيد:

- («من شيعتك في الكوفة وعلى رأسهم سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد البجلي وحبيب بن مظاهر وعبدالله بن وال»).

فقال الحسين مشيراً للرسالة الثانية:

ـ (﴿وهذا الكتاب من اجتمع عليه؟﴾).

فقال سعيد:

ـ (﴿شبث بن ربعي وحجار بن أبجر ويزيد بن رويم وعروة بن قيس وعمرو بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير التميمي﴾).

ولم يفل الحسين الرسالتين بل ناولهما إلى هاني وقال:

ـ «فضهما واقرأهما». فأخذهما هاني ووقف وأخذ يقرأهما.. فتهلل وجه الجميع فرحاً وسروراً وكبر بعضهم فقال الحسين:

ـ «ما ترون؟».

فوقف أحدهم طالباً من الحسين أن يسمح له بالكلام فأشار له بالموافقة فقال:

ـ «مولاي.. أرى أن الرسالتين من أشراف الكوفة ورؤسائها أو أكابرها ومعنى ذلك أنهم يؤيدونكم تأييداً تاماً ثم إن الكوفة أصبحت مضمونة. وإذا أضفنا ذلك لآلاف الرسائل والوفود الكثيرة منها إليكم التي وصلتكم حتى الآن، وأخص بالذكر تلك الرسالة التي تقول إن لم تقدم عليهم فسيشكونك لجدك يوم القيامة.. فقد سدوا جميع السبل إلا إلى الكوفة».

ووافق الجميع فعلت كلمات التأييد وارتفع الضجيج فشملهم الحسين بنظره حتى هدأوا وقال:

ـ «غداً سأستخير الله بهذا الأمر وحسبنا الله ونعم الوكيل» وخرج ومعه أولاده وأقاربه وعند ذلك خلا الجو لأصدقاء سعيد وهاني فتجمهروا حولهما يسلمون عليهما ويرحبون بهما وكان أولهم وهب الذي عانق سعيداً عناقاً حاراً.. وأخذوا يتباحثون ويستفسرون عن إخوانهم في الكوفة، ثم يتحدثون عن الآمال والأماني التي يبنونها على عودة الخلافة لأهل البيت بشخص الحسين.. وطالت أحاديثهم. وتقدم جون من سعيد وهاني هامساً:

ـ «ألا تبغيان قليلاً من الراحة؟». فتنبها لذلك وقاما مستأذنين يرافقهما

جون ووهب الذي عرفه بهاني وعرف هاني به ثم قال له مازحاً:

ـ «هل كنت تلميذاً مجتهداً عند برير؟».

فقال وهب بجد:

ـ «الحقائق لا تحتاج لاجتهاد وشروح، يكفي العقل أن يتجه إليها حتى يراها ويدركها ويفهمها».

فقال جون لوهب:

ـ «أتينا بهما ليرتاحا يا رجل..».

فضحك وهب واستأذن مودعاً.

ودون أن يخلع سعيد وهاني ثيابهما استلقيا وبطرفة عين كانا في سباتٍ عميق...

ومع طلوع الفجر علا صوت الآذان، فاستيقظ سعيد وهاني وتوضئا وصليا وعادا للنوم وسرعان ما نام هاني ولكن سعيداً أخذ يتقلب في فراشه، وشعر أن النوم جفاه فخرج لمنزل وهب فوجده قائماً يصلي فابتسم وأخذ يراقبه.. ولما انتهى تلفت فوجد سعيداً ووقف مرحباً به فابتدره سعيد وسأله عن الحسين فأجاب:

ـ «أعتقد بحرم الكعبة يصلي ويستخير الله في الذهاب إلى الكوفة».

فقال سعيد:

ـ «فلنذهب إليه».

* * *

وخرجا متوجهين إلى حرم الكعبة حيث وجدا الحسين قائماً يصلي وحيداً.. فوقفا عن قرب يراقبانه حتى انتهى وإذا به يرفع يديه إلى السماء ويتمتم بصوت غير مسموع ثم يسجد ويطول سجوده.. ثم إذا به ينشج بالبكاء وهو مستغرق بالدعاء ساجداً. فشعرا كأن حوله هالة من نور، والقدسية تجلببه

من جميع نواحيه والطهارة تنسدل عليه وعلى كل ما حوله وخاصة وهو في أقدس بقعة بالدنيا، والسكينة تسدل ستاراً ناعماً مع الضياء الأبيض المنتشر من المشرق.. يغطي كل تلك البقعة الطاهرة المقدسة.

فقال وهب محدقاً بالحسين وهو يشبك يديه على صدره هامساً:

ـ «كلما ازددت بك تعرفاً يا مولاي ازددت لك تقديساً أيتها الثمرة الطاهرة من الشجرة الطيبة يا ريحانة الرسول يا بن الأطهار الطيبين.. وهل كان يليق بالمسلمين قائد إلا أنت؟».

فنظر سعيد إلى وهب بصداقة عميقة وقال بهمس:

ـ «هل عرفت الآن لم نحب أهل البيت؟ وهل تأكدت أننا قليل علينا أن نفدي الحسين بأرواحنا؟ وهل فسر لك ذلك لِمَ نحن نثور ولم حاربنا وثبتنا مع علي في الجمل وقبل الجمل والنهروان وصفين؟ وهل نعدل بالحسين ذلك...».

فقال وهب هامساً بحدة:

ـ «ذلك الدعي ابن الدعي الفاجر الغادر ابن آكلة الأكباد.. لا والله ولا ظفر هذا بوجنة ذاك».

وطال سجود الحسين.. ولما امتد لوقت طويل نظر لسعيد متلهفاً ظناً منه أنه جرى له مكروه وأراد أن يتقدم نحوه فمد سعيد يده وجذبه بلطف قائلاً:

ـ «اطمئن يا وهب.. هذه هي عادته».

وبعد لحظات ظنها وهب دهراً رفع الحسين وجهه منهياً دعاءه وتلفت فعرفا أنه انتهى من الصلاة والدعاء فتقدما، وأخذ وهب يد الحسين وقبلها ومسح بها وجهه حباً وتبركاً وتقديساً له، وكذلك فعل سعيد، ولكن ما إن رفعا رأسيهما حتى وقع نظرهما على وجهه فإذا بعينيه تفيضان بالدمع..

وأشار لهما بالجلوس فجلسا متأدبين وخاصة وهب إذ لم يكن يعرف أن

عبادة الحسين وتقواه وزهده بهذا الشكل، لذلك كان أكثر الوقت مرخياً طرفه احتراماً ورهبة. .

وأخذ الحسين يتبسط معهما بالحديث حتى أشرقت الشمس فوقف ومشى وتبعاه إلى منزله. . وقال سعيد لوهب وهما عائدين:

- «هل أطلعت على خطبة الغدير؟».

فقال وهب:

- «سمعت بها ولم أكوّن عنها فكرة واضحة».

فقال سعيد:

- «اسأل جون عنها فهو يحفظها بحذافيرها كلمة كلمة؛ وهي ستبين لك أن الله تعالى أكمل الدين بالإمامة وطبعاً إمامة الأتقياء الصالحين الصادقين وليست ملك ذلك الغبي الغشوم الفاجر. . وأزيد على قولي الآية الشريفة من المؤكد أنك قرأتها ﴿**بسم الله الرحمٰن الرحيم، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين**﴾.

وها نحن بين اثنين على من تنطبق هذه الآية الكريمة؟ من هو الصادق منهما؟ من هو الصادق مع الله في عبادته، في تقواه، في زهده؟ في إيمانه؟ في حبه لله وللرسول؟

من هو الصادق مع الإسلام في غيرته على شريعة الإسلام ودقته في مبادئه وتفقهه في شرائعه؟

من هو الصادق مع الناس في مالهم وفيئهم، في احترام إنسانيتهم وحريتهم، في حفظ كرامتهم وأعراضهم وشرفهم؟ وحقهم في الحياة؟ من هو الصادق مع نفسه وأخلاقه؟».

ثم ثار سعيد وقال شبه صارخ محتداً:

- «كلما فكرت بأن أميري يزيد وأن يزيدَ يسمى بأمير المؤمنين تمنيت القبض على عنقه وخنقه حتى الموت على أن لا يكون أميري إلا الحسين».

فقال وهب ضاحكاً:

- «وَلِمَ الغضب؟ . . فهنـاك أيضاً آيـات كثيـرة جـداً تنـطبق على يـزيـد فالفاسقين والمنافقين وأهل النار والمكذبين وحتى آيات الشيطان تنطبق عليه».

فشـارك سعيد وهب ضحكته بابتسـامة مـرة وأكملا طـريقهمـا كـلٌ إلى منزله.

* * *

وعند العصر وبينما كان سعيد وهاني مستلقيين إذا بالباب يقرع بقوة فقام هاني وفتحه واندفع جون ليهتف:

- «سعيد. . هاني. . رضي الحسين بالسفر للعراق».

فقفز سعيد واقفاً يسأله باهتمام شديد وفرح كبير وجون يكاد يطيـر فرحـاً وهو يؤكد قوله. وسرعان ما تهيأ الكل وخرجوا إلى منزل الحسين حيث وجـدوا جميع الرفـاق يقفون أمـام دار الحسين ويكاد فنـاؤه على سعته يضيق بهم وهـم كلهم مستبشرون يهنىء بعضهم بعضاً. ووقفـوا بين الجمع وإذا بـالباب يفتـح ويخرج أبو الفضل ليقول:

- «عزم مولانا الحسين على التوجه إلى العراق بعد تأدية فريضة الحج».

وهلل الجميـع وكبروا. وعـاد أبـو الفضـل من حيث أتى وتفـرق الجمـع وهـم يشعرون أنهم بدأوا السير نحو هدفهم.

ومـا إن وصل سعيـد ووهب وجون وهـاني إلى منـزلهم حتى أتى رجـل ممن عرفوا بالمدينة، يدعوهم على عجل للاجتماع عند سويـد فلبوا الـطلب. ودخلوا المنزل وإذا بهم وسط مجموعة من الرفاق الذين رحبـوا بهم كما رحب بهم سويد ودعاهم للجلوس وقال:

- «أيها الرفاق. . في أعناقنا بيعة للحسين وها قد دعا الداعي. . وها هو يعتزم السفر إلى العراق بعد تأدية فريضة الحـج، والحج على الأبـواب ومعنى هذا أن رحيله وأقصد رحيلنا قرب، فمن كان على ريبة من أمـره فهو بحـل من

بيعته، فمسيرنا ليس إلا لله-وفي سبيل الله ومرضاة جد الحسين والحسين وأبي الحسين».

وللتو وقف رجل تظهر عليه الشدة والبأس الشديد وقال بعزم:

- «وأنا بايعت الله إن دمي فداء للحسين قبل أن أمد يدي لأيديكم وسأبقى على قولي ما دام في عرق ينبض». ثم جلس.

وأخذ ينهض كل واحد ليقول قوله بعزم وقوة.. فقال سويد:

- «إذاً على خيرة الله.. وبسم الله وسنرسل لبقيتنا للانضمام إلينا».

وبعد أيام. وكان سعيد وهاني وجون ووهب في المنزل دخل عليهم عبدالله بن سمعان مولى الحسين وقال:

- «يا سعيد وهاني.. مولاي الحسين يطلبكما».

فهب الأربعة ورافقوا عبدالله إلى حيث الحسين الذي رحب بهم وقال لسعيد وهاني:

- «كتبت جواباً لأهل الكوفة ورأيت أن تذهبا بكتابي إليهم فاقرأاه». وناولهما الكتاب فأخذ سعيد يقرأ:

- («بسم الله الرحمٰن الرحيم.. من الحسين بن علي إلى المؤمنين والمسلمين، أما بعد:

«فإن هانياً وسعيداً قدما علي بكتبكم وكانا آخر من قدم علي من رسلكم وقد فهمت كل الذي قصصتم وذكرتم ومقالة جلكم، أنه ليس عندنا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والهدى وأنا باعث إليكم ابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلماً بن عقيل فإنه كُتب إلي أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوو الحجى والفضل منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأت في كتبكم.. فإني أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله تعالى.. فلعمري ما الإمام إلا الحاكم بالكتاب والدائن بدين الحق الحابس نفسه على ذلك لله والسلام»).

ولما انتهى سعيد من القراءة قال الحسين:

- («إني أعلم ما قاسيتم بسفركم وخاصة سعيد ولكنكما تعرفان الطريق وأنتما من الكوفة فأجركم على الله»).

فقال سعيد وكأنه لم يسمع كلمات الحسين:

- «أتأذن لنا يا مولاي بالسفر فوراً؟»

فوقف الحسين قائلاً:

- «يا ابني أخي.. محفوظين بالسلامة.. ولكن لي طلب إليكما.. لا تشهرا سيفاً بالكوفة».

وودعاه ولم يخطر ببالهما قصده وخرجا من ساعتهما يستعدان للسفر. ولم يمض وقت طويل حتى كان جون ووهب وسويد وكثيرون بوداعهما وهما ينطلقان على طريق العراق إلى العراق.

مسلم بن عقيل ممثل الحسين

وبعد يومين من سفر سعيد وهاني.. وبينما كان وهب وجون مارين قرب منزل الحسين إذا بهما يريان فارساً قادماً من طريق المدينة فوقفا للتعرف عليه فإذا بجون يهتف:

- «هذا مسلم بن عقيل ابن عم الحسين».

وتقدما يسلمان على مسلم.. عندما تأكدا من سبب مجيئه، وكان فرحهم أكبر عندما علموا مع الرفاق في اليوم الثاني أن الحسين بالفعل كان قد استدعاه وكلفه أن يسافر إلى الكوفة ليمهد لقدومه إليها.

وعند مساء ذلك اليوم دعا الحسين جميع الرفاق إلى بيته. وعندما التأم جمعهم ومسلم يجلس عن يساره وأبو الفضل عن يمينه قال:

- «يا أصحابي.. استدعيت مسلماً بن عقيل ابن عمي وكلفته أن يذهب إلى الكوفة.. فما ترون؟».

فوقف برير وقال:

- «مولاي.. لك الأمر وعلينا الطاعة». ثم جلس وبعده وقف سويد وقالَ:

ـ «مولاي أبا عبدالله. . قولنا قول برير. . ونحن جميعاً نأتمر بأمرك».

وجلس وسكت الجميع. . فقال الحسين وقد بدا عابساً وكلماته متقطعة يقطر منها الحزن والعزم:

ـ («يا مسلم. . عند سفرك يكون. . رفاقك»).

ثم سكت قليلاً وأجال نظره بالجميع فتطاولت إليه الأعناق فأكمل:

ـ («رفاقك. . قيس بن مسهر الصيداوي»).

وفوراً وقف قيس فظهر شاباً جميلاً نبيل الملامح تطل الجرأة من عينيه وقال:

ـ («سمعاً وطاعة يا مولاي»). وجلس.

وأكمل الحسين:

ـ («عمارة بن عبدالله السلولي»).

فوقف عمارة فإذا به رجل نحيل القامة شديد البنيان وقال:

ـ («سمعاً وطاعة يا مولاي»). وجلس.

وأكمل الحسين:

ـ («عبدالرحمٰن بن عبدالله الأزدي»).

فوقف عبدالرحمٰن فإذا به رجل في العقد الرابع مربوع القامة يميل للبدانة وقال:

ـ «سمعاً وطاعة يا مولاي» وجلس.

فقال الحسين:

ـ («أنتم الثلاثة ترافقون مسلماً إلى الكوفة»). ثم التفت إلى مسلم قائلاً:

ـ («أوصيك بتقوى الله وكتمان أمرك واللطف مع الناس وإن رأيت الناس

مجتمعة كلمتهم لنا مستوثقين فعجل إلي بذلك»).

فقال مسلم:

ـ «السمع والطاعة. . متى تأذنون بالسفر؟».

فقال الحسين:

ـ «اذهب إلى المدينة وودع أهلك وبعد ذلك تسافر».

فقال مسلم:

ـ «سمعاً وطاعة».

وقام من توه متوجهاً إلى المدينة حيث ودع أهله وذهب إلى قبر الرسـول وودعه ثم عاد إلى مكة حيث كان ينتظره الرفاق الثلاثة. . . . وبدأ السفر.

عـودة إلـى سعيـد

. . . ولنعد ثانية إلى سعيد وهاني. . فقد ركب كل منهما ناقته وأردف فرسه خلفه وأخذا يجدان السير، والأمل أمامهما يستحثهما والفرحة تملأ صدريهما، وفي كل منهما شوق قوي للوصول إلى الكوفة أنسى كلا منهما أكثر الطريق على طولها أن يحدث أحدهما الآخر إلا للضرورة. .

وكانا يصلان الليل بالنهار والنهار بالليل بالسير الحثيث ولا يتوقفان إلا على عين ماء أو للصلاة أو لإراحة الناقتين والفرسين. . حتى وصلا إلى العين التي تعرف فيها نافع ببوران، فطلب سعيد من هاني أن يستريحا قليلاً وأناخا الناقتين وقدما لها وللفرسين العلف وتقدما للماء يغتسلان ويشربان ويملأا القرب ثم جلسا يتناولان طعاميهما. . وإذا بسعيد ينظر إلى حيث وقف نافع وبوران ويبتسم، فسأله هاني عن سبب ابتسامته فضحك وأخبره بقصة نافع وبوران وأنهى حديثه بقوله:

ـ «لو قدر لنا النصر والتوفيق سآتي أنا ونافع وأدفع مهرها مهما كان وأزوجها من نافع».

فضحك هاني وقال:

ـ «يظهر أنهما يليقان ببعضهما».

فتبسم سعيد وأشار برأسه إشارة الإيجاب، ثم أخذا يتهيأان للرحيل وامتطيا جواديهما وأدارا الأعنة وقال سعيد:

ـ «هيا».

وحانت منه التفاتة إلى هاني، فإذا بهذا يحدق إلى البعيد من فوق أغصان الشجيرات، فنظر سعيد حيث يتطلع هاني الذي قال:

ـ «أتظنها هي؟» لننتظر ونختبر مشاعرها نحو نافع عند مشاهدتك فإن كانت جديرة به فأنا سأشاركك في طلب يدها».

وانتظرا قليلاً.. فإذا بالفتاة تقترب وتمشي الهوينا وتنقل خطاها بتثاقل حتى اقتربت منهما وهي لا تلتفت حولها وكأنها لا تتوقع وجود أحد.. وتبسم سعيد فعرف هاني أنها بوران بالذات..

وإذا بأحد الجوادين يضرب بحوافره الأرض فيصدر صوتاً أجفلت له بوران فتطلعت إلى حيث سعيد وهاني فظهر على محياها المفاجأة ففغرت فمها مشدوهة ووقفت فقطب هاني جبينه وعلى فمه شبح ابتسامة بينما نزل سعيد عن جواده وتقدم منها يتبعه جواده وقال:

ـ «بوران..». وأخذت ترسل طرفها حولها وكأنها تفتش عن شخص معين. ففهم سعيد مغزى نظراتها، فقال:

ـ «نافع ليس هنا وهو لم يزل بالكوفة».

فحدقت به دون أن تقول كلمة، فقال:

ـ «ونحن ذاهبون إلى حيث يقيم وسنراه إن شاء الله.. فهل تريدين أن تقولي له شيئاً؟».

فقالت:

ـ «لا.. وهل هناك أمل؟».

فقال سعيد:

ـ «تأكدي أن هناك أمل ولكن هناك مهمة وعندما ستتم سنأتي».

ونظرت إليه وقد لمعت الدموع في عينيها وشع فيهما بـريق فرح وقـالت وهي تسترق النظر لهاني بحياء:

ـ «سأنتظغه (تقصد سأنتظره).

فاتسعت ابتسامة هاني بينما تقدم سعيد وامتطى جواده.

فنظرت إليه وقالت:

ـ «بلغه تحياتي».

ورفع بيده مودعاً فرفعت يدها ملوحة وابتسامة حلوة تزين ثغرها..

وانطلق سعيد وهاني. وبقيت بوران واقفة ترافقهمـا بنظراتهـا حتى غابـا وراء أفق الصحراء البعيد.. البعيد..

* * *

ووصـلا إلى الكـوفـة عنـد العشـاء.. وتـوجهـا إلى بيت سعيـد حيث استقبلهما عمرو وأم نافع التي رحب بها سعيد أجمل ترحيب وسألها عن نـافع فـأجابتـه أنه خـرج بحاجـة وطلب من عمرو أن يـذهب إلى سليمـان بن صـرد الخزاعي ليعلن قدومه برسالة من الحسين.

وخرج عمرو فرحاً تاركاً سعيداً وهو يبشر أم نافع بمجيء مسلم بن عقيل كمقدمة لمقدم الحسين.. وفرحت كثيراً واستبشرت.

* * *

وبوصول عمـرو وإعلانـه قدوم رسـالة من الحسين لسليمـان بن صرد.. وبسرعة انتشر الخبر بين المؤيـدين للحسين فأخـذوا يتواقـدون لمنزل سليمـان حتى غص بهم على سعتـه.. فأشـار سليمان لأشـراف القوم أن يتبعـوه لمنزل سعيد.. وكان مرافقوه أكثر من عشرين توجهوا مسرعين ووصلوا.. واستقبلهم

سعيد وهاني وعمرو.

وطلب سليمان الرسالة فناوله إياها سعيد فقبلها وفضها وأخذ يقرأها بصوت متهدج..

وما إن انتهى حتى علا التكبير واستبشر الجميع وارتفعت الأصوات وعلا الضجيج ترحيباً واستبشاراً بمقدم مسلم كمقدمة لقدوم الحسين.. وأشار لهم سعيد فهدأت الضجة فقال:

ـ «ولن تمضي أيام حتى يكون مسلم بيننا.. وسنملأها رجالاً وخيلاً على محرفي الكتاب والسنة».

وعلت الأصوات مؤكدة النصر والحرب والثورة. فشكرهم سليمان ورغب إليهم الرجوع إلى أصحابهم المنتظرين لتبشيرهم. وخرجوا. ولم يمض وقت طويل حتى عاد نافع وقد عرف بعودة سعيد فأسرع الخطى واقتحم البيت اقتحاماً. وما إن رآه حتى اندفع إليه يعانقه مرحباً بأخوة عميقة فعانقه سعيد وهاني الذي نظر إليه فرحاً به وقال:

ـ «أنت كما وصفك سعيد تماماً». بينما كانت الأم تراقب الجميع ودموع الفرح والعطف والحنان تترقرق بعينيها. وأشار سعيد لنافع أن ينحني قليلاً ليهمس بأذنه:

ـ «لك عندي هدية».

ـ «هدية؟ وما هي؟».

فقال سعيد:

ـ «تحية من بوران».

فصرخ نافع وقد نسي وجود أمه وهاني وقال:

ـ «هل رأيتها؟».

فضحكت الأم بصوت عالٍ فنظر إليها سعيد مستغرباً ثم همس لنافع قائلاً:

ـ «هل عرفت أمك؟».

فأشار نافع بالإيجاب. فارتفع صوت سعيد قائلاً:

ـ «إذاً. . الهدية تحية من بوران. . فقد رأيناها وهي تنتظرك وإن شاء الله عندما يستقر الأمر ويصبح الحسين أميراً للمؤمنين سأذهب أنا وهاني وجون ووهب وكل الرفاق نخطبها لك».

* * *

ساد الهدوء المؤيدين للحسين وبدوا كأنهم ينتظرون أمراً خطيراً فعلى الأقل سيوجه التاريخ بل سيعيد للحقيقة وجهها الطاهر النقي. . لذلك كانوا في تكتلات ولقاءات وتجمعات وهمس وذهاب وإياب. . وكل ذلك ترقباً لذلك الحدث الكبير وهو مجيء مسلم بن عقيل ممهداً لقدوم الحسين.

وحسب سعيد الوقت الذي يجب أن يقطع به مسلم ورفاقه المسافة من الحجاز إلى الكوفة. وطلب من هاني ونافع مرافقته لاستقبال مسلم خارج البلد. . وركبوا جيادهم وخرجوا إلى طريق الحجاز وبعدوا. . لكن مضي النهار كله ولم يأت مسلم، فقال سعيد:

ـ «كان يجب أن يكون وصولهم اليوم، ومن المؤكد حدث لهم ما أخرهم. . يجب أن نبقى هنا حتى يأتوا». . وانتظروا طوال الليل. . ولكن لم يأتوا، فصمم سعيد أن ينتظروا. . وفي السحر رأوا ثلاثة فرسان قادمين ما إن اقتربوا حتى عرفوهم فرحبوا بهم أجمل ترحيب، وطلب منهم مسلم أن لا يضيعوا وقتاً واستئناف السير.

ولاحظ سعيد أنهم يجب أن يكونوا أربعة لا ثلاثة، فسأل أحدهم واسمه عبدالرحمٰن، المرافق الثاني لمسلم قائلاً:

ـ «أين قيس بن مسهر الصيداوي؟».

فقال عبدالرحمٰن:

ـ «أتى بنا دليلان وضلا الطريق فتهنا بالصحراء وكدنا نهلك عطشاً لولا

عناية الله، فأرسل مسلم مع قيس رسالة للحسين يخبره بذلك».

فلوى سعيد رأسه متأسفاً وقال:

- «الحمد لله على السلامة».

وسأل مسلم سعيداً عن الكوفة وتأييدها فأجاب:

- «بخير وعلى أحسن حال، وبوصولكم سنبدأ العمل فوراً».

ووصلوا مع طلوع الشمس. وقال سعيد لمسلم:

- «لولا أن المختار بن أبي عبيدة الثقفي كان طلب نزولكم عنده لما تركتكم تنزلون إلا عندي».

فشكره مسلم.. وقادهم سعيد لبيت المختار.. ووصلوا واستقبلهم المختار بفناء داره الواسعة، فإذا به طويل القامة شديد البنية تبدو عليه الشجاعة والبطش وأبرز ما فيه عيناه اللتان تبدوان كعيني الصقر، وكان مع ذلك أحد أشراف الكوفة بل العراق كله وكان غنياً.. وأمر خدمه أن يهيئوا أسباب الراحة للمسافرين، وسرعان ما تم ذلك.

مسلم في الكوفة

... ولم تمض ساعات، على وصول مسلم إلى الكوفة، حتى تحول ذلك الهدوء وتلك السكينة إلى حركة وعمل، فقد انتشر خبر وصوله كانتشار النور في الظلمة.. ورغم الكتمان الشديد الذي فرضه مسلم على مجيئه، إلا أن الخبر انتشر في كل أرجائها، فأخذ المؤيدون بالعمل الفوري وصاروا يجتمعون، وينتقون منهم مندوبين لمحادثة مسلم الذي كان لم يزل في دار المختار حيث يجتمع بأشرافهم وكبارهم ويتلقى منهم التأييد.

وكان سعيد وهاني ونافع يذهبون دوماً للمشاركة بتنظيم بعض الأمور الحيوية.

وفتح أكابر القوم ورؤساؤهم باب المبايعة للحسين على يد مسلم، وخصصوا مراكز سرية بالكوفة لأخذها من عامة الناس وبدأت الوفود تتوالى على بيت المختار وعلى تلك المراكز للمبايعة، وأخذوا يزيدون ألفاً على ألف يوماً بعد يوم.

ولم تمض أيام، إلا والمبايعون يبلغون ثمانية عشر ألفاً، ففرح مسلم بذلك وكتب للحسين كتاباً، وانتدب رجلين لذلك فكان اسمهما عابس بن

شبيب الشاكري، وشوذب حليف بني شاكر، وكتب له يخبره بذلك ويتعجله بالمجيء وأعطاه لهما فنفذا ذلك وودعا مسلماً ومن معه ورحلا إلى مكة.

ويوماً..

كان المختار ومسلم وبعض الأشراف وسعيد ونافع وهاني معهم يتداولون بما يجب فعله ويبحثون أمورهم، فقال مسلم:

ـ «إن عدد المبايعين لا بأس به ولكن ينقصنا المال والسلاح، وقد لاحظت أمراً خطيراً بالكوفة وهو أن الفقر المدقع يسيطر عليها سيطرة تامة».

فقال المختار بنبرة شديدة:

ـ «وهناك ملاحظة ثانية وهي أنك لا ترى بالكوفة من الاتباع مسناً، لأن منهم من قتل أو صلب أو ذبح أو دفن وهو حي حتى كاد يفنى جيل بأكمله بعد استشهاد الإمام علي. هذا عدا عمن سقط في حرب الجمل وصفين والفتن والاغتيالات والغدر. لذلك ليس غريباً أن لا ترى إلا من كتبت له النجاة، وكان ذلك تخطيطاً ليطفئوا نور الله بأفواههم ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره.. ولا يهمنا القتل والصلب والذبح فقد علمنا أميرنا (يقصد علياً) كيف يجب أن نحافظ على ديننا سليماً وما دام سيبقى سليماً فلن نبالي».. ثم سكت قليلاً ليكمل محتداً:

ـ «وقد كان التخطيط والمؤامرة باثنتين إما القتل وإما الجوع فالقتل لمن ينجو من الجوع، والجوع لمن ينجو من القتل وذلك حتى لا نقف بطريقهم في سبيل التلاعب بالدين وتوجيه دفته للجهة التي يريدونها. والتي لا يريدها الله ولا يريدها الرسول ولا المؤمنون». وسكت..

وقال رجل آخر واسمه مسلم بن عوسجة يكمل حديث المختار:

ـ «لي نفس قول المختار ولكني أفسر.. فلبني أمية أسلوب رهيب بالحكم لأن الإنسان الجائع ـ كما قال المختار ـ يستولي عليه الذل من جهة والجبن من جهة ثانية ثم بنفس الوقت يستأسد في سبيل اللقمة.. فهو إذا

تبسم له حاكمه يرى ابتسامته نعمة، وإذا فرض عليه مهما فرض لا يقاوم لأنه ذليل ثم لأنه جبان، وإذا رُمي له بمال أو خبز فإنه يندفع للدفاع بين يديه ليس حباً به بل على الأقل محافظة على رزقه من الضياع؛ فعلوا ذلك منذ حكم معاوية، ولكن ديننا كان هدفنا وحب الرسول وعلي كانا ملاذنا فقاومنا ونحن جائعون وقتلنا وصلبنا وذبحنا وكان الذي تنال منا رحمتهم، تقطع يده أو لسانه أو تسمل عيناه أو يهدم داره أو يسجن تحت الشمس المحرقة في العراء حتى إذا مات مسجون انتن بين الأحياء».

ثم سكت مسلم بن عوسجة وقد احمرت عيناه غضباً وقال:

ـ «وفوق ذلك كله.. ويا لسخرية الأقدار يختمون صلاتهم بشتم أمير المؤمنين.. ولكن.. إذا مكن الله لنا سنجعل كتاب الله والإسلام حكماً بيننا وبينهم».

فقال مسلم بن عقيل بهدوء:

ـ «الإسلام صلاح الآخرة والدنيا، فالإنسان مسؤول يوم الحساب حتى بما يناجي به نفسه، يعاقب أو يثاب.. لذلك شرط التقوى والعمل الصالح.. وإلا لِمَ حث على التقوى؟ ولِمَ كان هذا حلال وهذا حرام؟ فهل كان ذلك لنفسح المجال لبني أمية لينعموا ويتسلطوا علينا ويستعبدوا المسلمين؟ إن هذا حكم عائلة وليس حكم الدين».

«يدعون أننا نفارق الجماعة إذا اعترضنا؟ وكان علينا أن نسكت، أن نستعبد، أن نرى سفينة الإسلام تنحرف عن أهدافها وكأننا فقط مسؤولون أمامهم ولسنا مسؤولين أمام الله.. فهم يرون أن رضاهم وفقط ما يجب على الناس التمسك به والمخالف لذلك منشق عن الجماعة».

فقال مسلم بن عوسجة بحدة:

ـ «إنه لمما يؤلمني ويكاد ينشق له صدري غيظاً هو هذا القول من أننا نحن نشق عصا المسلمين ونخالف الجماعة.. ومن هي هذه الجماعة وأين

هي؟ انها مجموعة مصالح . . مجموعة عبيد للمال للمادة . . للملذات . . وكل من يقف بطريقهم ليقول ان الدين غير ذلك . . الدين يحد من تهور الإنسان بملذاته وعبوديته للمال والجشع يصمونه بأنه منشق ويحملون القرآن ويتاجرون ببعض آياته الكريمة التي تقول: «يعطي الملك لمن يشاء» «ويهب الملك لمن يشاء» ثم ينسون قول العزيز القدير: «بسم الله الرحمٰن الرحيم **﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾**. وينسون قوله تعالى: **﴿ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾**.

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾.

«صدق الله العظيم»

فقال المختار:

ـ «إن الله تعالى ذم والرسول أيضاً ذم كل من سار على طريق هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون بل ذم حتى من يشوش نقاء طهارة المسلم فيكف بالذي يهدم الإسلام وأركانه ويحطم مبادئه وهو مخمور. . فيا رجال. . المال والسلاح عماد حركتنا والرجال متوفر، وبقي المال والسلاح فلنجمعه ولنصنع من الضعف قوة ولندخر حتى من أقواتنا لذلك».

فقال مسلم بن عوسجة:

ـ «اشهدوا أن كل ما أملك ما عدا سلاحي وفرسي ملك للمؤيدين».

وتحمس الجميع فأخذوا في التبرع وتسجيل ذلك. وطلب مسلم بن عقيل من مسلم بن عوسجة أن يكون وكيله بأخذ البيعة ويتولى جمع المال. وارفضوا ليتولى مسلم بن عوسجة مهمته الجديدة.

وفي اليوم التالي أذّن مؤذن الوالي بالصلاة في المسجد. وكان النعمان بن بشير، وقد ولي من قبل معاوية، وبعد موت هذا ثبته يزيد في ولايته. ولما علم بقوة مسلم بن عقيل وتكتل المؤيدين حوله خاف من ذلك وطلب الاجتماع في المسجد. . وما إن سمع الناس ذلك حتى حسبوا له ألف حساب فأخذوا يتوافدون حتى غص بهم على رحبه.

وبعد وقت وجيز أتى الوالي، وكان نافع مع الناس وقد جذبه حب الاستطلاع، ومعرفة ما سيقوله، فوقف على المنبر وأخذ يحذر الناس من الفتنة وهو يكاد يرتجف خوفاً. ولكن ما كاد ينتهي من كلامه حتى وقف رجل عرفه نافع أنه حليف لبني أمية أي من مؤيدي السلطان، وقال له بجرأة وشدة:

- («لا يصلح ما ترى إلا الغشم إن هذا الذي أنت عليه رأي المستضعفين»).

فقال النعمان:

- («أن أكون من المستضعفين بطاعة الله أحب إلي أن أكون من الأعزين في معصية الله»).

ثم نزل من على المنبر فضج الناس منهم المؤيد له ومنهم المؤيد للرجل. . فانسل نافع من بينهم وخرج ولكنه وقف هنيهة مفكراً ثم عاد ليقف أمام باب المسجد حتى رأى الشخص المعترض على الوالي خارجاً مغضباً فتبعه عن قرب حتى دخل بيته، وانتظر نافع قليلاً فإذا بعبد يخرج متأهباً للسفر، وسرعان ما ركب راحلته وخرج من الدار.

وظهر على نافع أنه فهم أمراً، فركض نحو البيت، وفك عنان جواده بسرعة وقفز إليه وإذا بسعيد يعترضه قائلاً سائلاً:

- «أراك مسرعاً باهتمام فإلى أين؟»

فقال نافع:

- «لن أتأخر وسأعود».

وأطلق لجواده العنان واتجه به نحو طريق الشام. . وما هي إلا لحظات حتى رأى العبد، فجد السير إليه، وصل وحياه بلطف قائلاً:

ـ «إلى أين أنت ذاهب؟».

فقال العبد:

«وما شأنك؟».

فقال نافع:

ـ «لنتكلم بصراحة. . أعرف أنك تحمل رسالة وكل ما أريده أن أعرف إلى أين وما فيها». ثم أخذ حفنة من الدراهم ووضعها بيده. . فتأملها العبد قائلاً:

ـ «أقول لك إلى أين ولكن ما بها لن أطلعك عليه».

فنظر نافع إليه بحنق ثم أعطاه حفنة ثانية وقال:

ـ «أعدك، لن يعلم سيدك بذلك أبداً». ورضي العبد. . فناوله الرسالة قائلاً:

ـ «اقرأها بسرعة وارجعها إلي».

فأخذها نافع وقرأها، فإذا بها من حليف بني أمية إلى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل للكوفة ومبايعة الناس له ويقول له: («إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث لها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك فإن النعمان بن بشير رجل ضعيف أو يتضعف»).

فقال نافع بلا مبالاة:

ـ «ظننت أن الأمر مهم خذ رسالتك».

فأخذها العبد فقال نافع:

ـ «ولكن لي سؤال واحد. . هل أرسل قبل هذه الرسالة للخليفة؟».

فغضب العبد ورفض الإجابة فقال له نافع بجد:

ـ «أجب الصدق وإلا وشيت بك لسيدك».

ففغر العبد فمه للحظات ثم قال:

ـ («نعم أرسل له مثلها وخاصة من عمر بن سعد بن أبي وقاص»).

فالتفت نافع إليه وقال باسماً:

ـ «اطمئن لن أتكلم أمام أحد بشيء».

وقفل راجعاً وأخبر سعيداً بـذلك فـاهتم بالأمـر وذهب ونافـع وهاني إلى مسلم بن عقيل والمختار والمؤيدين يخبرونهم فاهتموا بدورهم وقرروا الإسراع بحركتهم.

ـ ولكن بعد أيام، حدث ما لم يكن بالحسبان.

عبيدالله بن زياد بالكوفة

. . . بينما كان رؤساء المؤيدين وأشرافهم يلتفون حول مسلم بن عقيل يرتبون شؤونهم وينظمونها إذا برجل يدخل مسرعاً ليقول لاهثاً:

ـ «أتى الحسين وقد وصل الكوفة».

وبهت الحاضرون، وعقدت الدهشة ألسنتهم، إذ كيف يحصل هذا ويكون مفاجأة؟ وما استفاقوا من دهشتهم حتى عمهم الهرج والمرج وعلت الفرحة وجوههم واستبشروا وقويت عزائمهم، ولكن مسلم بن عقيل بدا وكأنه يفكر، فنظروا إليه ليروا سبب صمته فرفع إليهم طرفه وقال بهدوء:

ـ «لا أرى أن ذلك ممكناً وأرى أن فيه شبهة».

فقال سعيد:

ـ «إذاً فليذهب نافع يستطلع الخبر». فوافق مسلم وسرعان ما قفز نافع خارجاً مسرعاً، فوجد الناس يتجهون إلى ناحية قصر الإمارة ثم يتجمهرون أمامه. فسأل أحدهم عن سبب هذه الجموع فقال الرجل مشمئزاً:

ـ «كنا ظننا الحسين هو الآتي فإذا به عبيد الله بن زياد جاء وهو ملثم

يلبس لباس الحسين حتى ظن الناس أنه هو. . ويا ويل أهل الكوفة فإنه بذلك عرف مكنونات نفوسهم».

فقال نافع مبهوتاً:

ـ «تعني أن ليس الحسين هو الذي جاء؟».

فقال الرجل بنفس الاشمئزاز:

ـ «وهل كان للحسين مثل هذه. . وهل لها إلا ابن مرجانة؟ (مرجانة أم عبيدالله) والأشد ألماً أنه أتى والياً جديداً إلى الكوفة مع إضافة ولاية البصرة له، وبالطبع سيطرد النعمان بن بشير الوالي الحالي».

فتركه نافع وعاد يعدو إلى منزل المختار حيث مسلم وصحبه، وأخبرهم بما سمع. . فعلت البغتة وجوههم إذ لم يكونوا يتوقعون مثل هذه المفاجأة فقد كان أقرب احتمال هو مجيء جيش من الشام أو من البصرة أما أن يصبح عبيدالله الوالي الجديد فهذا شيء يحسب له ألف حساب. . إذ كانت الكوفة قد عرفت حكمه وحكم أبيه قبل ذلك وعرفت أنه كمرض الطاعون.

وكان مع المؤيدين رجل اسمه هاني بن عروة جليل القدر وهو شيخ كبير في السن قد تجاوز الثمانين ما إن سمع بذلك حتى قال لمسلم بن عقيل:

ـ («إن بيت المختار تحوم حوله الشبهة، ومنزلي لا شبهة عليه فأرجو أن تنتقل إلى بيتي فبيتي حصنك وفيه نكمل مهمتنا»).

ووافق الجميع على ذلك. . وفوراً خرج مسلم إلى بيت هاني بن عروة.

ومن جهة ثانية ما إن استقر بعبيد الله بن زياد الجلوس حتى (طرد النعمان بن بشير من الولاية شر طردة واستولى على بيت المال ثم أرسل بعض الجنود يستدعي جنوده الذين يرابطون قرب الكوفة وكانوا أكثر من مائة مع كل ما يحتاجون من سلاح ثم يحملون من المال الكثير الذي يزن القناطير). .

* * *

وطلب من المؤذن أن يؤذن بالصلاة جامعة ففعل، فتجمع الناس ودخل نافع مع الداخلين يستطلع ما يجري لنقله لمسلم والرفاق وجلس مع الجالسين، فرأى عبيدالله بن زياد يصعد المنبر وحوله الحرس بالسلاح وأجال طرفه بالناس فإذا به طويل القامة ممتلىء الجسم أسمر مصفر له عينان غائرتان فوقهما جبهة ضيقة بارزة تتقدم فوق عينيه اللتين بدتا صغيرتين ضيقتين يعلوهما حاجبان أحدهما يتجه أفقياً والآخر محدودب كالقوس.. وأبرز ما في وجهه فمه الذي يتجه إلى أسفل، وكان كل ما به يدل على اللؤم والقسوة والشر..

وسكت الناس.. فقال:

ـ («أما بعد.. فأمير المؤمنين يزيد ولّاني مصركم وثغركم وفيأكم وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالولد البار، وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي فليتق امرؤ على نفسه. الصدق ينبىء عنك لا الوعيد. وأبلغوا هذا الهاشمي (يقصد مسلماً بن عقيل) ليتقي غضبي»).

ونزل عن المنبر غاضباً ومر بين الناس فانشقوا له كسفينة في بحر وخرج فتبعه ناس كثير وإذا بالحرس يرفعون سياطهم ويلهبون بها ظهور وأجسام من يعترض طريقه ولا يفسح له بالمرور.

وانسل نافع من بينهم، وعاد إلى حيث مسلم وبعض الرفاق وأخبرهم بكل ما رأى وسمع. فقال هاني بن عروة لمسلم بن عقيل:

ـ («أنت ابق هنا ونحن سنتدبر»).

وخرج سعيد ونافع وهاني السبيعي إلى منزل سعيد. وما إن احتوتهم إحدى غرف البيت حتى عمهم صمت كئيب أخذ فيه سعيد يسير جيئة وذهاباً وهو يفكر ثم التفت إلى رفيقيه وقال:

ـ «الليلة من المؤكد سيحدث أمر ما، أما المكان فهو قصر الإمارة فلننتظر حتى العشاء وسنذهب لناحية القصر ونستطلع».

وبعد العشاء خرجوا إلى بستان قرب القصر واختبأوا بين أشجاره وأخذوا يستطلعون ما يجري في الطريق المؤدي إلى باب القصر. . ولم يطل بهم المقام حتى (أتى خمسة أشخاص، ولما قربوا منهم عرفوهم فهمس هاني بأسمائهم: «شبث بن ربعي، عمرو بن الحجاج، يزيد بن رويم، عروة بن قيس، ومحمد بن عمير التميمي»). فنظر الرفاق إلى بعضهم وقد فهم كل منهم المقصود.

وما إن دخل المذكورون حتى خرج من باب القصر أشخاص عرفوهم على الفور فأخذ سعيد يتمتم بأسمائهم («محمد بن الأشعث، وشمر بن الجوشن، يزيد بن ركاب الكلبي، الحصين بن نمير السكوني المازني، ونصر بن كعب بن طلحة، عبدالله بن مسلم وأسماء بن خارجة». ومعهم مباشرة خرج عبيد يحملون أكياساً ثقيلة).

وطلب سعيد من الرفاق الانسحاب، فانسحبوا متسترين، وقال سعيد بعد أن بعدوا عن القصر:

ـ «كنت عرفت من أحدهم أن عبيدالله أتى بأموال هائلة من البصرة كما أتته من الشام حتى أن خزنتي الشام والبصرة لم يعد فيها درهم». وسكت لحظة وقال:

ـ «تطورت القضية. . وها قد ارتشت الدفعة الخارجة، والدفعة الداخلة من المؤكد سترتشي بأكثر من الخارجة، فالداخلون خونة لنا والخارجون مؤيدون لهم. . وعلينا أن نذهب فوراً لنخطر الأصحاب والمختار أقربهم إلينا».

ونفذوا ذلك. . فذهبوا يقرعون عليه الباب، وفتح لهم، فدخلوا وطلبوا من الخادم إيقاظ المختار. . ولما قابلهم أخبروه بكل شيء فشكرهم وأثنى

عليهم وقال:

ـ «نعم ما فعلتم وسأرسل فوراً من يخطر جميع الأصحاب للاجتماع في بيت هاني مع مسلم لنرى ما يقرر».

وتم ذلك بسرعة والتأم الجمع في بيت هاني بن عروة وكانوا لا يتجاوزون العشرين رئيساً، فوقف مسلم بن عقيل وخطب فيهم لجمع الكلمة ثم أبدى رأيه بالمبادرة إلى الثورة فوراً.. فقال هاني بن عروة:

ـ («أرى أن نتمهل بالأمر ويدنا لم تزل هي العليا»).

ثم التفت إلى مسلم بن عوسجة قائلاً:

ـ («كم عدد الذين بايعوا حتى الآن؟»).

فقال مسلم بن عوسجة:

ـ («خمس وعشرون ألفاً»).

فقال هاني:

ـ («لو اجتمعوا كلهم لكان ذلك في محله، ولكن لن يجتمع أكثر من خمسة آلاف.. وخاصة بعد أن خان العهد شبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج ويزيد بن رويم وعروة بن قيس ومحمد بن عمير. ثم فالسلاح لم يكتمل والمال ينقصنا فمجيء عبيدالله كان مفاجأة»).

ووافق الجميع على التأخير إلا مسلم بن عقيل فقد رأى المبادرة للثورة فوراً، غير أنهم رأوا غير ذلك فغلبوه على رأيه إلا سعيد ونافع وهاني السبيعي فلم يتكلموا بشيء وبقوا يستمعون فقط. ولكن سعيداً لما رأى أن مسلماً يشدد على المبادرة مهما كلف الأمر وقف وقال:

ـ «اعلم أن وحدة كلمتنا يجب أن تكون خارج نطاق أي بحث، ومع أنكم وافقتم على عدم البدء بالعمل الإيجابي ورغم أني معكم على ما سيكون إلا أني أرى رأي أبي عبدالرحمٰن (كنية مسلم)». ثم جلس.

وعـاد الجميع يتشـاورون بالـرأي بعد قـول سعيد إلا أنهم عـادوا وقرروا عدم البدء بالثورة وانفضَّ الجمع على هذا الاتفاق.

* * *

ولما اختلى سعيد برفيقيه قال:

ـ «يجب أن نعلم ما يفعل ابن زياد الآن».

فقال هاني بعد تفكير طويل:

ـ «اسمعـوا . . أعرف أحـد العرفـاء (العريف رئيس فـرقـة) وهـو قـريب لي . . وقد سمعت أن ابن زياد استدعاهم إليـه وأنتم تعرفون أن كل مجمـوعة من كل قبيلة وعشيرة عليها عريف يكون الصلة بينها وبين الـوالي، فاعتقـد أن ابن زياد قال لهم شيئاً».

فقال سعيد:

ـ «سر على بركات الله ونحن ننتظرك في منزلي».

وسار هاني حتى بلغ بيت الرجل ودخله وسلم عليه وقال:

ـ «يا همام (اسم العريف) أنت تعرف صداقتي لك وقرابتنا. . فسـأطلب منك أمراً».

فقال الرجل مرحباً:

ـ «أهلاً ومرحباً».

فقال هاني:

ـ «أحك لي ما جرى بينكم وبين ابن زياد».

فزفر الرجل زفرة طويلة وقال:

ـ «يـا هـاني قـد تتهمني بينـك وبين نفسـك من أني أوالي هؤلاء القـوم (يقصـد يزيـد وعبيدالله) ولكن اللقمـة لعيالي تجعلني مـطأطأ الـرأس أمامهم، وأنت تعلم قلة ذات يـدي وهناك العشـرات مثلي فمن أين نأكـل إن لم نسمع

ونطيع وننفذ؟».

فقال هاني :

ـ «لست أدينك ولكن أريد أن أعلم ما جرى فقط».

فقال الرجل :

ـ («جمعنا وكنا كثيرين وقال لنا اكتبوا لي الغرباء عن الكوفة كلهم ثم طلب أن نجيء بكل من طلبه يزيد حتى الخوارج وشرح ذلك بقوله : (يجاء بهم ثم نرى رأينا ومن يجيء بهم فهو بريء ومن لم يكتب أو يجيء بهم فقد برئت منه الذمة وحل لنا دمه وماله وكل عريف لا يفعل هذا يصلب على باب داره وتلغى أجرة عرافته). هذا قول ابن زياد ومن أين آكل أنا وعيالي ولذلك أنا وغيري مجبرون على تنفيذ طلبه ولو كان عدوه أخي لسلمته إياه. يا هاني إن الأمر رهيب مخيف وخاصة معه جلاوزته من البصرة لا يعرفون الله ولا الرحمة ولا الشرف. . شيء واحد يعرفونه هو الصلب والقتل».

فقال هاني :

ـ «هل تعرف شيئاً عن الأموال التي أتى بها ابن زياد؟».

فقال الرجل :

ـ «المال. . كثير. . كثير بدرجة مذهلة يوزعها ابن زياد على الأشراف والرؤساء والناس عامة وكيف لا يكثر المال وخزينة الشام نفدت ولم يبق بها شيء وخزينة البصرة كذلك وخزينة الكوفة وكلها أصبحت بين يدي ابن زياد يشتري بها الضمائر ويرشو بها الناس».

فشكره هاني وعاد للرفاق وأخبرهم بذلك فعرف الجميع أن مسلماً بن عقيل أصبح مطلوباً من عبيدالله بن زياد، لذلك أخذ المؤيدون يتسترون عند المجيء إلى مسلم في دار هاني كما تواصوا بالسر والكتمان. وبذلك خفي الأمر على عبيد الله بن زياد مما أغضبه ذلك كثيراً، فكل شدته وترتيباته لم تفعل شيئاً ولم يستطع أن يأخذ أحداً من الناس بتهمة ولو بالشبهة.

أما الأصحاب والرفاق فكانوا يجتمعون بسرية تامة كما كانوا ينفذون أمورهم بنفس السرية؛ وكما أن ابن زياد لا يعرف شيئاً عنهم أصبحوا لا يعرفون شيئاً عنه فقال أحدهم يوماً وهم مجتمعون:

ـ «يجب أن نعرف ما يجري عند ابن زياد».

ووافق كثيرون على ذلك. فانبرى نافع قائلاً:

ـ «أنا أذهب وكل من بالقصر لا يعرفني لأنهم من البصرة ثم لأن أهل الكوفة لا يعرفونني لأنني من جوارها ولست منها».

فوافقوا ودعوا له بالتوفيق وخرج يرافقه سعيد وهاني إلى منزل سعيد. وهناك جلس نافع يفكر بطريقة يدخل بها القصر ولم يمض وقت طويل حتى هتف:

ـ «فرجت».

فقال سعيد:

ـ «وكيف؟».

فقال: «انتظروني». وغاب وقتاً طويلاً ثم عاد وهو يلبس لباس أحد الفلاحين ووقف أمامهم يحمل قفة كبيرة مليئة بالبيض ونظروا إليه بتعجب فضحك وقال:

ـ «الآن أنا قروي ومن عادته كل مدة أن يأتي ببيض إلى القصر وحيث أن كل من فيه غرباء ولا يعرفون شيئاً عن عاداته فستنطلي الحيلة عليهمْ».

فنظرا إلى بعضهما متعجبين وإذا بأم نافع تدخل، وما إن رأته حتى ضحكت، وسألته لم فعل بنفسه هكذا؟ فقال لها بجد:

ـ «أماه أنا بمهمة». فسكتت باسمة ودعت له بالتوفيق وانتظروا إلى صباح اليوم التالي، واستيقظوا باكراً جدا، وتهيأ نافع وحمل القفة، وقبل شروق الشمس خرجوا، ولما قربوا من القصر تقدم نافع بينما اختبأ سعيد

وهـاني بين الأشجار يـراقبانـه عن بعد وهـو يتقـدم من بـاب القصـر، ثم رأيـا الحراس يعترضونه وهو يكلمهم، وبعد لحظات فتحوا له الطريق ودخل. .

وتبادل سعيد وهاني النظرات وقال سعيد:

ـ «اللهم احمه. . هيا لنرجع» ورجعا.

داخـل القصــر

. . . ودخل نافع القصر، وسار تواً إلى المطبخ فدخل بجرأة وهو يتـذمر من الزمن المتعب والدهر الخؤون. . فسمعه رئيس الخدم، فتقدم منه وقال:

ـ «من أنت أيها الشاب؟».

فقال نافع:

ـ «مظلوم. . متعوب من يوم ولد. . خذ البيض وهات ثمنه».

فنقده رئيس الخدم الثمن. . فتطلع نافع إليه مشمئزاً وقال:

ـ «كل مدة نعيش على هذا. . حفنة بسيطة من الدراهم لا تكفي لشـراء الخبز. .». ثم تطلع للرجل وقال مكملاً:

ـ «ألا أجد عندك عملاً؟».

فنظر إليه رئيس الخدم وقد رق قلبه له وقال:

ـ «ما اسمك؟».

فقال نافع:

ـ «سليم».

فقال الرجل:

ـ «ولكن يجب أن تعمل بإخلاص».

فقال نافع:

ـ «إخلاص. أنت منقذ.. أنقذتني من كل حياة القرية البائسة الشقية».

فضحك الرجل وأمر أحد الخدم أن يلبس نافعاً لباسهم، ويضمه لرفاقه وانصرف، فحدجه نافع وهو يهمس:

ـ «أنا خادم؟ ومن؟ عبيدالله بن زياد ذلك الكلب».

فنظر إليه الخادم وقال:

ـ «ما تقول؟».

فقال نافع:

ـ «أقول؟ إنك لا تفهم بسرعة.. نفذ فوراً ما قاله رئيسك».

وهكذا دخل نافع القصر، وأصبح أحد سكانه.. وفتح عينيه وأذنيه.. وبحكم عمله الجديد ولباسه الجديد، أخذ يتجول بالقصر ويعمل بنشاط.

وراقبه رئيس الخدم، فوجده نشيطاً ذكياً

فوكل إليه خدمة عبيدالله بن زياد وضيوفه.

وفي المساء دعاه رئيس الخدم ليقوم بخدمة عبيدالله وضيوفه وزواره.. ووافق فرحاً..

وما إن سجى الليل حتى أخذ يفد ضيوف كثيرون وكلهم من رؤساء ومشايخ عشائر الكوفة وجوارها أتوا مهنئين.

وأتى خادم إلى نافع وطلب إليه أن يقابل رئيس الخدم بإحدى غرف القصر، فنفذ ودخل، فإذا بها قد أعدت للخمور والمآكل والفواكه، فوقف برهة بينما كان رئيس الخدم يعد الكؤوس ويملأها.. ونظر إليه الرجل من طرف عينه وقال:

ـ «سليم. . ما بك؟» ثم تبسم وتابع قائلاً:

ـ «من المؤكد أنكم خارج القصر تحيطون الولاة بهالة من التقديس».

وضحك ساخراً وقال:

ـ «تقدم يا بني وخذ هذه الخمور للأمير وزواره وابق في خدمتهم».

فقال نافع بعزم:

ـ «لن أحمل خموراً لأي كان من الناس. . أرسلني بغيرها».

فنظر الرجل إليه معجباً وأحنى رأسه بالموافقة وقال:

ـ «إذاً خذ الفواكه وسأرسلها مع غيرك».

فحمل نافع الفواكه ومشى إلى حيث كان عبيدالله. . ولكنه توقف بالطريق لحظة وتبسم، فقد خطرت برأسه فكرة: ما يمنعه أن يضع لعبيدالله ولجميع من عنده سماً في شرابهم أو طعامهم وينتهي الأمر من هذه الفئة؟ ولكنه عاد وعبس مفكراً: هل يرضى مولاي الحسين بهذا. . بالطبع لا. . لأنه غدر ونحن قوم لا نغدر. . فعاد ومشى مكملاً طريقه هامساً مردداً:

ـ «نحن قوم لا نعرف الغدر ولا نحبه».

ودخل قاعة كبيرة مضاءة بالأنوار ويظهر بها الغنى الفاحش، وتغص بالرؤساء وشيوخ القبائل، وكانوا كما رآهم نافع قسمان: فاسقون وخونة، ومن الفاسقين عرف كثيرين مثل: يزيد بن ركاب الرياحي الكلبي، والحصين بن نمير السكوني، والمازني، ونصر وكعب بن طلحة، ومحمد بن الأشعث، وعبدالله بن مسلم، وأسماء بن خارجة، وغيرهم ممن لم يكن رآهم، منهم واحد رآه مرة واحدة وهو شخص أبرص بشع الخلقة، عرف أنه شمر بن الجوشن.

ثم عرف من الخونة الذين بايعوا للحسين ومسلم بن عقيل وعاهدوه على نصره وخانوا: يزيد بن رويم، وعروة بن قيس، ومحمد بن عمير

التميمي، وشبث بن ربعي، وحجار بن أبجر، وعمرو بن الحجاج.

ويدخول نافع لم يلتفت إليه أحد.. وكان عبيدالله يقول متوجهاً نحو الخونة:

ـ «أحسنتم بتمثيل أدواركم وباستدعاء الحسين إلى هنا.. إلى الكوفة».

فقال عمرو بن الحجاج ضاحكاً:

ـ («أرسل إليه كل أهل الكوفة آلاف الرسائل، والجميل أنه لم يستجب إلا لنا»).

فقهقه الجميع بالضحك بينما كان نافع يقوم بعمله.. وإذا بعبيد الله يقول:

ـ «الكذاب ابن الكذاب يريد أن يسلبنا ملكنا؟....»

فنظر إليه نافع بحقد وبدا كأنه سيهم بأن يهجم عليه.

فنظر إليه الذي اسمه يزيد بن رويم وكان قريباً منه وقال:

ـ «أنت.. ما بك». ثم تأمله وقال:

ـ «كأني رأيتك».

فتطلع إليه نافع وقال وقد تمالك نفسه:

ـ «اسمي سليم وأنا لست من الكوفة».

فمط الرجل بشفتيه بلا مبالاة..

وهمس نافع:

ـ «سامحني يا مولاي.. فليقولوا الذي يريدون.. فإن لم يكن الحساب اليوم فغداً»

بينما كان عبيد الله يكمل:

ـ «يريد أن يسلبنا ملكنا؟ فنحن لم نصدق آذاننا بخلافة يزيد أمير

المؤمنين، حتى يأتي هذا الكذاب، ويفرض علينا هذا حرام وهذا حلال.. هذا يجوز وهذا لا يجوز.. وهذا يكون وهذا لا يكون، وهذا من الله وهذا من الناس يسير بنا على خطوات أبيه ليسلبنا النعمة.. والأنكى من ذلك ليساوي بيننا وبين عامة الناس والعبيد.. لا فرق بين أسود أو أبيض إلا بالتقوى. وأية تقوى هذه؟ وكما قال أبوه: ما رأيت نعمة موفورة إلا وفي جانبها حق مضيع.. أنا لا أفهم الحق إلا بهذا». وأشار إلى سيفه وقال:

ـ «الويل لبني هاشم.. فرضوا علينا النبوة ويريدون أن يفرضوا أنفسهم ومبادءهم؟ فسنرى ويرون».

وكان الشراب والخمور قد قدمت فأخذوا يتناولونها، وتابع ابن زياد قائلاً:

ـ («أين هو اليوم مسلم بن عقيل؟»).

فقال شبث بن ربعي:

ـ («إنه عند هاني بن عروة»).

فقال ابن زياد وهو ينظر إليهم والكأس بيده:

ـ («بعد أيام سترون ما يسركم.. الآن.. اسمعوا.. سموا لي من يؤيد ابن عقيل»).

فقام أحدهم وأخذ بالعد مبتدئاً بقوله:

ـ («سليمان بن صرد الخزاعي....»).

فقال ابن زياد وهو يسكته:

ـ («هذا لن نستطيع الإمساك به فهو صحابي أدرك محمداً وليس من مصلحتنا أن نمسه لأننا سنحتاج الناس قريباً»).

فأكمل الرجل:

ـ «المسيب بن نجبة.. حبيب بن مظاهر وهاني بن عروة.. و..».

وأخذ يعد حتى وصل إلى اسم المختار بن عبيدة الثقفي فصرخ ابن زياد مغضباً:

ـ «هذا أشدهم تشيعاً لآل محمد. . أما الباقون فستتدبر أمرهم. . كلهم سنتدبر أمرهم. . أما اليوم فهناك ما سأفعله».

فقال أحدهم:

ـ «الخطير بالأمر أن كل هؤلاء رؤساء وعشائرهم قوية ثم وفوق ذلك هم أبطال العراق، أخص بالذكر منهم حبيب بن مظاهر فإنه أحد أعوان علي بن أبي طالب المقربين وأحد أبطال صفين، وكذلك مسلم بن عوسجة وهو بطل معارك أذربيجان وأبو تمامة الصائدي. . . »

فقاطعه ابن زياد مغضباً وقال:

ـ «ولو كانوا أبطال بدر وحنين وأحد. . فأنا ابن زياد وسترون».

وكان نافع كل الوقت يعمل ويسمع حتى إذا انتهت السهرة قام القوم وتقدموا إلى الباب وأخذوا يخرجون. .

* * *

وبقي ابن زياد وحيداً، وإذا بالحرس يدخلون ويقفون على الأبواب، وظن نافع بادىء الأمر أنهم يقصدونه، فتصنع اللامبالاة، ولكنه بعد لحظات أدرك أن هذه عادة ابن زياد لا ينام إلا والحرس قربه خوفاً من المؤيدين. وأخذ نافع يكمل عمله بجمع ما تبقى. والتفت خلسة لابن زياد فإذا به في مكانه وهو يفكر ثم إذا به يهتف بنافع:

ـ «أنت تعال إلي».

فترك نافع عمله وتقدم بجرأة ووقف أمامه فقال ابن زياد:

ـ «اذهب وآتني بمعقل».

فخرج نافع لرئيس الخدم ينقل له رغبة ابن زياد. . فغاب الرجل قليلاً

ثم أتى برجل ضئيل الجسم، وأبرز ما فيه لحيته الخفيفة التي يكاد المرء بنظرة واحدة يعد شعيراتها.

فقال رئيس الخدم لنافع:

ـ «رافق معقل إلى الأمير».

فرافقه.. ولما وصلا أجلسه ابن زياد قربه بينما أخذ نافع يكمل عمله، فقال ابن زياد:

ـ («غداً اذهب إلى بيت المال، وخذ ما بدا لك منه واذهب واجلس في المسجد الأعظم، حيث يكثر شيعة أبي تراب وعندما تتعرف على أحدهم، قل له أنك من الشام وأنك محب لأهل البيت ومعك مال لهم، وقد سمعت بمؤيديهم هنا وأنك يجب أن تقابلهم لتعطيهم المال، وعندما تدخل بينهم تطلعني على كل كبيرة وصغيرة»).

فهمس نافع لنفسه:

ـ «الآن كانت مهمتي لها خطورتها».

ووقف معقل مستأذناً وخرج.. وكان نافع قد أنهى عمله فخرج أيضاً.

وجلس في غرفته مفكراً.. إذاً فمعقل هذا سيكون عيناً لابن زياد بين المؤيدين، وهذا ما سيجعل كل أمورهم معلومة لديه ومعنى هذا، أن الكل أصبحوا مطلوبين. فوقف وقد صمم على الخروج من القصر، وكان الفجر بدأ يرسل ضياءه، فارتفع معه أذان الصبح يأتي من البعيد. وما إن هم بالخروج حتى سمع جلبة وخشخشة سلاح وخطوات جنود فرجع وأطل من شرفة فرأى بعض المؤيدين مقيدين وحولهم الجنود وبأيديهم السيوف والحراب.. ودخلوا كلهم إلى القاعة التي يجلس في صدرها عبيدالله بن زياد.. والتفت نافع حوله، فإذا الحراسة مشددة، فعرف أنه لا يستطيع الخروج فعاد مهموماً حزيناً.

ولكنه بعد لحظات شعر بدافع لأن يعرف شيئاً عن المؤيدين المعتقلين

فذهب واختبأ خلف إحدى الستائر. .

وكان ابن زياد ينثر غضبه عليهم ويشتمهم فأخذ نافع يرتجف غضباً وراء الستار. . وزاد ابن زياد بالشتم، وكأنه كان يستفزهم ليجيبوه فيقتلهم ويدعي أنهم اعتدوا على أنفسهم، (ولما لم يجبه أحد زاد في الشتيمة حتى وصل لعلي بن أبي طالب والحسين. .) وعند ذلك خرج نافع من وراء الستار وواجه ابن زياد والجميع صارخاً:

- يا بن مرجانة. . أنت وأبوك وأمك أحق بالشتم».

فالتفت إليه الجميع. . وفرح المؤيدون به بينما وقف ابن زياد وهو يكاد ينشق غيظاً، صارخاً بالحراس:

- «أمسكوه».

فهجم الحراس على نافع. . فقفز إلى شرفة عالية ووقف عليها ووجه كلامه إلى ابن زياد قائلاً:

- «أنت تشتم الأطهار يا شارب الخمر يا نجس يا فاسق؟»

ثم بصق. فصرخ ابن زياد:

- «آتوني به حياً أو ميتاً».

ولحق الحراس بنافع، ووجد أن المقاومة لا تجدي ويجب عليه أن يخطر المؤيدين والرفاق. . وسرعان ما نفذ فقفز من نافذة مرتفعة إلى إحدى الأشجار ومنها نزل إلى الحديقة وكان سورها عالياً، وجرب أن يقفز إليه ولكنه لم يستطع لارتفاعه. وكان الحرس في تلك الأثناء توزعوا هنا وهناك والبعض منهم رآه، فهجموا ناحيته فأخذ يعدو بخفة ورأسه يفكر بسرعة، ورأى شجرة عن بعد، قريبة قليلاً من سور القصر، فقفز إليها وتسلقها وتعلق بأحد أغصانها، ثم جذبه نحوه بقوة وأفلت من قدميه فدفعه الغصن نحو السور فطار قليلاً بالهواء ثم ارتطم بالسور ممسكاً بطرفه، ونظر تحته فإذا بأحد الحراسَ معتل جواده وهو يراقب منافذ الطرقات. وقفز مبعداً بين قدميه، واعتلى جواد

الحارس، وبضربة واحدة كان هذا يسقط أرضاً ونافع ينطلق به الجواد. ورآه الحراس الفرسان فلحقوا به وسدوا عليه الطرق المؤدية للكوفة، فاضطر لأن يأخذ طريقاً تؤدي لخارجها ولحق به البعض الآخر إلى مسافة بعيدة، ولكنه فجأة غاب عن أنظارهم بين البساتين، ففتشوا عنه ولما لم يجدوه رجعوا. . بينما أكمل هو طريقه. وظهرت أمامه عن بعد قرية تذكر أن للمختار بها أملاكاً، ورجح أن يكون فيها لأنه كان يتردد إليها دوماً.

ولما وصل القرية، سأل رجلاً عن المختار، فأجابه أنه في منزله ودله عليه فذهب إليه. . واستقبله المختار مرحباً، وأخبره بكل ما جرى. ورغب إليه المختار أن يبقى في منزله لأنه أصبح مشبوهاً، وهو سيرسل من ينذر المؤيدين وأن الثورة ستشب في موعدها.

* * *

وبنفس الوقت كان معقل قد وصل إلى المسجد الأعظم، وأقام فيه يراقب الناس، وهم يأتون للصلاة، فتقدم من أحدهم وقال:

- («أنا رجل من الشام، ومن محبي أهل البيت، وعلمت أن مسلماً بن عقيل يأخذ البيعة للحسين ومعي مبلغ كبير من المال أريد أن أدفعه له، فمن وكيله؟!»).

وكان الرجل حذراً فلم يقل له شيئاً. . فبكى معقل وأخذ يحلف له الأيمان أنه كذلك، فعاد وصدقه وقاده إلى مسلم بن عوسجة وعنده بعض المؤيدين، واستقبله مسلم بحذر أيضاً إلا أن معقلاً بكى بشدة بين يديه، وحلف له الأيمان إلى أن قال:

- («ومعي مبلغ كبير من المال أريد أن أؤيدكم به وهو أكبر برهان على صدقي»). واستأذن لوقت قصير وعاد يحمل كيساً كبيراً مليئاً بالمال. . فصدق مسلم قوله والحاضرون، وشكروه أجزل الشكر، ومدحوه أجمل المديح.

(وهكذا. . وبوقت قصير عرف معقل كل شيء عن المؤيدين للحسين.

فعرف أسماء رؤساء الحركة وقادتها. ثم عرف مراكز تجمعاتها، ونقل ذلك إلى عبيدالله بن زياد. فتبسم هذا بمكر، وقام من فوره ليجتمع بأنصاره ويوجههم ويخطط لهم الخطط لمجابهة الثورة).

وأدرك ابن زياد أن الشدة لن تنفعه مع المؤيدين، فلجأ للخداع والاحتيال والغدر أولاً، فأرسل بطلب هاني بن عروة وأنه يعتب عليه من أنه يحبه كثيراً ولا يراه أتى له مهنئاً بمنصبه الجديد، كما فعل أكثر الرؤساء، فاعتذر هاني من أنه مريض. فعاد ابن زياد وطلب من بعض الوجهاء أن يأتوا بهاني مكرماً، ويعدوه، ويمنوه بالخير، ومن أن الأمير يكن له كل الحب والصداقة. وارتاب هاني، ولكنه أطاع ليبعد عن نفسه الشبهة، وحتى لا يتهمه بالخوف فذهب إلى القصر، ووصل.. وما إن دخل حتى استقبله ابن زياد بالترحيب والتكريم، مما تعجب له الحاضرون وهاني نفسه.. ولكن عجبهم تبدد عندما انقلب فجأة ابن زياد إلى طباعه الأصيلة وقال بلؤم:

- («إيه يا هاني؟ ما هذه الأمور التي تتربص بدارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك وجمعت له الجموع والسلاح، وظننت أن ذلك يخفى علي؟»).

فتمالك هاني نفسه وقال برباطة جأش:

- («ما فعلت ذلك، وما مسلم عندي»).

فقال ابن زياد باسماً بخبث:

- («بلى قد فعلت»).

فقال هاني بحدة:

- («لم يكن ذلك»).

فصفق ابن زياد وقال رافعاً صوته للحرس:

- («آتوني بمعقل»).

ولحظات دخل معقل.. فقال ابن زياد لهاني:

- («أتعرف هذا؟»).

فقال هاني وقد فهم ما يقصد:

- («إن شئت الآن، أعطيتك موثقاً تطمئن به ورهينة تكون في يدك، حتى انطلق وأخرج مسلماً من داري، فأخرج من ذمامه وجواره»).

فقال له ابن زياد بهدوء:

- («والله لا تفارقني أبداً حتى تأتيني به»).

فوقف هاني وقال بحدة:

- («لا أجيئك به أبداً.. أجيئُك بضيفي تقتله؟»).

فقال ابن زياد بنفس الهدوء:

- («بلى.. ستجيئوني به»).

فقال هاني وهو يحدق به بأنفة:

- («والله لا آتيك به ولو كان تحت يدي طفل من آل محمد ما رفعتها عنه»).

فنظر ابن زياد إليه بحقد يكاد ينطق من كل جوارحه.. فتقدم رجل من أصحابه وقال:

- («أصلح الله الأمير.. خلني وإياه حتى أكلمه»).

فانتحى ابن زياد ناحيةً وهو يرتجف غضباً..

فقال الرجل لهاني هامساً:

- («أنشدك الله.. أن لا تقتل نفسك.. إن هذا الرجل ابن عم القوم وليسوا قاتليه أو ضائريه فادفعه إليهم فإنه ليس عليك عار في ذلك وإنما تدفع إلى السلطان»).

فقال هاني محتداً رافعاً صوته بإباء:

- ((والله إن علي الخزي والعار، أن أدفع جاري وضيفي وأنا أسمع وأرى، شديد الساعدين كثير الأعوان. . والله لو لم أكن إلا واحداً وليس لي ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه)).

فسمع ابن زياد ذلك فتقدم ووقف أمام كرسيه وتناول قضيباً من الخيزران وصرخ بالحراس:

- ((أدنوه مني)).

فهجم الحراس على هاني وأمسكوا به بشدة وأدنوه منه.

وحدق به ابن زياد وقال وصوته يرتجف من الغضب:

- ((والله لتأتيني به، أو لأضربن عنقك)).

فقال هاني مهدداً:

- ((إذاً لتبرق السيوف حول دارك)).

فقال ابن زياد صارخاً بحقد:

((والهفاه عليك، أبالسيوف تخوفني؟)).

(ثم تقدم، وأخذ يضرب بالقضيب وجه هاني والحرس يمسكون به بعنف، وبقي يضربه حتى كسر أنفه وسالت الدماء على وجهه ولحيته وثيابه ونثر لحم جبينه وخده. وبقي ابن زياد يضربه حتى تكسر القضيب).

(وهال ذلك هاني، فقاوم الحرس رغم كبره، فأفلت منهم، ومد يده لقبضة سيف شرطي وأراد أخذه ولكن الحرس تكاثروا عليه ومنعوه من ذلك، وعادوا وأمسكوا به. . فصرخ ابن زياد وهو يلهث:

- «أحروري؟ (يعني من الخوارج) قد حل دمك. . جروه»)

ونفذ الحرس الأمر فوراً. فأخذوه ورموه رمياً بسجن مظلم هو عبارة عن دهليز أسود تحت الأرض مقسم إلى أقبية تعج بالسجناء. .

ورأى ذلك الأشخاص الذين أتوا بهاني، وكانوا لا يعلمون أن ابن زياد

سيغدر به فوقف أحدهم مغضباً وصرخ به قائلاً:

- («أمرتنا بأن نجيئك بالرجل ثم غدرت به. ثم هشمت أنفه وتزعم أنك ستقتله؟ ما ذلك فعل أحرار»).

فحدق به ابن زياد متمعناً بغضب شديد ولؤم فظيع وقال:

- («وأنت أيضاً؟»). وأمر الحرس بضربه.. فأمسكوا به وأخذوا يضربونه ضرباً مبرحاً. ثم أمرهم بأخذه إلى السجن فجروه جراً ورموه فيه).

أما الباقون من الحاضرين، ممن كانوا رأوا كل ذلك فهم ككل زمان ومكان عبر عنهم نذل مثل محمد بن الأشعث الذي وقف وقال:

- («قد رضينا بما رأى الأمير لنا كان أم علينا إنما الأمير مؤدب»).

الثـورة

وانتشر خبر هـاني بن عروة في كـل أنحاء الكـوفة، ووصـل بالـطبع إلى مسلم بن عقيـل والمختار ومسلم بن عـوسجة وحبيب بن مـظاهـر وأبـو تمـامـة الصائدي وسعيد وهاني السبيعي ونافع وكل المؤيدين.

وعلى الفور لبس مسلم بن عقيل لباس الحرب وأمر مناديـه بنداء الثـورة وكان الشعار «يا منصور أمت».

ومن جهة أُخرى كان أمر ابن زياد قد صدر بإلقـاء القبض على من أدلى باسمائهم الخونة ومعقل. فألقي القبض على كثيرين وجلهم من القادة، أو من الذين لهم شأن، أو هم خطرون، ومع ذلـك ما أن انـطلق النداء: «يـا منصور أمت» حتى ارتجت الكوفة وخرج ممن كان بايع، (وكانوا بلغوا خمساً وعشرين ألفاً). وحمل كلٌ سلاحه واتجه إلى بيت هـاني بن عروة، حيث مسلم، وعـد المسؤولـون الملبين للنداء فـإذا هم خمسة آلاف رجـل فعين مسلم لهم القادة وهـم: عبـدالله بن عزيـز الكندي ومسلم بن عـوسجة الأسـدي وهـو وكيله وأبـا تمامة الصائدي وعباس بن جعدة الجدلي.

وعقد لعبدالله بن عزيز الكندي على الفور، وأمر أربعة آلاف من الرجالة

على طاعة قائدهم الذي أمره أن يسير إلى القصر لحصاره. . وبقي هو ينتظر ورود الرجال الملبين للنداء. . وأخذوا يردون شيئاً فشيئاً حتى ملأوا المكان. وأشرف مسلم عليهم. ووقف قربه سعيد وهاني اللذان ما إن سمعا نداء الثورة حتى أتيا مسرعين. وأخذ مسلم يعقد الألوية للقادة ويأمرهم بالمسير، معيناً لكل واحد مكانه. . فكان كل قائد يرفع رايته ويسير فيتبعه رجاله. . لينتشروا في الشوارع المهمة وحصارها.

ولما انتهى مسلم من إصدار أوامره التفت إلى سعيد وقال:

ـ «اذهب أنت وهاني لاستدعاء المختار وحبيب بن مظاهر واعلموا أن موعدنا قد تقدم عن وقته المحدد، وليأت كل منهما برجاله».

فخرجا من بين الناس، متجهين على جواديهما إلى بيت حبيب بن مظاهر، في ضاحية الكوفة، وكان طريقهما يؤدي إلى القصر. فرأيا المؤيدين قد أحكموا حصاره، والكل ينتظر مجيء مسلم حتى يبدأوا الهجوم. . فتركاهم وأخذا يقطعان الشوارع فإذا بها كلها مقطوعة محاصرة من قبل المؤيدين، وقد سدوا جميع المنافذ. . ففرحا بذلك. وبعد وقت طويل وصلا إلى بيت حبيب بن مظاهر فإذا به وكأنه على موعد فسألهما بلهفة عما جرى، فأخبره سعيد كل شيء، فقام لفوره ولبس سلاحه وودع وخرج طالباً إلى سعيد وهاني أن يكملا مهمتهما. . فتابعا السير متجهين إلى حيث المختار.

ووصلا. . وأخبراه بكل شيء. . وكم كانت دهشتهما عندما رأيا نافعاً، وكذلك نافع ما إن رآهما، حتى قفز إليهما وعانقهما فسألاه عما جرى له، فأخبرهما بكل ما مر معه كما أخبراه بكل ما كان. وأضاف سعيد بقوله:

ـ («وصل رسول المختار متأخراً إلى مسلم بن عوسجة، وكان معقل عرف ما أراد ابن زياد»).

أما المختار فقد تأهب بسرعة وجمع رجاله وركب الجميع خيولهم وفيهم سعيد وهاني ونافع وساروا متجهين إلى الكوفة.

* * *

ولنعد لعبيدالله بن زياد. . فعندما رأى أن القصر قد حوصر، ارتاع لذلك وجلس مرتبكاً مضطرباً على كرسيه في القاعة وقد اصفر لونه وبدا خائفاً، وأحاط به أعوانه من مؤيدي السلطان والخونة، وهم ساكتون واجمون وقد لفهم الخوف، وخاصة عندما كانت تعلو صيحات الجماهير بين الفينة والفينة صاخبة ثائرة. .

ونظر ابن زياد لمن حوله واحداً واحداً، وبدا كأنه يفكر. . ثم إذا به يقف وقد استقر رأيه على أمر. . (فطلب من الكثيرين أن يذهب كل منهم لأبناء عشيرته من الثائرين، وليأخذ معه من المال ما يشاء يعطهم ثم يُمَنِّهم أو يهددهم ويخوفهم). . وأخذ كلٌ من هؤلاء يخرج متسللاً من القصر وينخرط بين الجماهير التي من عشيرته وينفذ أمر ابن زياد فيهم وبدأ المال ينتشر بكثرة هنا وهناك، فأطاع على الفور كثيرون. . ولكن مع ذلك، كان الخطر ما زال محدقاً بالقصر. .

ومن جهة ثانية، تجند بعض الخونة، وجمعوا بعض الرجال وأخذوا يطوفون بعشائرهم ليجمعوا مؤيدين للسلطان، وجعلوا يتصدون للثوار بحركات سلمية، أو غير سلمية.

ومالت الشمس للغروب، والخوف والجزع والثورة تلف الكوفة، وابن زياد محاصر. . وهو تارة يجلس، وتارة يمشي بعصبية وقد بدا عليه الرعب. . . ولكن فجأة، توقف مفكراً. . ثم نادى عشرة من رجاله البصريين، فلبوا نداءه، فقال لهم:

- («خذوا ملابس لجنود أهل الشام، واذهبوا بسرعة لخارج الكوفة، وألبسوها هناك، ثم عجلوا على خيولكم ونادوا بالناس أن جيش أمير المؤمنين آتٍ من الشام، وهو على بعد فراسخ. . وهددوهم من أن كل من يُرى ليس على طاعة أمير المؤمنين، سيصلب ويهدم داره على أهله»).

(ونفذ الرجال العشرة الأمر. ولم يمض وقت طويل حتى رأى الناس جنوداً من أهل الشام، ينادون بينهم من أن جيش الشام، وهو جيش له أول،

وليس لـه آخر، آتٍ للكـوفة وسيقتـل كل من يخلع طـاعته، ويهـدم داره على أهله).

ونجحت خـدعـة ابن زيـاد، فكـانت مفـاجـأة صـاعقـة، ذهلت لهـا الكـوفة. . . ليتبـدل كل حمـاسهم وثـورتهم، إلى خـوف ورعب، فهم كـانـوا يعـرفون، مـا معنى دخول جيش الشـام إلى الكوفـة. . . معناه القتـل والصلب وتسميل العيون، وهتـك الأعراض، والنهب، والسلب، وذبـح الناس، وأخـذ البـريء بالمـذنب. . والضرب الأعمى. . وكـان أشد النـاس جزعـاً الأمهـات والأزواج، فقد خرج النساء جزعات خائفـات، وأخذت كـل واحدة تبحث عن زوجها، أو ابنها وتمسـك بيده بـاكية، أو متضـرعة. . أن يـرحم نفسه وعـائلته وتدخله بيته.

وفعلت حيلة ابن زيـاد فعلها السـريع. . فـإذا بالنـاس ينسحبـون أفـراداً وجماعات. . ويدخل كـل داره، ويغلق بابـه دونه، وهـو إما خـائف من جيش الشام، ومما يتوقع منه. . وإما مرتشٍ بالذهب والفضة. . .

ومع ذلك. . كان مسلم بن عقيل، يسير بأصحـابه الكثيـرين، يشدد من عزائمهم. . وحان موعد الصلاة، فدخل المسجد معلناً أن الهجوم يبدأ بعدهـا مباشرة. .

وبدأ الصلاة، وخلفه ثلاثـون رجلاً، والبـاقون بـالخارج. . ولكن مـا إن انتهى منهـا وتلفت حولـه، إذا به لا يـرى أحداً، فـاستغرب الأمـر، وخرج من المسجد، فأخذ يفتش هنا وهناك، فلم يجد إنساناً ماراً بالشـوارع. . فعرف أن ثـلاثة أشيـاء فعلت ذلك: أولهـا الخيانـة. . ثم الخـوف من جيش يـزيـد، ثم الاحتيال والرشوة.

وفجأة. . أصبح مسلم القائد، غريباً طـريداً. . يسيـر في أزقة الكـوفة، وليس له مأوى. . .

* * *

وقبل متابعة ما جرى لمسلم لنعد إلى الباقين. . فأما سعيد والرفاق فقد ساروا برفقة المختار، حتى دخلوا الكوفة بعد الغروب، وإذا بما كان، يواجههم. . فوجموا لذلك، وأدرك سعيد الأمر بسرعة، فهتف بهاني ونافع قائلاً:

ـ «لنذهب إلى مسلم بن عقيل».

وانشقوا عن المختار واتجهوا حيث مسلم ، فإذا بمؤيدي السلطان والخونة يسدون الطرقات، مما منعهم عن متابعة السير. . فسألوا أحد المارة عما يجري، فأفهمهم ما كان. . فنظر الثلاثة لبعضهم البعض بوجوم وألم، ثم هتف سعيد:

ـ «الحسين. . الحسين أصبح بخطر. . وهو قادم إلى الكوفة. . ولنذهب إلى منزلي ونستعد للرحيل».

ووجهوا خيولهم نحو بيت سعيد، ومروا بأزقة ضيقة متفادين الاصطدام بمؤيدي السلطان تارة، متخفين تارة أخرى. . حتى وصلوا. . .

* * *

ومع دخولهم إذا بجميلة تسرع نحو سعيد ورفيقيه، وأرادت أن تتكلم، فألجمها وجود هاني ونافع. . ولاحظا ذلك، فانسحبا إلى جهة ثانية من البيت، وأخذا يهيئان نفسيهما للرحيل. وقالت جميلة بلهفة:

ـ «سعيد؟. . سألت عنك مرات، ولما لم أجدك. . تشوش فكري عليك وجزعت، فالحمد لله أن ليس بك مكروه. . ».

فقال سعيد بلا مبالاة، وهو يتناول بعض الأشياء من هنا وهناك:

ـ «نحن كنا اتفقنا على أن لا شيء بيننا».

وكأن جميلة لم تسمع كلماته وهي تراقبه، وقد فهمت ما يفعل، فقالت:

- «أراك وكأنك سترحل» . .

فقال سعيد، وهو يكمل تهيئة أغراضه:

- «هذا ما سيكون . . »

فوقفت بوجهه تعترضه وقالت بلهفة:

- «سعيـد . . إلى أين؟ . . كنت اكتفيت من الدنيـا أن أراك وفقط، فإلى أين؟ . . » .

فوقف قبالتها، وقال:

- «أنت تعرفين إلى أين» .

فحدقت بوجهه بحقد ممزوج بالحنان، وقالت بحدة:

- «إلى الحسين . . الحسين . . الحسين . . كأنه ممزوج بدمك وكأنك لا تحيا إلا لأجله . . وأنا يا سعيد» .

ثم رققت لهجتها وأصبحت كالتوسل، قائلة:

- «أرجوك لا تتركني . . » .

فقال لها بهدوء، وقد تأثر من كلماتها:

- «لا تعترضي طريقي يا جميلة . . لن يؤخرني شيء . . » .

ولاحظت رقة كلماته فتابعت قولها، وفي نبرتها شيء من الفرح:

- «أنا متأكدة أنك تحبني . . لم تكذب على نفسك وعلي . . ابق هنا . . وأنت تعـرف أن لي دالـة على ابن زيـاد بسبب أبي وقتله في صفيـن مـع معاوية. فلن أدعه يمسك بسوء» .

فنظر إليها مستنكراً وقال:

- «أنت مخطئة . . فأنا لست بهارب أبداً» .

فاستدركت قائلة:

ـ «أنا لا أقصد ذلك، ولكن ابق ولا تقدم على هذا الرحيل. . ».

فقال متذمراً، ولكن برقة:

ـ «جميلة. . أخرتني يجب أن أذهب».

وما إن أتم كلامه، حتى كان نافع وهاني هيأا نفسيهما، وتقدما من سعيد يعلنان ذلك. . فأخذ يسرع بتهيئة أشيائه، ونظرت جميلة حولها بفزع، وقالت:

ـ «إذا كان لا بد من رحيلك، فخذني معك».

فنظر إليها مستنكراً، وقال:

ـ «مستحيل. . ذلك مستحيل».

فقالت بإصرار:

ـ «ولم؟ سأذهب حيث تذهب، أعيش معك وأموت معك».

فصرخ قائلاً:

ـ «مستحيل. . ثم لم يكن بيننا شيء، ليكون ذلك».

وكان قد انتهى تهيؤه، ولم يبق عليه إلا أن يتقلد سيفه فتناوله بين يديه، ونظر إليه نظرة صارمة ثم ربط حزامه حول خصره، فاندفعت جميلة نحوه متوسلة وهي تبكي، وقد نسيت وجود نافع وهاني، وقالت:

ـ «خذني معك. . لا أستطيع الحياة بدونك».

فنظر سعيد إليها نظرة طويلة لم يفهم إلا الله ونافع معناها وقال لها برقة تشبه الهمس:

ـ «جميلة. . قد يكون هذا آخر لقاء بيننا، فاستودعك الله. . ».

وكانت طريقة لفظه، فيها الشيء الذي تفتش عنه بسعيد وكأنها وجدته، فتمسكت به متوسلة، وهي تشرق بدموعها، قائلة:

ـ «أرجوك، خذني معك يا سعيد. . لا تتركني وحيدة».

فانسحب دون أن يلمسها، ولم يبد عليه أي تأثر. . فركعت أمامه متمسكة به، وهي ترجوه وتتوسل إليه إلا أنه انسحب منها بلطف، فارتمت على الأرض، منتحبة وهي تجهش بالبكاء. ومشى سعيد حتى وصل إلى الباب، فالتفت إلى الوراء بنظرة شاردة وقد تغيرت ملامحه، ثم تبعه نافع وهاني. . .

وبعد قليل، قال سعيد:

ـ «فلنودع أمك يا نافع».

وعرجا على ناحية أُخرى من البيت حيث أم نافع، فودعوها، وودعتهم دون أن يظهر عليها أي تأثر، اللهم إلا عندما ضمت نافعاً إلى صدرها، قالت بصوت متهدج:

ـ «محفوظون بالسلامة. . محفوظ بالسلامة يا نافع. . كلكم لكم دعائي».

وبعد لحظات خرج عامر من إحدى الغرف وهو يكفكف دموعه ثم تقدم من سعيد مودعاً، وعانقه عناقاً طويلاً وقبله ودعا له وقال:

ـ «لن أقول شيئاً فأنت تعرف ما تفعل، ولكن لك ولكم كلكم دعائي».

وخرجوا من البيت تحت جنح الظلام. .

* * *

أما جميلة فوقفت تنظر حولها بذهول وكأنها فاقدة وعيها ثم صرخت:

ـ «سعيد. . سعيد. . لن أدعك تذهب وحدك. . سأذهب معك إلى آخر الدنيا». ولكن سعيداً كان قد ذهب. . فخرجت من الدار وكأنها فاقدة الرشد ولا تعي ما تفعل.

وما إن وصلت إلى باب بيتها، حتى توقفت قليلاً، ثم قفلت راجعة تسير

مسـرعـة في الـدروب وفيّ الأزقـة وبين البيـوت، حتى وصلت إلى بيت معين فطرقت بابه ودخلت مسرعة.. وبلهفة سألت خادماً هناك:

ـ «أين سيدك؟».

فقال لها مرتبكاً:

ـ «إنـه في تلك الغرفـة».. وأشار لغـرفة معينـة.. فـانـدفعت إليهـا.. وقابلها مسلم بن عوسجة. وكان يهيىء أغراضه وكأنه يستعد للرحيل.. فقالت بسرعة واهتمام شديد:

ـ «أنت قـريبي يا مسلم.. وأنـا أريـد أن أذهب معـك حيث تـذهب.. اعتبرني رفيقة.. اعتبرني خادمة».

فتعجب الرجل من ذلك وقال:

ـ «يا جميلة.. ذلك مستحيل. ولكن لِمَ تريدين الذهاب معي؟».

فقالت وكأنها لا تعي ما تقول:

ـ «سأصارحـك بكل شيء.. أنت تعـرف علاقتي التي كـانت بسعيد.. وسعيد رحل الآن وأريد أن أكون معه، وأنت وحدك الذي يستطيع أن يأخـذني إليه».

فقال الرجل مستنكراً:

ـ «يـا جميلة ذلك غيـر ممكن، فنحن ذاهبون إلى حيث لا يعلم إلا الله ما هناك».

فقاطعته صارخة:

ـ «وهذا ما يجعلني أصر على الذهاب حيث يذهب سعيد».

ثم ركعت عند قدميه وقالت:

ـ «أتريد أن أقبل قدميك.. أرجوك.. خذني معك أرجوك».

وأجهشت بالبكاء.

فنظر إليها الرجل برقة وإشفاق وقال:

ـ «ولكن. . كيف سيحدث هذا والمسافة طويلة طويلة، ونحن نجهل ما سيكون؟».

فقالت متوسلة:

ـ «ليكن ما يكون. . خذني معك أرجوك بحق قرابتي منك».

فقال الرجل وهو يسلم بالأمر الواقع:

ـ «حسناً. . استعدي».

فوقفت وقالت وهي خارجة:

ـ «لن أغيب أكثر من لحظات». ووصلت إلى بيتها، وحزمت بعض أغراضها وحملتها، وذهبت إلى الزريبة وركبت جواداً، وانطلقت به إلى بيت مسلم الذي كان قد تهيأ، وقد اجتمع حوله زوجته وأولاده، وكانوا خمسة، وأكثرهم أطفال، فانحنى عليهم وقبلهم واحداً واحداً مودعاً، ثم اتجه إلى زوجته التي قابلت وداعه بصبر وجلد وقال لها:

ـ «أنتم وديعتي عند الله». ومد يديه وتناول يدي زوجته وضمهما إلى صدره وقال:

ـ «اعتني بالأولاد».

فرفعت يديه إلى شفتيها وقبلتهما، وعيناها تتلألآن من الدموع وقالت بهمس:

ـ «سأنفذ كل ما أمرتني به يا مسلم».

ثم قالت لجميلة:

ـ «أخبرني مسلم بما تفعلين. . فالله معكم».

وأدار مسلم ظهره وركب جواده وانطلق به وجميلة على جوادها قربه. . والجوادان يضربان الأرض بحوافريهما ضرباً عنيفاً. . خارجين من الكوفة. . إلى المجهول.

في سبيل الحسين

في سبيل الحسين

ولم يكن سعيد ونافع وهاني ومسلم وجميلة، هم الخارجون الوحيدون من الكوفة.. بل كان هناك آخرون، وكأنهم على موعد.. فحبيب بن مظاهر، الذي فوجىء بفشل الثورة وعاد من الطريق، كان بنفس الوقت يودع أهله وأولاده، ويهيىء نفسه للرحيل. حتى إذا تم له ذلك ركب فرسه وانطلق.

وكذلك أبو تمامة الصائدي أحد القادة الذين خذلهم الناس.. وآخرون غيرهم.. كلٌ استعد وحمل سلاحه وركب فرسه وانطلق لناحية معينة من هذه الدنيا هي طريق الحجاز.

وكلهم يجمعهم نداء واحد: الحسين بخطر.

كما كان هناك كثيرون غيرهم، ممن أوقعتهم الخيانة في السجون حيث القتل والصلب والتعذيب.. ومنهم من فر مختبئاً متخفياً، كما حصل لمسلم بن عقيل، الذي وصل به المطاف وهو طريد غريب مخذول الأعوان.

وصل إلى أحد البيوت، وقد استبد به التعب والعطش فتلفت حوله وطرق بابه.. فخرجت امرأة عجوز، فطلب منها شربة ماء.. فدخلت وجلبت له الماء، فأخذه شاكراً، وشربه، وعادت العجوز، فالتفت حوله مسلم فإذا

بالظلام يلف الدنيا، وقد ساد الليل الكوفة، وأصبحت الشوارع مقفرة موحشة. فجلس أمام الدار.

(وأحست المرأة بذلك، فرجعت إليه قائلة وهي بالطبع لا تعرفه:

-«يا عبدالله.. طلبت ماء وشربت، فما قعودك هنا؟ اذهب يرحمك الله». ودخلت. فبقي مسلم. فإلى أين يذهب وهو مطلوب، والليل ستر عنه الطريق والأصدقاء؟ فبقي جالساً فعادت المرأة لتقول بحدة:

- «ما يقعدك هنا؟ وأنا لا أحل لك الجلوس أمام داري. اذهب».

فقال لها مسلم برقة:

- «يا أمة الله.. أنا مسلم بن عقيل، وقد خانني الناس وأصبحت وحيداً غريباً».

وما إن سمعت المرأة باسم مسلم حتى ركعت أمامه مستغفرة خشونتها معه، إذ كانت من محبي أهل البيت، وطلبت منه أن يدخل دارها وهي تقول:

- «بأبي أنت وأمي.. سامحني يا سيدي على ما فعلت».

وأدخلته غرفة بعيدة في الدار، وهيأت له كل ما يريد وخرجت.

وبعد وقت قصير سمعت طرقاً على الباب، فقامت المرأة جزعة، وسمع مسلم، فاستل سيفه وتهيأ للدفاع. وفتحت المرأة الباب، وإذا بشاب يدخل قائلاً بفرح:

- «أماه.. فشلت ثورة مسلم بن عقيل وألقي القبض على كثيرين، منهم هاني بن عروة، وهذا سيقتل غداً، وكثيرون غيره، ثم المال أصبح كالتراب في أيدي الناس».

وما إن سمع ذلك مسلم، حتى هز برأسه متأسفاً متألماً، ولكنه شعر بالاطمئنان عندما عرف الطارق.

وكأن الأم لحبها لمسلم، كانت تريد الاطمئنان عليه، فكانت تدخل إليه

بين الفينة والفينة، وهي تخفي جهدها على ولدها. ولكن الشاب لاحظ ذلك، فسألها، فأنكرت، فشك. وطلب من أمه بعزم أن تخبره ما هناك. فطلبت منه أن يقسم يميناً معظماً، أن لا يبوح بالسر، فأقسم، فأخبرته أن مسلماً عندها بالبيت.. فطمأنها من أنه لن يفعل.

ولكن ما إن انتصف الليل حتى غافل أمه وخرج متلصصاً فرحاً وهو يهمس:

ـ «هناك جائزة كبرى وضعها ابن زياد لمن يرشد عن مسلم وسيغنيني ذلك.. ولوددت أن أقسم ألف قسم، ولا أبر بواحدة منها على أن أقبض الجائزة»).

* * *

(وذهب لأحد أصدقائه الشباب وكان ابن محمد بن الأشعث الذي قال: إنما الأمير مؤدب. وأخبره، وطلب منه أن يقول ذلك لأبيه، وهذا ينقله لابن زياد.

وتم ذلك على الفور.. وفرح ابن زياد بالخبر فرحاً عظيماً وصبر حتى الصباح، فاستدعى قائد الشرطة وأرسل معه عدداً كبيراً منهم، وطلب إليه أن يذهب حيث مسلم للقبض عليه.

وكان مسلم في تلك الأثناء يجلس في غرفته منتظراً فرصة تسنح له ليخرج ويتدبر أمره، وإذا به يسمع صليل السلاح ووقع حوافر الخيل. فوقف على الفور ولبس درعه وسلاحه وخرج من غرفته إلى باحة الدار. ووقفوا صفوفاً قبالته، ثم تحركوا، وكان معنى ذلك الهجوم.. واستل مسلم سيفه وبدأ بالدفاع عن نفسه وكرّ على القوم واشتد القتال.. سبعون ضد واحد.. وبدأ صراع مرير فالهجمات تتوالى تارة بالرماح وتارة بالسيوف.. ولكن مسلماً كان حذراً، ذكياً، وشجاعاً، فأخذ يضرب هنا وهناك فيجندل الفرسان ويقتل كل من يتقدم منه حتى سقط أكثر من أربعين قتيلاً وجريحاً).

(وكان مع الشرطة محمد بن الأشعث الذي نقل وشاية ابن المرأة التي أضافت مسلماً. . ومع كل نذالته فقد أعجب بمسلم وقتاله، فأشار إلى القوم أن يوقفوا القتال، فتوقف وابتعدوا عن مسلم قليلاً فإذا بساحة الدار مليئة بالقتلى والجرحى، ومسلم يقف قبالتهم وهو يلهث والسيف بيده يقطر دماً فقال محمد بن الأشعث:

ـ «لا تقتل نفسك يا مسلم، لك الأمان».

فعرف مسلم أنها خدعة، فنظر إليه مبتسماً بمرارة وقال:

ـ «لا أمان لكم».

وفي تلك الأثناء كان قائد المهاجمين قد أرسل بطلب نجدة من ابن زياد الذي استشاط غضباً وصرخ بالرسول:

ـ «ويحكم. . أأنتم نساء؟ واحد يفعل بكم هذا؟ سأرسل ما طلب قائدكم وإن لم تأتوني بمسلم حياً أو ميتاً فسيكون حسابكم جميعاً عسيراً».

ورافق الرسول فرقة كبيرة من الرجال، وأسرعوا فوصلوا، فإذا بالقتال دائر بين مسلم والبقية. . وما إن وصلت النجدة حتى باشر رجالها بالهجوم عليه، ولكن مسلماً كان لهم جميعاً بالمرصاد فأخذ يدافع عن نفسه دفاع المستميت. . وكثر القتلى والصرعى والجرحى من المهاجمين. . ورأوا أنه مستحيل عليهم أن يصلوا إليه فلجأوا إلى الحيلة. . فذهبت منهم فرقة وأضرمت النار بالقصب ورموها خلفه من على الأسطح فأصبح أمام مسلم السيوف والرماح، وخلفه النار، ولكن ذلك لم يفت بعضده، وعاد للقتال الشديد العنيف، واحتار المهاجمون بأمره، ولكن إذا بهم يتناولون الحجارة ويرمونه بها. وأسقط بيده فوقف ينظر إليهم باحتقار. . ثم إذا به يهجم عليهم هجوماً عنيفاً، ولكن الحجارة كانت تمنعه من اتمام هجماته للإصابات البالغة التي أصيب بها. ومع ذلك لم يستطيعوا الوصول إليه، فصرخ محمد بن الأشعث:

ـ «ارحم نفسك يا مسلم ولا تقتلها، فلك الأمان، وأنا وكلنا نضمنه لك».

ومع ذلك كانت الحجارة تفعل به فعلها الذريع، فأثخن بالجراح فتوقف عن القتال وقال:

ـ «أنا آمن؟».

فقال له الجميع:

ـ «أنت آمن».

ولكن البعض ولخوفهم منه، هجم عليه بعد الأمان وطعنه أحدهم بالرمح في خاصرته، وهجم آخر وضربه بالسيف على وجهه، فسالت الدماء للتو، وعجز عجزاً تاماً عن القتال. فنظر إليهم باشمئزاز واحتقار، بينما هجموا عليه وأمسكوا به وقادوه وأركبوه بغلة وساروا به إلى القصر.. إلى ابن زياد.

وفي الطريق دمعت عينا مسلم، فلحظ ذلك أحد القادة فقال له ساخراً:

ـ «إن من يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به ما نزل بك لا يبكي».

فقال مسلم:

ـ «والله ما لنفسي بكيت ولا لها من القتل، أرثي، ولكني أبكي لأهلي المقبلين إلي، أبكي الحسين وآل حسين، فأين أمانكم؟ هذا أول الغدر».

فقال محمد بن الأشعث:

ـ «أرجو أن لا يكون عليك بأس».

فقال مسلم:

ـ «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وصلوا إلى القصر ودخلوه ومسلم مكبل اليدين، وأوقفوه أمام ابن زياد، ولم يسلم مسلم، فقال له أحد الحراس:

ـ «ألا تسلم على الأمير».

فقال مسلم منتهراً: ـ

ـ «ويحك. . ما هو لي بأمير».

فقال ابن زياد بشماتة:

ـ «لا عليك سلمت أم لم تسلم فإنك مقتول».

فقال مسلم:

ـ «إن قتلتني فلقد قتل من هو شر منك من هو خير مني».

فقال ابن زياد بحقد:

ـ «قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد بالإسلام».

فقال مسلم باستهزاء واحتقار:

ـ «أما إنك أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن، وإنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة وخبث السريرة ولؤم الغلبة لأحد أولى بها منك».

فقال ابن زياد:

ـ «يا عاق يا شاق، خرجت على إمامك وشققت عصا المسلمين وألحقت الفتنة».

فقال مسلم بحدة:

ـ «كذبت، إنما شق عصا المسلمين معاوية وابنه يزيد وأما الفتنة فإنما ألحقها أنت وأبوك زياد بن عبيد عبد بني علاج، وأنا أرجو الله أن يرزقني الشهادة على يدي شر بريته».

فقال ابن زياد بتشف:

ـ «منتك نفسك أمراً حال الله دونه وجعله لأهله».

فقال مسلم بسخرية:

ـ «ومن أهله يا بن مرجانة. . إذا لم نكن نحن أهله؟».

فنظر إليه ابن زياد بحقد وقال بخبث:

ـ «أهله؟ أمير المؤمنين يزيد». ومد كلمة أمير.

فقال مسلم متنهداً:

ـ «الحمد لله على كل حال رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم».

فقال ابن زياد بشماتة:

ـ «أتظن أن لك في الأمر شيئاً؟».

فقال مسلم:

ـ «والله ما الظن ولكنه اليقين».

فسكت ابن زياد قليلاً ثم حدق به بحقد وكره وقال:

ـ «إيه يا بن عقيل. أتيت الناس وهم جميع، وأمرهم ملتئم، فشتت أمرهم بينهم وفرقت كلمتهم، وحملت بعضهم على بعض؟».

فقال مسلم:

ـ «لست لذلك أتيت، ولكنكم أظهرتم المنكر، ودفنتم المعروف، وتأمرتم على الناس بغير رضى منهم، وحملتموهم على غير ما أمركم الله به، وعملتم فيهم بأعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر فيهم بالمعروف وننهى عن المنكر، وندعوهم إلى حكم الكتاب والسنة». وسكت قليلاً، ثم أضاف بعزم:

ـ «وكنا أهل ذلك».

وكان الموجودون يصغون بصمت، وما إن سمعوا قول مسلم حتى علت همهمة فعلا ضجيج.. فنظر ابن زياد حوله بريبة ثم التفت إلى مسلم وقال صارخاً:

ـ «وما أنت وذاك يا فاسق.. لِمَ لم تفعل ذلك إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟».

فنظر إليه مسلم بغضب وقال:

- «أنا أشرب الخمر؟ أما والله إن الله ليعلم أنك تعلم أنك غير صادق، وإنه أحق بشرب الخمر مني وأولى بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً فيقتل النفس التي حرم الله قتلها ويسفك الدم الذي حرم الله على الغضب والعداوة وسوء الظن وهو يلهو ويلعب وكأنه لم يصنع شيئاً».

فاستشاط ابن زياد غضباً وسكت قليلاً وهو ينظر إلى مسلم بحقد رهيب ثم فتح فمه وأخذ يشتم مسلماً وعلياً والحسن والحسين.. فنظر إليه مسلم باشمئزاز واحتقار وقال له:

- «يا عدو الله.. أنت أحق بالشتيمة». ثم انتهره قائلاً:

- «فاقض ما أنت قاض».

فوقف ابن زياد غاضباً وهو يرتجف حقداً وصرخ:

- «أين الذي ضرب ابن عقيل بالسيف؟».

ولحظات.. دخل رجل.. فقال له ابن زياد بنفس اللهجة:

- «يا بكر بن حمران.. اصعد بهذا إلى أعلى القصر فاضرب عنقه واتبع جسده رأسه».

وعلى الفور تكاثر الحرس حول مسلم وساروا به إلى أعلى القصر، وهو يسير أمامهم مرفوع الرأس، مرفوع الصدر، يستغفر الله، ويسبح، ويكبر، ويصلي على رسول الله.. ولحظات ضربت عنقه ورمي برأسه من أعلى القصر، واتبع رأسه جسده.. وهو يتمتم:

- («اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وكذبونا وخذلونا»).

وبنفس الوقت كان ابن زياد يأمر بقتل هاني بن عروة المثل الأعلى لإجارة الضيف والناصر.. (فقتل هاني).

في السجن

ولنعد إلى سعيد ونافع وهاني.. فقد رأيناهم يتجهون إلى طريق الحجاز، يلفهم الليل وهم يسيرون في طرقات ضيقة، حيث لا يوجد جنود ابن زياد.. ولكن إذا بهم يسمعون جلبة، أخذت تعلو رويداً رويداً، فتراجعوا قليلاً، ليروا جنوداً كثيرين يتوقفون أمام بعض البيوت، ثم يندفعون إليها ويكسرون أبوابها بعنف ويدخلون، فتعلو صيحات نساء وأطفال ثم يخرجون ومعهم بعض المطلوبين مقيدين.. وراع ذلك نافعاً فامتشق حسامه وهمّ أن يهجم، فأمسك به سعيد، ونظر إليه مشيراً أن لا يفعل.. فتعجب نافع وأعاد سيفه إلى غمده، وهو ينظر متسائلاً إلى سعيد الذي أشار لرفيقيه أن يتراجعا، ولكن.. إذا بصوت يهتف بهم بنبرة شديدة:

ـ «قفوا.. من أنتم؟».

فنظر الرفاق إلى بعضهم.. ولم تمض لحظات إلا وجنود كثيرون تجمعوا على نداء الجندي، وأحاطوا بالثلاثة، وامتشق نافع سيفه، وامتشق الجنود سيوفهم، وتقدموا فتراجع الثلاثة نحو جدار أحد البيوت، ونافع ينظر إلى سعيد وهاني متعجباً ثم هتف:

ـ «ما بكما؟ أين سيفيكما؟».

وكان الجنود ضيقوا عليهم وطلب رئيسهم منهم الاستسلام، فأشار سعيد لنافع هامساً:

ـ «لا قتال».

وكاد نافع يجن ولكن الجنود وصلوا إليهم وإذا برئيسهم يتقدم متفرساً بهم ثم يهتف:

ـ «سعيد بن عبدالله الحنفي! .. أنت طلبة الأمير».

وسكت قليلاً ثم تابع قوله:

ـ «أنذال.. جبناء».

فنظر إليه سعيد بحقد، ولكنه لم يرد، فقال القائد وقد رأى نظرة سعيد:

ـ «يا أتباع الكذاب.. ومتى..».

وإذا بنافع يقفز إليه يريد خنقه، فتمسك به سعيد وأشار له أن لا قتال.. بينما تقدم بعض الجنود، وأخذوا سلاح الرفاق الذين استسلموا، ووضعوه في سرج خيولهم.. ولما رأى نافع أنه أسقط بأيديهم، صرخ بجيادهم قائلاً:

ـ «كامل.. إلى البيت».

وإذا بالجواد ينفر محمحماً، ويخترق الجنود، الذين فروا من طريقه، وأخذ يجري يتبعه جوادا سعيد وهاني.

* * *

وقاد الجنود الرفاق الثلاثة، إلى سجن مظلم تحت الأرض، مضاء ببعض المشاعل، وأدخلوهم غرفة سوداء شبه مظلمة، وشيعهم رئيس الجنود وهو يقفل راجعاً:

ـ «أنذال.. جبناء.. أتباع أبي تراب».

فنظر نافع إلى سعيد بحقد، وقال وهو يكاد يتمزق غيظاً:

ـ «أتسمع شتم الحسين وعلي بأذنيك ولا تتحرك؟ إنك جبان».

فجرض سعيد بريقه وتنهد بألم ولم يرد. . فتقدم هاني من نافع وقال له:

ـ «عندما كنا في مكة عند الحسين، طلب إلينا أن لا قتال في الكوفة. . أعرفت عدم مقاومة سعيد وأنا؟».

عند ذلك أدرك نافع، أن عدم مقاومة سعيد وهاني لم يكن جبناً، وإنما امتثالاً لأمر الحسين. فتقدم من سعيد وقال معتذراً:

ـ «أسأت الظن. . عذراً».

فتبسم سعيد ومد يده إلى رأسه بعطف، فأحسّ نافع أن يد سعيد لزجة، فنظر إليها فإذا بها ملوثة بالدم، فتساءل عن ذلك، فقال هاني:

ـ «عندما شتم الحسين، وأبو الحسين، ولم يستطع سعيد أن يقاوم، ضرب الحائط بيده فجرحت».

فنظر نافع إلى سعيد وهاني، ولوى رأسه بألم. . وإذا بصوت يشبه الهمس يهتف بهم:

ـ «وقافلة أُخرى من الأحرار؟».

وتلفت الجميع نحو مصدر الصوت، وتقدموا، فإذا بشيخ مسن، مقيد بيديه وقدميه بالحديد، مربوط قيده بسلسلة متصلة بالحائط، فانحنوا عليه، وكان بحالةٍ يرثى لها، ممزق الثياب، طويل شعر الرأس واللحية، فتبسم بوجوههم قائلاً بمرارة:

ـ «فشل ابن عقيل؟ صدق مولاي».

فقال سعيد:

ـ «من أنت؟».

فقال الرجل:

ـ «أنا ميثم التمار صاحب أمير المؤمنين».

فقال سعيد:

ـ «وأي أمير المؤمنين تقصد؟».

فتمعن الرجل بوجهه وقال عابساً:

ـ «أتعرف لم أنا هنا؟ لأني لم أر أميراً للمؤمنين إلا علياً».

فاهتم الثلاثة به عند سماعهم قوله، وأجلسوه، وعرّفه سعيد بهم، وأخذ يحدثهم طوال الليل.. ومما قاله لهم، إنه كان يعرف سلفاً أن الثورة ستفشل، وأنه هو نفسه سيصلب على جذع نخلة، وأنه سيسجن معه المختار، فتعجبوا لقوله. ولكن سرعان ما زال عجبهم في صباح اليوم التالي عندما رأوا الجنود يقودون المختار إلى السجن، فأخذ ينظر بعضهم إلى بعض بتعجب.. واستقبلوا المختار الذي دخل وهو يزأر بقوله:

ـ «سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

وتحلق الرفاق حول المختار، الذي لم يفاجأ بوجودهم، بل تقدم يطمئن على ميثم التمار. وسأله الرفاق عما جرى فأخذ يخبرهم بقوله:

ـ «بعد أن تركتم مسيرتنا، وصلنا الكوفة، فرأيت أن الثورة فشلت، وأن ابن مرجانة قد سيطر رجاله والخونة عليها، فانضممت إلى أحد أعوانه، وهو من معارفي، حتى يشهد أني لم أكن ثائراً، وبقيت الليل عنده، واليوم أرسل الدعي بطلبي، وأودِعني السجن.. ولكن أين المفر له.. أعرف كيف أحاسبه على كل قطرة دم سالت.. سأملأها عليه رجالاً وخيلاً».

فقال ميثم التمار للمختار باسماً بضعف:

ـ («قال حبيبي أمير المؤمنين: إنك يا مختار ستفلت من السجن وتخرج ثائراً بدم الحسين، فتقتل هذا الذي يقتلنا وتطأ بقدميك على وجنتيه»).

فركع المختار أمامه وقال بلهفة:

- «أوَ قال لك أمير المؤمنين ذلك؟».

فتبسم ميثم وأشار برأسه أن نعم.

فوقف المختار. وأخذ صوته يدوي كالرعد قائلاً:

- «أما ورب البحار.. والنخيل والأشجار.. والمهامه والقفار.. والملائكة الأبرار.. والمصطفين الأخيار.. لأقتلن كل جبار.. بكل لدن خطار.. ومهند بتار.. بجموع الأنصار.. ليسوا بميل أغمار.. ولا بعزل أشرار.. حتى إذا أقمت عمود الدين.. ورأبت شعث صدع المسلمين.. وشفيت غليل صدور المؤمنين.. وأدركت ثار النبيين.. لم يكبر علي زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى».

فنظر الرفاق إلى بعضهم وقد أذهلهم قول ميثم وقول المختار فقال سعيد:

- «ما بالكما تتكلمان كالواثقين من قتل الحسين؟».

فقال ميثم والدموع تملأ عينيه:

- («قال لنا حبيبي أمير المؤمنين: سيقتل الحسين وحيداً غريباً وهو آتٍ إلى الكوفة»).

فقال المختار بألم عميق:

- «إنا لله وإنّا إليه راجعون».

وإذا بالباب يفتح ثم يرمى منه رجل رمياً.. فحمله الرفاق وهو يكاد يكون محطماً.. وتجمعوا حوله يسألونه فقال بضعف:

- «قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة»، ثم أخذ يحكي لهم قصة مقتل مسلم وهاني إلى أن أضاف:

- («وقتل كثيرون.. كما قتل عبدالله بن يقطر وقيس بن مسهر الصيداوي رسولي الحسين لمسلم بن عقيل.. أمسك بهما جنود ابن زياد، الذين بعثهم

بقيادة الحصين بن نمير ليقطعوا طريق الحجاز، الممتد على أميال وأميال، حتى لا يفلت أحد يريد الخروج من العراق، وحتى لا يستطيع الحسين الدخول إلى الكوفة وقد أمسك بعض هؤلاء قيساً فمزق قيس الرسالة، ولما أوقفوه أمام الطاغية، طلب منه أن يشتم علياً والحسين فتظاهر بالرضى، فأخذوه للمسجد حيث اجتمع الناس، فأخذ قيس يشتم ابن زياداً وأباه والذي ولاه وأباه فأمر به الطاغية فقتل»).

وعند ذلك وقف سعيد بقامته المديدة وقد استبد به الغضب وأخذ يضغط أسنانه فتتقلص قسمات وجهه.. وزاد ذلك به وظهر الجزع على الجميع عندما قال السجين الجريح:

- («والأشد ألما أن ابن زياد انتدب الناس ليخرجوا لحرب الحسين.. وقد مر بي الذين أتوا بي إلى هنا بسوق الحدادين فكأن الكوفة انتقلت إليه لصنع الأسلحة لمقاتلة الحسين بها، فمال الرشوة أعمى عيون الألوف المؤلفة»).

فهمس سعيد متمتماً عند ذلك بصوت عميق مسموع:

- «سنخرج فوراً.. الحسين بخطر».

فوقف الجميع بصمت كئيب إلا الذي أدخل أخيراً فلم يستطع النهوض ولكنه رافقهم بنظراته..

وقال ميثم:

- «أنا والمختار لن نستطيع مرافقتكم فالسلاسل التي نحن مكبلين بها غليظة.. وأنا سيكون قتلي على جذع نخلة، طالما سقيتها بيدي.. أما أنتم فيجب أن تدركوا الحسين».

فقال المختار متأوهاً:

- «ويل لابن مرجانة.. لولا الاحتيال والخداع والخيانة».

والتفت سعيد إلى نافع قائلاً:

ـ «تستطيع يا نافع أن تقاتل لأن أمر الحسين لم يصل إليك. وأنت يا هاني اعمل ما في وسعك لتفادي القتال، عند خروجنا اذهب يا نافع وآتنا بالجياد، ونحن ننتظرك عند آخر باب الفيل» (باب الفيل هو أحد أبواب الكوفة).

* * *

ثم التفت سعيد نحو باب السجن وتراجع قليلاً واندفع بقوة، مرتطماً به، فإذا به يهوي تحت قوة اندفاعه إلى الأرض، محدثاً دوياً وضجيجاً، وبقي سعيد مسرعاً، يصعد الدرج المؤدي للخارج. وإذا بالحراس يندفعون من بعض الغرف من الداخل، ثم من الخارج، وقد جذبهم صوت تحطم الباب.. وامتشقوا السيوف وهجموا على الرفاق، وأخذ سعيد وهاني يتفاديان القتال ويهربان من طريق الحراس. أما نافع فقد كان أشدهم لخفته على هؤلاء الذين أخذوا يهوون إلى الأرض، أو يتعثرون، أو يصطدم بعضهم ببعض. ورأى نافع سيفاً قربه ملقى على الأرض، فأخذه وبدأ القتال. أما سعيد وهاني فقد أصبحا يحتميان به. وكان صراع عنيف.. وأدى نافع مهمته كما يؤديها أشجع الأبطال.. ورويداً رويداً اقترب الثلاثة من الباب الخارجي.. وخرج سعيد ثم هاني وبقي نافع يقاتل قرب الباب، وإذا به يرمي السيف بوجوههم، فتراجعوا قليلاً، مما سمح له بالخروج، فأوصد سعيد الباب دونهم، وانطلق الثلاثة خارجاً، وهم يركضون، تاركين الحراس يصرخون ويستنجدون.

وانفصل نافع عن سعيد وهاني راكضاً نحو بيت سعيد بينما تابع سعيد وهاني سيرهما نحو طريق باب الفيل.

وسرعان ما وصل نافع، وما كاد يدخل البوابة حتى صرخ لاهثاً:

ـ «كامل».

وما إن سمع الجواد صوته حتى خرج من زريبته محمحماً، وأتى راكضاً

نحو نافع، الذي قفز عليه، ثم اتجه به نحو الزريبة، والتقط عنان جوادي سعيد وهاني واستدار، وإذا بأمه تخرج من البيت، وكانت سمعت صوته، وهي تقول بلهفة:

ـ «ما جرى لكم؟ تشوش فكري عليكم يا ولدي».

فقال لها بسرعة:

ـ «أماه... الحسين بخطر».

فوقفت الأم والدموع في عينيها، وقالت:

ـ «اذهب يا ولدي.. عرفت كل شيء».

فنظر إليها نظرة عميقة وقال:

ـ «الوداع يا أماه». وانطلق بالجياد.. فتمتمت الأم وهي تغالب نفسها من البكاء:

ـ «الوداع يا بني.. والله معكم».

وأخذ نافع يقطع الأزقة والدروب بالجياد، تارة يسرع، وتارة يمشي على مهل، ماراً بباب الفيل، متجهاً إلى حيث سعيد وهاني. وقرب من المكان فإذا ببعض الجنود يشتبهون به، فصرخوا به أن يقف، ولكنه لم يلتفت إليهم، وتابع طريقه مسرعاً فركب الجنود جيادهم ولحقوا به، فجد بالسير وخرج من الكوفة نحو طريق الحجاز، وإذا بسعيد وهاني يخرجان من بين أشجار كثيفة، ويقطعان عليه الطريق، فهتف بهما صارخاً:

ـ «الجنود بأثري.. أسرعوا».

فأسرع سعيد وهاني وامتطى كلٌّ جواده ورافقا نافعاً، وأطلقوا لجيادهم العنان. ولكن الجنود بقوا بأثرهم.

ولما بعد الجميع عن الكوفة بكثير توقف سعيد فتوقف رفيقاه فالتفت إليهم، وقال:

ـ «أين نحن الآن؟».

فقال نافع:

ـ «خارج الكوفة».

ففهم الاثنان ما يقصد.. ونزل سعيد عن جواده وامتشق حسامه من السرج، واستدار نحو الجنود، قائلاً لرفيقيه:

ـ «أنتما ابقيا على جواديكما».. ووصل الجنود وتوقفوا، وقال رئيسهم صارخاً:

ـ «أنتم إذن الهاربون من السجن؟».

فقال نافع لسعيد:

ـ «أعرفته؟ إنه الذي شتم الحسين وأمير المؤمنين».

فقال سعيد باقتضاب:

ـ «عرفته منذ وصولك». ثم التفت إلى القائد قائلاً:

ـ «وأنتم الذين شتمتم الحسين وعلي.. والآن.. الحساب».

فترجلوا وهجموا.. وصمد لهم. وبدأت معركة عنيفة إذ كانوا خمسة. بينما هاني ونافع يراقبان بلهفة ما يجري، وبدأ سعيد يبطش بهم الواحد تلو الآخر، وضرباته تنزل قاضية صارمة، ولكن أحاطوا به وضايقوه، فمد نافع يده إلى سرج جواده، وأخرج قوساً وسهماً من كنانة كبيرة مليئة بالسهام، ووضع السهم بالقوس، وسدده إلى أحد الجنود، ولكن إذا بسعيد يفلت منهم ثم يعود ليبطش بهم واحداً واحداً، حتى جندلهم كلهم، إلا رئيسهم الذي أصابه ذعر شديد لما وجد نفسه وحيداً، فرمى سيفه، وقال: «إني أستسلم». فتقدم منه سعيد، وقال منتهراً:

ـ «نحن جبناء.. أتباع الكذاب ابن الكذاب؟ أما أنتم! إن الذي يشتم أمير المؤمنين يجب أن لا يعيش. خذ سيفك ودافع عن نفسك».

فالتقط القائد سيفه، وهجم على سعيد.. الذي تلقاه بضربة واحدة قضت عليه على الفور. فعاد سعيد لينضم إلى رفاقه، بينما وضع نافع قوسه وسهمه في مكانهما.. وعادوا لينطلقوا من جديد.. والجياد تسرع بهم على طريق الحجاز.

وجدوا بالسير.. ولكن كان هناك ما لم ينتبهوا له أول الأمر، وهو الطعام والماء.. وبعد وقت طويل، استبد بهم العطش والجوع، وتعبت الخيل، ولكن.. كان همهم الوحيد الوصول للحسين، إلى أن قطع الصمت نافع، بقوله:

- «قربنا إلى عين الماء...»، فأدرك سعيد وهاني ما يقصد.. وانعطفوا إلى طريق العين، وبعد تعب وجهد وصبر وصلوا، ونزلوا إلى الماء يشربون بنهم هم وجيادهم.. وجلسوا قليلاً ليرتاحوا، فقال سعيد:

- «المسافة طويلة.. والطريق صحراء، ونحتاج لقرب الماء، وطعام لنا وللخيل، هلم نذهب إلى قبيلة ربيعة، فلم تمض مدة إقامتهم هنا بعد».

* * *

وتوجه سعيد وهاني إلى جيادهما، وبقي نافع يرسل طرفه هنا وهناك، وقد تذكر بالطبع بوران، وأخذ يتأمل تلك الربوع بحنان وحنين، بينما كان رفيقاه يرقبانه بعطف وألم، وهو يتقدم من جواده ويمتطيه وينطلق به ناحية القبيلة.. وتبادل سعيد وهاني نظرة ألم، ثم تبعاه..

ووصلوا.. أمام مضارب كثيرة، وأمامها وبينها الجمال والخيول والمواشي والنساء والأولاد والرجال، فسأل نافع أحدهم عن منزل عامر، فدله على خيمة كبيرة.. فتوجه الرفاق نحوها وإذا بنافع يقف محدقاً. فتطلع رفيقاه حيث ينظر، ليفاجآ ببوران تقف هي الأخرى أمام خيمة أبيها، تحدق بنافع.. وطال وقوفهما، ثم تسرع نحو الخيمة وتدخلها. ونزل الثلاثة عن جيادهم، واتجهوا إلى الخيمة واستأذنوا بالدخول، ودخلوا.. ليروا رجلاً مستلقياً في

فراش، عرفوا للتو، أنه مريض.. وعن يمينه يجلس شاب نحيل الجسم، له ملامح من بوران، وامرأة عرفوا أنها أمها.. أما بوران فكانت تقف في زاوية من الخيمة، وقد بدت المفاجأة واضحة على ملامحها، ولكن يشع من محياها شعور فرح.. ولحظات دخلت الخيمة فتاة، وهي تتأمل نافعاً باسمة.

ورمى الرفاق التحية فرحب الجميع بهم ترحيباً حاراً.. شأن البدو لكل غريب.. ولكن زاد الترحيب حتى أصبح وكأن هناك تعارف قديم بين أصحاب المنزل والقادمين.. عندما همست الفتاة بأذن المرأة بكلمات.. وأدرك سعيد مغزى ذلك. فالفتاة هي أخت بوران، وبوران كانت حكت لأختها عن حبها لنافع، والأم بالطبع عرفت ذلك، وقد ظنوا أن نافعاً آتٍ ليطلب يد بوران، فسارع عندئذٍ سعيد بالقول:

ـ «يا شيخ عامر.. نحن بمهمة تقتضي منا السرعة، وطريقنا شاقٌ وطويل، ومررنا بكم لأننا بحاجة لقرب نتزود فيها بالماء». بينما كان نافع وبوران، يسترقان النظر. وبنفس الوقت كانت أخت بوران تنظر إليهما، وعلى فمها ابتسامة واسعة..

وقال الرجل:

ـ «أهلاً ومرحباً بكم.. ولكن من أين أنتم قادمون وإلى أين ذاهبون؟».

فقال سعيد بعد تردد:

ـ «نحن آتون من الكوفة».

فاستوى الرجل بجلسته، وقال هاتفاً:

ـ «من الكوفة؟ ماذا جرى لمسلم بن عقيل؟».

فقال سعيد:

ـ «قتل»..

وما إن سمع الرجل ذلك، حتى انهار في فراشه، وأجهش بالبكاء، وهو يردد:

ـ «لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله».

وأدرك الرفاق، أن عامراً من مؤيدي الحسين.. فقال سعيد عند ذلك:

ـ «ونحن ذاهبون لنصرة الحسين.. لأنه قادم وهو لا يعلم ما جرى من خيانة وغدر».

فازداد بكاء الرجل، ونظر إليهم واحداً واحداً.. وهو يبكي، وقال بلهفة:

ـ «سأذهب معكم». ثم نظر إلى الشاب الذي قربه، وقال:

ـ «مسعود... قم وهيىء فرسي، فسأذهب فوراً».

وكانت مفاجأة صاعقة للجميع، فتضاربت مشاعرهم.. فنافع نظر إلى بوران مستسلماً. وبوران زاغ بصرها وشحب وجهها، فهو لم يأت لطلب يدها، وإنما ليتم طريقه للمجهول.. وأمها وقفت معترضة، لتقنع زوجها أنه مريض. وأختها عبست بعد ابتسام، وتحول اهتمامها لأبيها.. أما الشاب فخرج. ولكن الرجل وقف قليلاً بإعياء، وظهر عليه التعب الشديد، فعاد وارتمى على فراشه، وهو ينتحب.

فقالت الأم بألم وأسى، وهي تنشج مشيرة لنافع:

ـ «إنه الذي تنتظره بوران ليأتي ويخطبها، وقد رفضت الكثيرين من أجله».

فالتفت الرجل إلى نافع، وقال:

ـ «ما اسمك يا بني؟».

فقال نافع:

ـ «اسمي نافع بن هلال، وهذا سعيد بن عبد الله الحنفي، وهذا هاني

السبيعي».

فقال الرجل، وكأنه لم يسمع كلام زوجته:

- «ليتني أستطيع الذهاب معكم، وأفتدي الحسين بروحي.. والتفت للرفاق، قائلاً:

بارك الله بكم.. وأنت يا نافع، فاعتبر بوران خطيبتك، فإن عدت، فستجدها بانتظارك».

وإذا ببوران تندفع نحو أبيها، وترتمي عليه وهي تنشج باكية، قائلة:

- «أبداً يا أبي.. سأنتظره».

فاحتضنها الأب، وقال لنافع:

- «أنا فخور بك.. وبكم كلكم.. ولكن وا أسفاه.. لا أستطيع نصرة الحسين». ثم أخذ يضرب بكفه على جبينه متأسفاً.. فقال نافع:

- «أتسمح بأن أودع بوران على انفراد؟».

فقال الرجل:

- «أنت كولدي، وهي خطيبتك».

فوقفت بوران، ووقف نافع وقال للأب:

- «سنذهب إلى العين». ثم قال لسعيد وهاني:

- «تجدوننا هناك». وودع الرجل فضمه هذا وقبله، كما ودع الأم والأخت ودعوا له ولرفاقه.. وخرج نافع وبوران متجهين إلى العين وهما يمشيان بصمت كئيب. ووصلا.. ووقف الاثنان ينظر الواحد للآخر نظرات الحب والصدق في الحب والوفاء، ثم تطلعا حولهما إلى النخيل.. إلى الخمائل.. إلى المياه الصافية، إلى فرع الشجرة الذي سقطت عنه بوران ونافع في الماء.. وإذا بنظريهما يعودان ليلتقيا، وبنظرة نافع شبح ابتسامة، وبعيني بوران تلتمع دموع.. وقال نافع محطماً الصمت:

ـ «لم أشعر مرة بعجزي عن الكلام مثل ما أشعر الآن».

فقالت بوران:

ـ «تأكد يا نافع أني سأنتظغك (تقصد سأنتظرك) فكما لم أنسك، لن أنساك».

وما إن لفظت بوران كلمة سأنتظرك بلهجتها الحلوة، حتى شعر بغصة في صدره، فتبسم بمرارة، وقال:

ـ «سامحيني يا بوران، فأنا نسيتك لفترة، وذلك لم يكن بيدي، وكان فوق طاقتي، لأني أشعر وكأني لا أعيش لنفسي».

فقالت:

ـ «يكفيني أن تذكرني ولكن بشرط».

فنظر إليها متسائلاً، فأجابت:

ـ «أن لا تكون هناك فتاة أُخرى، بحياتك».

فنظر إليها بحب عميق، وأخذ ينقل بصره.. في رأسها.. في جبينها.. في أنفها.. في وجنتيها.. في فمها، في كل جزء من وجهها، وقال:

ـ «أود أن أبقى قربك يا بوران، ولكن ذلك فوق طاقتي أشعر أن الحسين قطعة من حياتي، لا أستطيع التخلي عن نصرته».

فقالت:

ـ «لست وحدك بهذه المشاعر، فنحن كلنا نحملها فأبي على ما رأيت، مع أن كثيرين من قبيلتنا، من مؤيدي معاوية ويزيد، ولن أكون شاذة عن أبي وأهلي، وأقول لك ابق.. بل سأنتظرك.. ودعائي معك و.. قلبي معك».

وشعر أنه يحبها أكثر وأكثر، وأراد أن يتكلم، فسمع وقع حوافر الخيل تقترب، فسكت والتفت، فإذا بسعيد وهاني يصلان. ونظر إليها بعمق، وتعلق نظرها بنظره، وتأخر خطوات، ثم انفتل متجهاً لجواده ليعتليه، بينما كان سعيد

وهاني ينظران إليهما بحزن وألم.. ونظر إليهما نافع، وبدا على ملامح وجهه الارتباك..

ووقف الثلاثة ينظرون لبوران.. وهي تقف وقد انحدرت على وجهها الدموع، ورفعت يدها مودعة.. ورفع الرفاق أيديهم، وأداروا أعنة الخيل التي انطلقت بهم تخب خباً، تضرب الأرض بحوافرها ضرباً خفيفاً، وقليلاً قليلاً، أخذت أشباحهم تذوب في أفق الصحراء البعيد...

عـودة إلـى الحسيـن

ولنعد إلى الحسين وأهله وأصحابه . . فنجده في مكـة، وقد ضيق عليـه بنو أمية وأعوانهم، وأخذوا يتحرشون به، ويتآمرون عليه، بل يستفزونه ليدافـع عن نفسه، كما قال برير في المدينة، ليبرروا قتله، ولكنه كان يتجاوز عن ذلك كله، ويصبر صبراً جميلاً. وبقي يقضي أوقاته بالصلاة والعبادة. ويـأمر النـاس بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويفسر شرائع الإسـلام، ويهدي إلى الصـراط المستقيم.

وكـان أهل بيتـه بالـطبع معـه، ونسـاؤه وإخـوانـه وأولاده الشبـاب منهم والأطفال، وإخوته وأبناء إخـوته وأصحـابه، وعلى رأسهم بـرير ووهب وجـون وسويد، وكل الرفاق الذين أقسموا على حمايته في المدينة.

* * *

وقـرب موسم الحـج . . وإذا بمكة المكـرمة يفـدها النـاس من كل فـج عميق، يلبون نداء الله في الحج، وهم مختلفو الأجناس والأشكال والأحجـام والألوان . . وكلهم وجهتهم مكة المكرمة.

وحل وقت الحج، فعجت مكـة بالحجـاج، وامتلأت البيـوت بالنـاس،

وأقيمت الخيام خارجها.

ويوماً..

خرج وهب من منزله، متجهاً إلى بيت جون، ودخل عليه قائلاً:

ـ «جون.. قرب الحج، فلنذهب إلى برير ليعلمني مناسكه».

فرحب جون بالفكرة، وقام للتو يرافقه.. وكان عليهما أن يقطعا بعض الطرقات، فإذا بالناس يملأونها مما عرقل مسيرهم.. وأخذا يشقان طريقهما بصعوبة.. وبعد جهد خرجا، ووصلا إلى بيت برير وطلباه فقيل لهما أنه خرج بناء على طلب من سويد، وأنه في بيته، فقال وهب:

ـ «لم نر الرفاق، أو نجتمع بهم منذ أيام.. هيا نذهب إليهم».

ووافق جون.. واتجها إلى منزل سويد، وما إن وصلاه حتى رأيا كثيرين من الرفاق يأتون من هنا وهناك، ويدخلون منزل سويد.. فتبادل وهب وجون نظرات ريبة، ثم تقدما ودخلا، فوجدا أكثر الرفاق وكل منهم يأخذ مكانه، وفي صدر البيت سويد وبرير وأحد الرفاق، وعليه آثار السفر، وقد عرفوه أنه كان متأخراً في المدينة عن رحيلهم إلى مكة.. وقال سويد:

ـ «أيها الرفاق.. هناك أمر خطير حدث فقد أتي رفيقنا أنيس بن معقل الأصبحي للتو من المدينة». ثم التفت إلى أنيس مكملاً قوله:

ـ «أخبرهم بما رأيت».

فوقف أنيس، وقال:

ـ («قد ولى يزيد أمر الحج لعمرو بن سعيد بن العاص الأموي، وهذا آتٍ بجند كثيف، وقد علمت أن يزيدَ أمر عمراً أن يناجز الحسين، ويقاتله إن استطاع»).

فصرخ برير:

ـ «وفي مكة؟ وبالحج؟ وصل بهم بغيهم إلى أن لا يروا حرمة لمكة..

بعد أن خرقوا حرمة المدينة؟».

فقال سويد بغضب:

- «والله لو أذن لنا مولانا الحسين..» وسكت.. وفهم الجميع مراده، ثم أضاف:

- «أيها الرفاق.. كنا اطمأنينا لوجود الحسين في مكة على أنهم، وإن تجرأوا عليه في حرم رسول الله، فلن يتجرأوا وهو في حرمِ الله.. ولكن القوم لا يعرفون الله ولا رسوله، فيجب أن نفتح أعيننا جيداً، ولا نترك الحسين وحيداً، وإذا بدأوه بالقتال، فكلنا يجب أن نكون آذاناً لننفذ أمره، إذا أمرنا بذلك».

فعلت أصوات الرفاق بالموافقة، فقال برير:

- «أرى أن لا نضيع وقتاً ونجعل الحسين وحيداً.. ويجب أن ننقسم فرقاً، كل فرقة تأخذ وقتاً معيناً للحراسة، وتتكون من عشرة مسلحين، حتى إذا قرب الخطر، يكون الجميع كرجل واحد حوله».

وأيد الجميع الفكرة، ونفذ ذلك، وقسمت الفرق..

وارفضوا، وذهبت الفرقة الأولى لعند الحسين.

وفي اليوم التالي، ضجت مكة.. من أن عمرا ابن سعيد بن العاص آتٍ وهو على مشارفها بجيش كبير.. وتناقل الناس الخبر.. منهم المستغرب.. ومنهم المحبذ.. ومنهم المستنكر.. ووصل ذلك بالطبع إلى الحسين، وكان في منزله يجلس حوله بعض أهله، وعلى رأسهم العباس وبين يديه كثيرون، ينتشر بينهم الرفاق العشرة، وهم مسلحون بالسيوف. ولم يلاحظ الحسين تسلحهم بادىء الأمر..

وما إن سمع خبر قدوم عمرو وجيشه، حتى زفر زفرة طويلة وقال متألماً:

- «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وإذا بأحدهم يدخل، ويطلب الإذن من الحسين بالكلام، فأذن له، فقال:

ـ «دخل عمرو بن سعيد بن العاص مكة، بجيش كبير مسلح».

وعلى الفور وقف أكثر الموجودين، واستأذنوا وخرجوا وبقي الحسين ومن كان معه من أهل بيته والرفاق العشرة.. وتقدموا بين يديه، فرأى عند ذلك سلاحهم، وأدرك مرادهم، فتفرس بهم واحداً واحداً، وقال:

ـ «يا أصحابي البررة..». وسكت قليلاً، وقال وكأنه يستسلم للأمر الواقع:

ـ «لا قتال بمكة». فوقف العشرة، ونزعوا سيوفهم، وأعطوها لأحدهم، فأخذها وخرج بها، وبقوا جلوساً.. وفهم الحسين والحاضرون من أهله مرادهم، فنظروا إليهم نظرات حب عميق.. ثم وقف الحسين، وخرج فتبعه العشرة عن قرب..

وهكذا كانت الحراسة ليلاً نهاراً، لم يغب الحسين عن الرفاق طرفة عين، ولكن عندما عرفوا، منع الحسين القتال بمكة، غيروا سلاحهم بالسياط..

* * *

وفي اليوم التالي، كان وهب وجون يسيران ببعض أزقة مكة، التي تؤدي إلى طريق العراق، فإذا بجون يقف محدقاً بفارسين قادمين من البعيد، فقال جون:

ـ «كأني أعرف أحدهما.. قد يكونا آتيين من العراق.. قف يا وهب لنستطلع خبرهما».

ووقفا ينتظران، وإذا بالفارسين يقتربان رويداً رويداً، وبجون تشع في وجهه ابتسامة عريضة، ويتقدم نحوهما وصلا وصرخ جون:

ـ «من؟ عابس بن شبيب؟ أهلاً ومرحباً بك.. وأنت؟ شوذب؟ يا مرحباً

بكما». وترجل الفارسان عند مرآه، وتقدما يعانقانه عناقاً حاراً، وخاصة الذي اسمه عابس، فقد كان يعانق جون بمحبة عميقة.. وتقدم وهب متعجباً من هذا اللقاء، فقال جون معرفاً:

ـ «أعرفكما به.. اسمه وهب، وقد أسلم حديثاً على يد مولانا، وهو من الرفاق». ثم قال لوهب:

ـ «هذا عابس بن شبيب، أحد أبطال المعارك الرهيبة وهو من فئة تسمى فتيان الصباح».

ثم نظر إلى عابسٍ، وقال ممازحاً:

ـ «ألا يزال الموت تحت قائم سيفك؟».

وضحك عابس بتحبب. ثم قال جون:

ـ «وهذا شوذب حليف بني شاكر، وهو عابد زاهد مشهور.. وهما من خيرة محبي الحسين».

ورحب وهب بهما كما رحبا به. وسار الأربعة، وأخذ وهب يتأمل الرجل، الذي اسمه عابس، فإذا به يناهز الخمسين من العمر، ضخم الجثة، متين البنيان، يتكلم بسرعة وعصبية، شديد اللهجة، وكأنه يأمر أمراً، سريع الحركة، ويكاد التحدي ينطق من عينيه، وكأن الذي يراه للوهلة الأولى يظنه يريد القتال.. ونظر إلى شوذب فإذا هو بعكس عابس، قصير، نحيل، هادىء، وديع، وكل ما به يدل على البساطة والدعة، وسأل جون:

ـ «بالطبع أنتما آتيان من العراق.. فكيف خلفتما الكوفة؟» فتبسم عابس وقال:

ـ «معي رسالة لمولاي الحسين»، ثم ضحك وقال:

ـ «ولن أفوه بكلمة حتى اطلعه أولاً على ذلك».

فتبادل جون ووهب النظرات، فتطلع إليهما عابس وقد اهتم وقال:

ـ «أراك يا جون على غير عادتك، فلم هذه المسحة الحزينة على وجهك؟ ثم لِمَ تنظران لبعضكما هكذا؟».

فقال جون باقتضاب:

ـ «في مكة الآن جيش، وأميره عمرو بن سعيد بن العاص، وقد أمرهم يزيد أن يتحرشوا بالحسين، ويناجزوه ويقاتلوه، إن تيسر لهم ذلك».

وما إن سمع عابس ذلك حتى استشاط غضباً، ثم أضاف:

ـ «الخنازير. . وصلت بهم الوقاحة أن يتجرأوا على الحسين، حتى في مكة؟ ولكن ما العمل؟ من المؤكد أن الحسين رفض قتالهم حفظاً لحرمتها، كما خرج من المدينة حفظاً على حرمة جده. . والله والله. . لو نسي أهل البيت دينهم والرسول وربهم مرة واحدة، لقلبوا الدنيا على رؤوس كل من خاصمهم ويخاصمهم. . ولكنهم». وسكت بغضب شديد، ثم تنبه وقال:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فلنسرع للحسين، فهناك أمر خطير يجب أن نعلمه به».

واهتموا لذلك، وجدوا السير، ووصلوا إلى منزل الحسين ودخلوه فلم يجدوه، فسألوا عنه فقيل أنه بزيارة أحد الصحابة، وهو مريض. . فجلسوا ينتظرون. . وبعد وقت، أتى الحسين يحف به بعض من أهل بيته، والعباس قربه، ووراءهم عشرة من الرفاق. وتقدم عابس، وقد شع الفرح في كل خلجة من وجهه، وانحنى على يده يقبلها مراراً ثم تراجع. . وتقدم شوذب، وقبل يد الحسين، وتراجع وهو ينظر إليه نظرات تقديس ورهبة. وجلس الحسين وجلس الرفاق أمامه وبدأ يرحب بعابس وشوذب أجمل ترحيب وهما يردان شاكرين، حتى قال عابس:

ـ «مولاي. . لكم عندي رسالة من ابن عمكم مسلم بن عقيل. . وأخبركم أن الكوفة تستعد لمجيئكم على أحر من الجمر، وبالرسالة ما يكفي». ومد يده بالرسالة للحسين، الذي ناولها لأحد الرفاق، قائلاً:

ـ «فضها، واقرأها».

فأخذ الرجل يقرأ:

- («بسم الله الرحمٰن الرحيم.

لمولاي الحسين من مسلم بن عقيل.

أما بعد:

فإن الرائد لا يكذب أهله، وإن جميع أهل الكوفة، وقد بايعني منهم ثمانية عشرة ألفاً. فعجل الإقبال، حين تقرأ كتابي هذا، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»).

وضج الرفاق، وعلت أصواتهم بالتأييد لسفر الحسين، وهو ساكت حتى هدأوا، فقال:

- «على اسم الله سنسافر إلى الكوفة بعد الحج».

وفرح الجميع، وأخذ يهنىء بعضهم بعضاً، إلا أن نوعاً من الحزن ارتسم على وجه الحسين بشكل واضح، جعلهم يلتقون بأنظارهم كلهم عليه، ويستولي عليهم هدوء كئيب. وأمرهم أن يذهبوا ليستعدوا للحج كما طلب من عابس وشوذب أن يبقيا ليخبراه المزيد عما في الكوفة، وعما يجري فيها.

وخرج الرفاق وذهبوا يستعدون لمراسم الحج، ولكن بقي منهم كالعادة عشرة يرابطون قرب بيت الحسين، وكان في ذلك اليوم من العشرة جون ووهب وسويد..

* * *

وأتى الليل، والعشرة الرفاق يحيطون بمنزل الحسين، وهم متيقظون لكل حركة وسكنة. ومضى الوقت رتيباً يقطعه البعض منهم بالتحدث والبعض بالتسبيح والصلاة..

ولكن بعد منتصف الليل بقليل، سمع سويد حركة من أحد الأزقة، فارتاب للأمر فأنصت وأخذ يحدق وإذا بشبح يظهر، فهمس لأحد الرفاق أن

يبلغ الجميع بالتخفي. . وأخذ الشبح يتقدم متلصصاً، وهو ينظر إلى هنا وهناك مستطلعاً، ثم يعود أدراجه ويختفي. . وتقدم وهب من سويد، هامساً:

ـ «سويد. . أرى أن هذا الشخص أتى مستكشفاً، وأغلب الظن أن هناك مؤامرة جديدة على الحسين، وسيكون لذلك عدد كبير من المتآمرين» وأشار سويد لأحد الرفاق بالاقتراب، وهمس في أذنه بكلمات، فذهب هذا، ولم تمض لحظات إلا وأعداد كبيرة تخرج من هنا وهناك. . من وراء البيوت، ومن منعطفات الأزقة بصمت وكتمان، وهي تقترب رويداً رويداً، وكلها وجهتها منزل الحسين. فقال جون هامساً:

ـ «سأذهب لأوقظ أبا الفضل، لئلا تكون مفاجأة لأهل البيت».

وذهب إلى الجهة الخلفية من البيت، وأعلم أبا الفضل العباس بذلك، فأعلم العباس الحسين وأهل بيته من الرجال، وسرعان ما أحاطوا بالحسين ينتظرون.

وأخذ المتآمرون يقتربون، وإذا بأصوات صليل سيوفهم تخرج من أغمادها، وهم ما زالوا يتقدمون. .

وفي الظلام كانت عيون عشرة رجال ترقبهم متيقظة، ومن أيديهم تتدلى عشرة سياط.

وأحاط المتآمرون بالدار، وتقدم عدد كبير منهم إلى الباب وهموا بالدخول. . وإذا بالرفاق يظهرون، وسياطهم ترتفع بسرعة خاطفة، وتنزل على وجوه المتآمرين وأجسامهم وأرجلهم وأيديهم فتصرع هذا متأوهاً، وتجندل ذاك صارخاً، وقد حز السوط وجهه أو جسده حزاً عنيفاً مؤلماً. وعم الهرج المتآمرين وأذهلتهم المفاجأة فأخذ يدوس بعضهم بعضاً، ويدفع هذا ذاك، أو يقاتل البعض البعض الآخر، واختلط الحابل بالنابل بينهم، والرفاق يفرون بهم فرياً ذريعاً، ولم تكن تذهب ضربة سدى. . . وجرب المتآمرون التخلص من المفاجأة، وجمع صفوفهم وإذا بأشباح تأتي مهرولة من هنا وهناك،

وأكثرها بلباس النوم والسياط بأيديهم، فعلم الرفاق العشرة أن الذي همس بأذنه سويد، أتى بالنجدة.. وسرعان ما أحاط جمع الرفاق بالمتآمرين، وبدأت السياط تعلو أصواتها مفرقعة وتهوي عليهم.. وأتى عابس ووقف مبهوتاً وهو ينظر للمعركة، ولم يكن يعلم عما يجري شيئاً، ولكن ما إن لمح وهب وجون بين المقاتلين، حتى عاد أدراجه ورجع والسيف بيده ونزل للمعركة، ورأى ذلك جون، فهاله مخالفة أمر الحسين بالقتال بالسيف، فتقدم منه صارخاً بهمس: «لا قتال بالسيف..» وسرعان ما رمى عابس السيف، وبدأ يضرب المتآمرين بيديه...

ولم تطل المعركة بعد ذلك، فقد كثر الرفاق، وكانت سياطهم كالنار، تلسع الأجسام، فتراجعوا، وقد انكشف أمرهم، وافتضحوا، وهدأت المعركة...

وبقي الرفاق، ولكن وهب كان يمسك بأحد المتآمرين. وإذا بالعباس يقف بالباب، ليقول:

ـ «مولاي بانتظاركم».

وأخذوا يدخلون، ليجدوا الحسين يجلس في صدر الدار، ـ وبقي من الرفاق عشرة بالخارج للحراسة ـ.

وما إن تكاملوا، حتى أشار لهم بالجلوس، إلا وهب ومن كان يمسك به.. وأجال الحسين بهم طرفه واحداً واحداً.. فإذا بكل واحد منهم مبعثاً للفخر والاعتزاز فهذا يلهث.. وهذا بثياب النوم.. وذاك يتصبب العرق من وجهه، وكلهم ينظرون إليه نظرات فيها الحب.. فيها الطيبة.. فيها التقديس.. فيها الوفاء، والصدق، والفداء.. فقال الحسين:

ـ «ماذا أقول لكم.. أنتم أصحابي، وأنتم خير الأصحاب.. جزاكم الله كل خير».

فتململ البعض ودمعت عيون الكثيرين.. فوقف سويد وقال وصوته يرتجف:

- «مولاي.. فداك أبي وأمي.. فداك خالي وعمي.. فداك روحي.. والله لا تمس شعرة منك حتى نموت دونك».

وجلس.

ووقف رجل آخر، وقال بشدة:

- «نحن كلنا لن نسألك ما أنت فاعل، فسلمك سلمنا وعدوك عدونا، لك الأمر، ولنا الطاعة».

فهز الحسين برأسه متألما، وزفر زفرة طويلة، وقال:

- «أنتم حقاً فخري.. ولكن ماذا يريدون؟ ألأني لم أبايع؟ وهل الخلافة ملك؟.. وهل أرسل الله تعالى الرسول بالإسلام، وأنزل عليه القرآن العظيم ليكون ذلك كله وسيلة ليسترقوا رقاب الناس ويستذلوها، ويحولوا كل مقدسات الإسلام إلى وسائل تسهل لهم الحكم؟ تغير الزمان..». ثم التفت إلى وهب، وقال:

- «تقدم به يا وهب».

فتقدم وهب بالمتآمر.. فقال الحسين:

- «أتركه» فتركه، وتراجع، فقال الحسين للمتآمر:

- «من أنت يا رجل؟».

فتلفت الرجل حوله، وقد ظهر عليه أنه لم يخف أحداً، وقال:

- «أنا من جنود الأمير عمرو بن سعيد العاص وقد...»

وسكت.

فقفز عابس واقفاً، وقال:

- «مولاي.. أتسمح لي أن أنطقه؟»، فنظر إليه الرجل متأملاً، وتلفت للحسين وقال:

- «سأتكلم».

فقال الحسين لعابس:

ـ «دعه». فتراجع عابس.

فقال الحسين للرجل:

ـ «اسمع. . لك حريتك بالكلام أو عدم الكلام فأنت آمن. . ولو أردت الخروج فطريقك لك».

فنظر الرجل للحسين نظرة طويلة، ثم التفت إلى الرفاق وقال:

ـ «أليس هناك غدر؟».

فصرخ عابس:

ـ «ويحك. . أغدر عند ابن رسول الله؟ الغدر عند خليفتكم».

فأشار الحسين للرفاق أن يفسحوا الطريق للرجل، فوسعوا له. . فمشى نحو الباب ولم يعترضه أحد، وإذا به يقف والكل يراقبه ثم يسرع نحو الحسين ويرتمي عند قدميه، وهو يجهش بالبكاء قائلاً:

ـ «سامحني يا مولاي. . لم أكن أعرف أن أخلاق جدك رسول الله بك. . وقد أتينا ألوفاً جندنا يزيد وأمر عمراً بن سعيد أن يأتي كأمير للحج، وأمره أن يقتلك، أو يمسك بك أسيراً، وليكن ذلك بأية طريقة، والليلة انتقى عمرو من الجيش فرقة من الأشداء، وأرسلهم ليمسكوا بك. . ولكن الله حرسك».

فقال الحسين:

ـ «قف. . تستطيع أن تذهب».

فقال الرجل، وقد هدأ:

ـ «إلى أين؟ إلى الظلام؟ بعد أن رأيت النور؟ إلى الغدر والخداع والاحتيال. . وأترك الصدق ومرافقة مثل هؤلاء».

وأشار للرفاق، ثم أضاف:

ـ «والله إنه لأحب إلي أن أكون عندك خادماً، على أن أكون عند يزيد وزيراً. . مرني أن أقتل نفسي فتعلم صدقي. . مرني أن أذهب وآتيك برأس عمرو بن سعيد، أو أغتال لك يزيدَ نفسه، فوالله لأفعل على الفور. . وهم يثقون بي».

فقال الحسين:

ـ «إن الله تعالى، أذهب عن أهل البيت الرجس، والغدر والخداع رجس، ونحن لسنا طلاب دنيا، وإنما طلاب حق، وطلاب عدل بين الناس. . وما دمت تريد البقاء فلك ذلك».

وكان ذلك من الحسين، كأنه الأمر للرفاق ليضموه إليهم، وإذا بالكل، يصبحون أصدقاء أحباء للرجل. بل تعدى الأمر بأحدهم، أن أخذ يمسح بحنان، ويتفقد باهتمام جراح السياط في وجهه ويديه. وقابلهم بنظرة حب وتقدير.

ثم التفت إلى وهب، وقال:

ـ «اسمي عبدالله. . وكم أشكرك على مجيئك بي فهل ترضى أن أكون لك رفيقاً؟».

فقال وهب:

ـ «أهلاً بك ومرحباً».

وبقي الحسين حتى الصباح، يجلس مفكراً حزيناً متألماً، والرفاق بين يديه بصمت ووجوم.

* * *

وكان ذلك اليوم أول يوم من مراسم الحج.

وبدا الرجال بلباس أبيض، مكشوفي الرأس يكاد القسم العلوي يبدو عارياً. . وكذلك فعل وهب بناء على تعليمات برير. .

وهكذا خرج وهب وبرير من منزلهما واتجها لمنزل الحسين لمرافقته بمناسك الحج.

وبالطريق أخذ وهب يتأمل الناس ويتفرج عليهم، إذ كان لحداثة إسلامه، ولأنه لأول مرة يحضر حجاً، كان ذلك جديداً عليه.. وإذا بنظره يقع على شخص معين، أخذ يتمعن به، ثم نزل نظره إلى قدمي الشخص، ليرى قطعة حديدية تتدلى تحت ثوبه الأبيض.. فتوقف قليلاً مفكراً.. ولاحظ ذلك برير فسأله:

ـ «بم تفكر؟».

فقال وهب وقد استأنف السير:

ـ «أفكر بقطعة الحديد التي تتدلى من جنب ذلك الرجل».

فقال برير بلا مبالاة، متسائلاً:

ـ «قطعة حديد؟».

فقال وهب:

ـ «هل جرت العادة أن يحمل الحاج مثلاً قطعة حديد تحت ثيابه؟».

فقال برير:

ـ «أبداً، وذلك غير ممكن».

فقال:

ـ «إن لم يخب ظني فهي سيف.. فهل يجوز للحاج أن يحمل سيفاً؟».

فقال برير مستنكراً:

ـ إن أي سلاح حرام أن يدخل الحرم الشريف».

فتوقف وهب، وقد بدا بتفكير عميق، ثم إذا به يفتح فمه دهشاً، وهو ينظر ناحية الرجل الذي يتدلى منه السيف لئلا يفقد أثره، وقال بسرعة:

- «أسرع إلى سويد وجون والرفاق، وقل لهم أن ينتظروني وسآتيكم فوراً؟».

وانطلق ناحية الرجل دون أن يلتفت إلى برير الذي ذهب بلا مبالاة إلى سويد، وأخبره بما قال وهب:

ولحق وهب بالرجل فاستوقفه فإذا به شاب شديد البنيان يستر سيفه بحذر، وقال وهب باسماً:

- «أرى أنك من أهل الشام.. أرجوك.. لي عندك حاجة».

فقال الشاب:

- «نعم أنا من أهل الشام.. ما تريد؟».

فقال وهب: «ألك صديق اسمه عبدالله؟».

فقال الشاب: «نعم».

فقال وهب: «هو بحاجة إليك».

وفكر الشاب لحظة، وقال: «ما يريد؟».

فقال وهب: «لا أعرف.. إنه في بيت قريب». فرضي الشاب ورافق وهباً».

وسارا ووصلا إلى بيت سويد ودخلاه.. وإذا بسويد وبرير وجون وعبدالله وبعض الرفاق بالداخل.. وما إن رآهم الشاب الغريب، حتى ارتاب بالأمر، وكشف عن سيفه واستله، فهجم عليه عبدالله وانتزعه منه بعنف.

فتطلع إليه الغريب باستهجان وقال:

- «ألست عبدالله.. ماذا تفعل هنا؟».

فقال عبدالله للرفاق وكان عرف الغريب عند دخوله:

- «أعرفتم من هذا؟ إنه أحد شياطين بني أمية ولا يكون إلا حيث ستكون جريمة».

فقال وهب:

- «رأيته يخفي سيفاً فشككت فيه. . فالحاج لا يحمل السيوف. . أليس كذلك يا برير؟».

فقال برير:

- «أحسنت يا وهب وقد فكرنا بالأمر».

فقال عبدالله:

- «دعوه لي. . لأعرف منه لِمَ يحمل سيفاً وهو بمكة، ثم كحاج وهو أموي».

فقال الشاب بشدة:

- «عبدالله. . ماذا تفعل؟ ومن هؤلاء وما تريدون مني؟».

فقال عبدالله:

- «ما لك ولي ولهم. . كل ما نريد أن نعرف لِمَ تحمل سيفاً وأنت أموي وحاج؟».

فقال الشاب:

- «ما دخلكم أنتم؟. . ألا تعرفون أننا الحكام؟ الخليفة منا والولاة منا. . ستدفعون ثمن هذه المعاملة التي تعاملوني بها». ووقف يريد الخروج، فأمسك به عبدالله ودفعه بعنف يجلسه وقال:

- «إلى أين؟ لم ننته بعد. . لِمَ تحمل سيفاً وأنت حاج؟»

فسكت ولم يجب.

فقال جون:

- «فلنذهب به إلى مولانا الحسين ونرى رأيه».

وما إن سمع الشاب باسم الحسين حتى هب يريد الفرار، فتمسك به عبدالله وأعاده لمكانه. .

وتنبه الجميع لحركته، فأدركوا أن وجود السيف معه لـه علاقـة بالحسين وفهم الجميع معنى حمله السيف. . فقال سويد:

- «كـلا. . لن نـأخـذه للحسين إلا عنـدمـا يعتـرف، فـالحسين رحيم، فلنتركه لنا ونتدبر أمره».

ثم قال عبدالله:

- «أنت تعـرفني، وأنا أعـرف أنك أمـوي. . والله لن تخرج من هنـا إلا عندما تعترف».

فقال الشاب:

- «أعرفك. . أنت خائن. . نسيت أموالنا التي أعطيناك إياها؟».

فقال عبدالله:

- «أنتم الخونة لله وللرسول والكتاب والدين والشرف، يا تجار الدين. . اعترف وإلا. .».

وتقدم منه والشر يطل من عينيه. . كما أحاط به الجميع فنقل بهم بصره فإذا بهم كالتماثيل المريعة، فأسقط بيده وقال:

- «إن اعترفت لكم تتركونني؟».

فقال جون وهو يعلم أنهم لن يؤذوه بناء لأمر الحسين:

- «نعم. .».

فقال عبدالله:

- «بشرط. . أن لا لف ولا دوران فأنا أفهمك على حقيقتك».

فقال الشاب:

- «أمرنا أمير المؤمنين. .».

فقاطعه سويد قائلاً:

- «وأي أمير المؤمنين هذا؟ إنه أميركم أنتم. . قل يزيد وفقط».

فقال الشاب وهو يجرض بريقه:

- («أمرنا يزيد أن نـأتي للحج، مـع جيش عمرو بن سعيـد بن العاص، وإن فشل عمرو باغتيال الحسين أن نأخذه أسيراً.. أو نقتله»).

فجحظت عيون الجميع بينما قال سويد:

- «وبعد؟».

فقال الشاب:

- «وقـال يـزيـد: (يجب أن تقتلوا الحسين ولـو كـان متعلقاً بـأستـار الكعبة»).

وفغر الرفاق أفواههم.. فهجم عبدالله على الشاب صارخاً:

- «جبناء.. كفرة..» فتمسك به جون قائلاً:

- «عبدالله.. لا تفعل ذلك فقد أعطيناه وعداً بالأمان».

فتراجع ويدأ الوجوم على الجميع.. ولكن وهب تنبـه لأمر، فتقـدم إلى الشاب وقال:

- «قلت أمرنا فكم عددكم؟».

فقال الشاب بخوف:

- («نحن الذين جمعنا يزيد لقتل الحسين ثلاثون شاباً، وقد انتقى الأشد والأقوى وكلهم من بني أمية»).

فقال سويد:

- «طبعاً.. طبعاً.. والأشر أيضاً».

ونظر الرفـاق لبعضهم وقد اتجـه تفكيرهم فـوراً للحسين، فالخـطر ليس بواحد.. إنه بثلاثين فإذا فشل واحـد ينفذ الآخـر أو الآخرون.. وفجـأة صرخ وهب وهو يخرج مسرعاً:

- «اجمعوا الرفاق.. فالحسين بحرم الكعبة» وركض خارجاً واهتموا للأمر، فجون قال لعبدالله وأحدهم:

«ابقيا مع الأسير حتى لا ينقل الخبر لرفاقه».

وبرير خرج يلحق بوهب. أما سويد فقد ذهب لجمع بقية الرفاق.

ووصل وهب إلى حرم الكعبة لاهثاً فإذا به يرى الحسين وخلفه أبو الفضل وبعض أبنائه وإخوته وكثير من الناس كادوا يملأون فناء الحرم الشريف وهو يصلي بهم.

* * *

ووقف وهب عن بعد وتنفس الصعداء.. ولم يمض وقت طويل حتى أتى الرفاق وانضموا إليه.. ثم انتشروا بين الناس هنا وهناك يراقبون بحذر كل داخل أو خارج أو حتى مَنْ يصلي.

ولم يمض وقت طويل، وإذا بهم يرون المتآمرين يدخلون وينتشرون بين الناس وعرفوهم من أطراف سيوفهم التي تحت أرديتهم.

وكان الحسين أنهى الصلاة، واتجه للدعاء ووجهه مستقبل الكعبة، وأهل بيته خلفه وأكثر المصلين وقفوا منصرفين.

ولحظات خلا الحرم من الناس تقريباً، إلا الرفاق أما المتآمرون فكانوا يتقدمون بحذر وكلهم وجهتهم الحسين الذي كان أيضاً لم يزل مع أهل بيته في عبادتهم.

وأخذوا يقتربون قليلاً قليلاً حتى كادوا أن يصلوا.. وإذا بالرفاق وبسرعة يؤلفون حلقة بأجسامهم وليس معهم شيء مطلقاً.. وبحكم وجهة المتآمرين لنقطة معينة، كان تجمعهم وظهورهم واضحاً، فظهروا على حقيقتهم يقفون أمام جدار بشري..

وأنهى الحسين الصلاة وتلفت، وتلفت أهل بيته فإذا بهم يواجهون الجدار من الرفاق ويقف مجهولون بريبة أمامهم.

وأدرك الحسين على الفور ما يجري، (وأخذ ينظر إلى أطراف السيوف المتدلية تحت ثياب الحجاج ويهز برأسه) ثم أمر أهله أن يسبقوه إلى بيته.. بينما مشى أبو الفضل أمامه، ومشى هو خلفه، وتحول الرفاق إلى نصف دائرة، تسير ويسير وسطها الحسين وكثير من الناس وقف ليرى هذا المنظر في أقدس بقعة بالدنيا.. بينما المتآمرون أسقط بأيديهم وانكشفوا، فأخذوا يتراجعون متخفين هنا وهناك.

ووصلوا إلى منزل الحسين، فدخله وطلب من الرفاق الدخول.

وأعلن الحسين الخبر الخطير.. أن الرحيل تقدم موعده، ولن يحج تلك السنة، بل سيجعلها عمرة فقط.

وانتشر الخبر بين الناس، فأخذوا يفدون لبيت الحسين.. وانقسموا من ناحية الرأي: منهم المستنكر للرحيل، ومنهم الزائر لوداعه والتبرك به.

وكانت الوفود، تأتي إليه فيخطب بها واعظاً مرشداً هادياً.. مما جعل وقته لا يسمح له حتى بالطعام.. ومع كل ذلك، فالعباس كظله، والرفاق أصبحوا كتلة واحدة حوله، وكلهم عيون مفتوحة، وآذان صاغية.

* * *

وأخذ أولو الرأي يتحينون الفرص للاجتماع بالحسين، ليبدوا رأيهم بسفره إلى العراق، وجربوا الاتصال به، ولكنهم لم يستطيعوا لكثرة الزحام. ورأى البعض منهم أن ينتظروا حتى الليل، لعل الناس يتركونه، وكان ذلك.. ودخل عليه منهم رجل سماه برير لوهب بقوله:

- «إنه عبدالله بن الزبير.. وهذا يطمع بالخلافة وهو متذبذب، يظهر غير ما يبطن، ويبطن غير ما يظهر يود من كل قلبه أن يرحل الحسين عن مكة ليبقى هو محط الأنظار..».

وإذا بابن الزبير يقول للحسين:

- ((«تريد يا أبا عبدالله الذهاب للكوفة.. وفقك الله، أما لو أن لي مثل

أنصارك ما عدلت عنها، ولكن. . . »)

ونظر بريبة، لئلا يتهم، وأكمل:

- («لو أقمت بمكانك، فدعوتنا وأهل الحجاز إلى بيعتك، أجبناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك، وكنت أحق من يزيد وأبي يزيد، وقد حضر الحج، فادع الناس ليبايعوك»).

فقال الحسين بهدوء، وقد فهم نيات ابن الزبير:

- («لئن أدفن بشاطىء الفرات، أحب إلي من أن أدفن بفناء الكعبة. . إن أبي حدثني أن بها كبشاً يستحل حرمتها. . فما أحب أن أكون ذلك الكبش»).

(فوقف ابن الزبير، وقد علم أنه هو الكبش المقصود وخرج). فتبسم برير، ومال لوهب، وقال:

- «صدق مولاي. . ان من يعش سيرَ ابن الزبير وما يكون منه». .

وإذا بشيخ بصير، جليل القدر، يدخل متلمساً طريقه، وسلم، وجلس بين يدي الحسين، فقال برير لوهب:

- «هذا عبدالله بن عباس، وهو ابن عم الحسين. أقصد أن أباه العباس، عم الإمام علي والد الحسين. . فلنسمع ما سيقول».

فقال ابن عباس:

- («سيدي. . بلغني أنك سترحل. . فلم كل هذا؟ بايع يزيدَ»).

فقال الحسين، متألماً:

- («هيهات يا بن عباس. . وكيف أبايع يزيد؟ إذاً على الإسلام السلام»).

فقال ابن عباس:

- («إذاً لم ترحل؟ ابق في مكة، فليس بها أعز منك»).

فقال الحسين بمرارة:

- («ولو بقيت في مكة لن يتركني القوم، وإنهم يطلبونني أين كنت حتى أبايعهم كرهاً ويقتلونني.. والله إنهم يعتدون علي، وإني ماضٍ في أمر رسول الله حيث أمرني و﴿إنا لله وإنّا إليه راجعون﴾.

فقال ابن عباس:

- («تريد العراق؟ إنهم أهل غدر، وإنما يدعونك للحرب، فلا تعجل فأقم بمكة»).

فقال الحسين:

- («لئن أُقتل في أي مكان بالدنيا، أحب إلي من أن أستحل بمكة.. وهذه كتب أهل العراق ورسلهم، وقد وجب علي إجابة ندائهم، وقام لهم العذر عند الله سبحانه»).

عند ذلك بكى ابن عباس، وخرج وهو يتمتم بلهفة: («واحسيناه»)..

فقال برير لوهب:

- «أنا لا أشعر ما يشعر به ابن عباس.. وإنما يملأ قلبي الفخر بنفسي على أني مع مثل هذا الرجل الذي يعيش مبادىء الإسلام، وشريعة الله، وشريعة الرسول.. أتدري يا وهب، إن الحسين، حتى هذه السنة، حج خمساً وعشرين حُجةً ماشياً على قدميه من المدينة إلى مكة.. وهذه السنة يجبره الأعداء أن لا يحج ويجعلها عمرة فقط، خوفاً من أن تستحل به حرمة مكة.. أيهما الصادق؟ بنو أمية، أم الحسين؟ الأدعياء الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر والذين يستحلون دم ابن بنت النبي، أم هذا العظيم الذي يهرب منهم لئلا يخرقوا بقتله حرمة مكة فقط».

فقال وهب:

- «الحمد لله.. فكلما مرت الأيام، أزداد بينة من أمري».

وكان الوجوم والحزن يسيطران على كل من حضر لما صرح به

الحسين، ولما عرفوه بوضوح للأسباب التي تجعله يسير إلى الكوفة، فعمهم صمت أخذ يقطعه دخول أولي الرأي لمجادلة الحسين وارجاعه عن رأيه في الذهاب إلى الكوفة، وهو يأبى ذلك. . ومضى الوقت، وعاد ابن عباس ليدخل، وكان الليل تأخر، وجلس قائلاً:

ـ («يا مولاي. . يا أبا عبدالله. . فكرت كثيراً فلم أجد بدأ من القول: إن أهل الكوفة أهل غدر، وسيخذلونك فلا تذهب»).

فقال الحسين:

ـ («ما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت نبيهم من وطنه وداره وقراره، وحرم جده وتركوه لا يستقر في قرار، ولا يأوي إلى جوار، يريدون قتله، ولم يشرك بالله شيئاً، ولم يرتكب منكراً ولا إثماً؟»).

فقال ابن عباس:

ـ («جعلت فداك يا مولاي. . إذا كان لا بد من المسير إلى الكوفة، فلا تسر بأهلك ونسائك، فوالله إني خائف، أن تقتل، وهم ينظرون إليك»).

فقال الحسين متألماً:

ـ («يا ابن العم. . إني رأيت رسول الله في منامي، وقد أمرني بأمر لا أقدر على خلافه، وقد أمرني بأخذهم معي وهم ودائع رسول الله ولا آمن أحداً عليهن، وهن أيضاً لا يفارقنني»).

فبكى ابن عباس وخرج حزيناً، قائلاً:

ـ («أستودعك الله. . أستودعك الله»).

وما إن خرج ابن عباس، حتى دخل رجل سماه برير لوهب:

ـ «هذا عبدالله بن عمر بن الخطاب».

ودخل عبدالله مسرعاً، وجلس مسلماً، ثم بدأ الكلام معترضاً على سفر الحسين للعراق، وقال:

ـ («بايع يزيد يا أبا عبدالله، ان القوم بنو عمك. . وينتهي الأمر»).

فنظر الحسين إليه نظرة طويلة، وقال:

ـ («اتق الله يا عبدالله. . أنا أبايع يزيد؟ ذلك لن يكون»).

فقال عبدالله متأثراً:

ـ ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾. وصبر قليلاً، ثم قام وانصرف.

فنظر برير إلى وهب، وقال:

ـ «لو كان المسلمون كالحسين، لما كان مثل يزيد خليفة عليهم ولما استغلت عائلةٌ الدين وتحكمت برقابهم. . ولكن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

ودخل بعد ذلك كثيرون، وجلهم يستحثه على تغيير رأيه في الرحيل إلى العراق وهو لا يغير ولايبدل. وانشق الفجر والناس يدخلون ويخرجون على تلك الحال، والرفاق يتحلقون حول الحسين، وليس بينهم من قال كلمة واحدة، إلا برير كان يفسر لوهب ما لم يعرفه عمن يأتي أو ما يقال.

* * *

(وفي اليوم التالي، ذهب الحسين وأهل بيته من الرجال يعتمرون، وهو يسرع بتأدية الفرائض والرفاق حوله. وأخذ يؤديها رغم قصر الوقت، فطاف بالبيت سبعاً، وسعى بين الصفا والمروة، وحل من احرامه وجعلها عمرة مفردة. . حتى إذا انتهى عاد إلى منزله، وإذا بالناس ينتظرونه، وكانوا يقفون، وهم كالموج الهادر. .).

* * *

وصل إلى داره، ووقف على مرتفع وأشار للناس بالسكوت. . وشملهم بنظره، وقال رافعاً صوته خطيباً بنبرة قوية:

ـ («الحمد لله. . وما شاء الله. . ولا حول ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله وسلم.

أيها الناس:

خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف»). وسكت قليلاً وهو ينظر إلى الناس. فعلت عند ذلك همهمة استغراب وجزع من الجميع، أما الرفاق فقد تبادلوا النظرات القلقة.. وأكمل الحسين:

- («وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي يتقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفاً، وأجربة سغباً لا محيص عن يوم خط بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين ولن تشذ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة في حظيرة القدس، تقر بهم عينه وينجز بهم وعده، من كان فينا باذلاً مهجته، وموطناً على لقاء الله فليرحل معنا»). ثم سكت قليلاً وقد عم الناس جميعاً الجزع والاستغراب من قوله، فضج أكثرهم بالبكاء، وعلا الضجيج.. ولكن ما إن رأوه يفتح فمه بالكلام حتى سكتوا، فقال:

- («وإني راحل مصبحاً إن شاء الله»). ثم استدار ودخل داره، يتبعه أبو الفضل.

وعلا الذهول الناس جميعاً، وعمهم الحزن والألم، فتوقفوا قليلاً مشدوهين ذاهلين، ثم أخذوا يتسللون زرافات ووحداناً. ولم يبق إلا الرفاق الذين تبادلوا النظرات الطويلة، التي تحمل المعاني الكثيرة، فرفع سويد صوته، قائلاً:

- «يبقى عشرة هنا، والبقية إلى منزلي». فانفرد عشرة، ثم زحف الباقون مع سويد إلى منزله. ووصلوا وأخذ كلٌ مكانه، فوقف سويد بينهم وأجال طرفه بهم، فإذا بالجميع في حزن عميق، وقال سويد:

- «أيها الرفاق، سمعتم ما قال الإمام.. وكأنه ينعي نفسه..».

وإذا بصوت يعلو من إحدى زوايا المنزل مرتفعاً، صارخاً:

ـ «لم لا تأمرنا يا مولاي بأن نقاتلهم، فنبيدهم، ولو تعلقوا هم بأستار الكعبة؟ . . لم لا تسمح لنا بأن نمزقهم بدلاً من أن يخرجوك عن حرم جدك وحرم الله، وموطنك وبلدك؟ فلم يا مولاي؟».

فالتفت الجميع، فإذا بالصارخ عابس بن شبيب، جالس وقد وضع وجهه بين كفيه، وهو يتلوى متألماً. ثم وقف والدموع تملأ عينيه، وملامح وجهه ترتجف وقال:

ـ أمثل الحسين ينعي نفسه في موطنه، وابن الدعي يجلس بين جواريه، يشرب على وجوههن الخمور؟

الحسين ابن فاطمة يهرب من بلد جده وابن آكلة الأكباد يرسل من يريد قتله، ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة؟

الطاهر ابن الطيبين، تضيق به الدنيا خوفاً من بني أمية؟ أيها الرجال. . امتشقوا سيوفكم، ولنذهب إلى هذا الفاسق أمير الحج، فنبيده ونبيد جيشه، ولا ندع الحسين يخرج من جوار حرم الله، وحرم جده بهذه الصورة».

فقال برير بهدوء:

ـ «ليس ذلك لنا. . للإمام الأمر ولنا الطاعة، وبيننا جميعاً قسم أن نكون معه ونقتل دونه، هنا في الحجاز. . في العراق. . في أي مكان من الدنيا. . لن يمر إليه إلا على جثثنا». وسكت قليلاً ثم أضاف:

ـ «هذه مهمتنا».

فهدأ عابس، وهو يزأر:

ـ «إذاً حتى يأتي أمر مولاي. . سنرى ويرون».

فأكمل سويد:

ـ «لا أخفي عليكم جميعاً أنني متخوف من سفره هذا خصوصاً بعد خطبة اليوم. وبعضنا كانوا من أصحاب أمير المؤمنين علي ورافقوه إلى صفين

والجمل والنهروان وجميع فتن محرفي الكتاب والسنة، وبرير وعابس وجون حضروا كل ذلك وأنا أيضاً. . ولا أخفي أن كلمة واحدة مما قاله مولانا الحسين، أيقظت بي ماضياً بعيداً، فأذكر جيداً أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال مثل ذلك، وأمير المؤمنين علي أيضاً، عندما وصل إلى بقعة معينة في العراق فقد صلى ركعتين وبكى وقال: «. . هنا مصرع ولدي الحسين وآل محمد وأصحاب الحسين. . » وصحابة الرسول المخلص منهم يردد حتى اليوم قول الرسول: «طوبى لمن أدرك حرب شباب آل محمد». ثم معنا جابر بن عروة الغفاري يشهد وهو أكبر صحابي بيننا وقد أدرك بدراً وحنين».

فوقف جابر وقال بوقار وجلال وهدوء:

ـ «أشهد بعيني. . بأذني. . بكل جوارحي أني سمعت حبيبي رسول الله قال ذلك». وجلس. .

وأكمل سويد:

ـ «وغداً سنبدأ مرحلة جديدة مما نحن عليه، وهي بداية ألقى الرسول عليها الضوء وأمير المؤمنين، والصحابة الأخيار. . ومعنى ذلك أن مرافقتنا للحسين ستكون. . » وسكت قليلاً ثم قال:

ـ «ستكون ليست للمجهول».

وبقي الجميع في وجومهم وسكونهم وحزنهم. فقال سويد:

ـ «غداً سيسير الحسين ومعه إخوته وأبناء إخوته وأبناء عمومته وأخواته ونساؤه وأطفاله. . ونحن سنسير، ومن منكم يرغب في التخلف فلا يأتِ. . والذين يرغبون بمرافقتنا فليستعدوا من الآن».

وارفض الجميع. . كل ذهب إلى منزله.

وعاد وهب وجون إلى حيث الحسين، ليريا هناك أناساً كثيرين منهم الداخل ومنهم الخارج ومنهم الواقف أمام الدار يمسح دموعه أو يجهش بصوت خافت. . فدخلا وفي صدر البيت الحسين والعباس وبعض أهل البيت

بين يديه واجمين بصمت كئيب يقطعه بين الفترة والفترة قول البعض معترضاً على الرحيل وإجابة الحسين بالإصرار. . وبعد قليل. .

لمست يد جون كتف وهب وأشار له بالخروج ومشيا إلى أن قال وهب:

ـ «سمعت أن ابن عباس أشار على الحسين أن يذهب ويعتصم باليمن. . وهو رأي صائب فلم لم يفعل ذلك؟».

فقال جون:

ـ «وعندما يذهب لليمن سينادي به الناس خليفة، فيصبح هناك خليفتان بالإسلام ويبدأ دم المسلمين يهرق من جديد، وهذا ما يريده بنو أمية للانتقام من الإسلام وهدمه، ثم إن ذهب فسيبعد عن نقطة توجيه الإسلام، وتنفيذ أحكامه فيصبح يزيد وبنو أمية بدون رقابة يفعلون ما يشاؤون ويكملون تحريف الكتاب، والانحراف بالإسلام الذي ختمه معاوية بتحويل الخلافة إلى ملك».

فقال وهب:

ـ «لم تخطر ببالي هذه الأفكار الصحيحة كلها. . وأراكم تتفهمون كل حركة وسكنة مما يجري حولكم، ولكن لِمَ لا يبايع الحسين يزيد ؟».

فقال جون: «لو بايع الحسين يزيد هذا يعني الإقرار بأن خط بني أمية ومن سبقوهم هو الصحيح والشرعي، وحتى حربهم للإمام علي في الجمل وصفين وغيرها حق وعادل، وأن الإمام علياً على خطأ وأن وصية النبي بالغدير بولاية الإمام وفي غير الغدير ليست صحيحة، وثم يصبح كل الصحابة الأوفياء أهل بدر وأحد وحنين الذين حاربوا مع الإمام كانوا على باطل، وأن كل المظالم التي حصلت هي عادلة بل هي تمثل الإسلام الحقيقي وأن الإمام علياً ظالم وعلى باطل وكذلك أهل البيت ومؤيدوهم ويطال ذلك النهي الإسلام والقرآن الكريم».

فقال وهب: «أعوذ بالله. . إذا لم يكن الحق والعدل مع الإمام علي وخيرة الصحابة وأهل البيت فهل يمكن أن يكون مع معاوية ومن يمثل؟».

فقال جون:

ـ «لو عاصرت أبا ذر وما جرى بينه وبين معاوية وغير معاوية لتكشفت لك أشياء وأشياء وأبو ذر يمثل خط الإسلام الحقيقي».

فقال وهب: «هذا هو الحق».

فقال جون:

ـ «نبدأ من الأول.. فالإسلام كفكرة انتشرت فأصبحت الرسول، ثم أهل البيت، ثم الصحابة ثم عامة المسلمين.. ونسأل هل مات النبي وهو راضٍ؟ إن كل من يقول نعم، يخالف الواقع لأنه خولف حتى وهو يتوفاه الله».

فقال وهب:

ـ «عذراً.. كيف؟».

فقال جون:

ـ «أسأل.. لِمَ طلب قرطاساً وقلماً ليكتب كما قال ـ وهو يحتضر ـ ما مفاده «لأكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً» ثم ما كان الجواب؟ كان الجواب من البعض: لا تفعلوا إن الرجل يهجر.. وعندنا كتاب الله..» ذلك حدث ومهما خفف المؤيدون للتحريف من وقع هذا على النبي فقد حدث. والأشد ألماً أن ذلك كان بعد ساعات من معصيته أمره ومخالفته وإيقاف جيش أسامة.. إذ كان أمر أكثر الصحابة بأن ينضموا تحت لواء أسامة وهو يأمره بالسير فوراً لحرب الروم.. ولو سألت يا وهب لِمَ عادوا عن جيش أسامة؟ فجوابه أن من المسلمين من استكثر النبوة والخلافة في بيت واحد، لأن ما كان يقصده النبي من استدعاء القرطاس والقلم إنما ليوصي كتابة بالخلافة أو الأصح بالإمامة لعلي بعد أن أوصى بها الله تعالى بالقرآن وبعد أن نفذها النبي في الغدير وقبل وبعد الغدير في مواطن كثيرة ومناسبات عديدة. وما كان جيش أسامة إلا ابعاداً لمن يعرف النبي أنهم سيتجرأون على أوامره.

ومن المسلمين من كان منافقاً يظهر الإسلام ويبطن ما يبطن، ولا تستغرب هذا فلو راجعت القرآن الكريم لأعلمك ذلك بوضوح. وتضامنت الفئتان ومصالح الفئتين ووقفوا صفاً واحداً بوجه خلافة علي للنبي فانقسم الصحابة إلى قسمين: قسم بقي وفياً لأمر النبي مثل سلمان الفارسي وابن مسعود وذو الشهادتين وجابر ورشيد الهجري وحجر بن عدي وأبو ذر والمقداد بن الأسود وعمار وجابر صاحبنا وكثيرون ممن تكتلوا حول الإمام علي، وقسم وقف ضد ذلك منهم عبدالرحمٰن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ومعاوية بن أبي سفيان وأبو هريرة وسمرة بن جندب وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة وكثيرون أيضاً.. وظهر ذلك واضحاً أكثر وأكثر في صفين حيث وقف علي ومعه أكثر من كنت ذكرت وكثيرون جداً ممن حضروا بدراً وحنيناً وأُحد، وكانوا أبطال معارك الإسلام الكبرى.. ووقف معاوية ومعه أكثر من كنت ذكرت وغيرهم كثيرون وهم أنفسهم أو أبناؤهم الذين حاربوا الرسول في بدر وحنين وأُحد. لذلك كان كل من طهر الله قلبه من عبادة المال أو مصلحة أو حسد مع علي وكل من أعمى الله قلبه بعبادة المال أو مصلحة أو حسد مع معاوية. وأما عامة المسلمين فلم يكن للأكثر منهم رأي إلا تابعين لهؤلاء وهؤلاء. وبدأ الصدق والدين يقارعان الاحتيال والانحراف والكفر المستتر. أحكي لك واحدة فقط فليس المقام هذا: قال الرسول لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية يا عمار.. ومعروف بين جميع المسلمين أن النبي كان قال للإمام علي ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، وأظهرت الأيام أن الناكثين هم أهل الجمل والقاسطين هم رفاق معاوية في صفين والمارقين هم الخوارج. وعندما قتل جيش معاوية عمار بن ياسر بصفين، ضج عسكر معاوية وخاصة من يسمون بالصحابيين منهم خائفين، لأن قول النبي وصل إليهم يصمهم أنهم الفئة الباغية وأن معاوية وكل من كان معه باغون، ولكنه قال لهم مع رشة قليلة من المال:

(«صحيح أن الفئة التي تقتل عماراً هي الباغية ولكن نحن لم نقتله فالذي قتله هو الذي جاء به») وسكتوا. ولكن بعد قليل تبين أن الله نفسه

كذبهم، فأظهر أن عماراً لم يأت به أحد أبداً وإنما أتى لوحده بعد أن كان جيش الإمام قد أقام مدة. . وعاد الخوف لأولئك الصحابيين، وكل من كان مع معاوية، ولكن رشة ثانية من المال ومن المراكز والولايات والاقطاعات سكنت آلام جراحهم».

فقال وهب:

ـ «كان حدثني برير بما يشبه ذلك».

فقال جون:

ـ «لنعد للقول أن النبي مات وهو غير راضٍ عن كثيرين من الصحابة، وبعد أن قام علي وقتل علي وبعده قام الحسن وقتل الحسن مسموماً، والآن بقي الحسين. . وأمام الحسين مسؤولية كبرى واليوم بدايتها وذلك برفضه بيعة يزيد ثم برحيله إلى العراق لأن مبايعته ليزيد تعني شرعيته وشرعية أبيه بالخلافة وهذا يفسر قول النبي حسين مني وأنا من حسين، فرفضه يعني رفض النبي والإسلام».

فقال وهب:

ـ «الحق يقال يحتاج المرء لفتح بصيرته قليلاً وقليلاً جداً ليرى طريقين: طريق أهل البيت وعلى رأسهم الإمام علي وطريق غيرهم. . وشتان ما بين الطريقين».

فتبسم جون بمرارة وقال:

ـ «وهنا تظهر مسؤولية المسلم أمام الله، والله وحده، فكل منا مسؤول. ونحن اخترنا مسؤوليتنا وسنمشي لها لا نهاب شيئاً، والحسين هو بقية من النبي من لحمه ودمه وسيكون بيده وضع حد فاصل بين الحق والباطل وإيقاف زحف الجاهلية من جديد في جسد الإسلام وتصحيح كل الأخطاء التي أتى بها كثير من المسلمين وخبطوا بها خبط عشواء منذ موت الرسول إلى اليوم. . أما كيف فذلك لله وحده. . أما نحن الرفاق كل الرفاق فلنا شرف صحبته

والائتمار بأمره».

وكانا وصلا إلى منزلهما فقال وهب بعد سكوت طويل:

- «سألت نفسي مراراً لم تأخر سعيد ونافع بالمجيء وموعدنا معهم بمكة».

فقال جون بلا مبالاة:

- «مع أني اشتقت لهما.. ولعل المانع خيراً.. ثم لا تنس أن سفرنا من مكة سيكون قبل موعده وقد نجدهم بطريقنا».

وذهب كل منهما ليهيىء نفسه استعداداً للرحيل في الغد.

الملحمة الإلٰهيّة

رحلة الخلود

وعند منتصف الليل، والظلام يلف تلك البطاح.. أخذت أبواب الرفاق تقرع فهب الجميع ليفاجأوا بالنداء:

«سيرحل الحسين بالسحر». وفوراً دبت الحركة، وبسرعة كان الفرسان يمتطون جيادهم ويردفون خلفهم عتادهم. والرجالة يقودون الرواحل محملة بلوازم السفر.. وعلت الجلبة والضجيج وسط سكون يسيطر عليه شيء مبهم من الخوف والجزع والحزن.. وكان وجهة الكل منزل الحسين..

وسرعان ما التأم شمل الجميع في ساحة كبيرة قريباً من منزله، وترك الرفاق ما معهم وتوجهوا إلى منزل الحسين، فإذا به قد تهيأ وأمام داره تمتلىء الساحة الواسعة بالخيل.. والجمال وقد رفعت عليها الهوادج للنساء والأطفال، وامتد ذلك للطرق والساحات المحيطة بالمنزل.. بينما كان الحسين يشرف على التأهب وحوله جميع الرجال والفتيان من أهل بيته وأولهم أبو الفضل.

وعلا صوت المنادي ينادي بالتأهب للمسير فصعد النساء والأطفال إلى الهوادج واتجه الفتيان والرجال إلى الخيول يمتطونها وأخذ كلٌ موضعاً. ووقف

العباس قرب الحسين يحمل رايته والتفت إلى الرفاق وصاح بصوت عالٍ:

ـ «استعدوا للرحيل فوراً».

فذهب كلٌ إلى راحلته أو فرسه وأخذ بزمامها ينتظر لحظة الإقلاع.

وكثر الناس رويداً رويداً، وتجمهروا أمام الحسين الذي وقف خطيباً بهم وقال:

ـ («الحمد لله وصلى الله على رسوله..

أما بعد..

فإن الحلم زينة. والوفاء مروءة. والصلة نعمة. والاستكبار صلف. والعجلة سفه. والسفه ضعف. والغلو ورطة. ومجالسة أهل الدناءة شر. ومجالسة أهل الفسق ريبة. والسلام»).

ثم دخل منزله لوقت قصير وخرج فشق له الناس الطريق بوجوم وألم وحزن، وتقدم من فرسه وركبه، وتقدم العباس من جواده واعتلاه. وأشار له الحسين فرفع العباس يده مشيراً بالسير.. فإذا بالجمال تخور وتقف بهوادجها وأحمالها وهي تتمايل والخيل يعلو صليل أعنتها ووقع حوافرها.. ووقع الأقدام يرتفع ممتزجاً بخشخشة السلاح. وبدأت القافلة تتجمع ثم تسير بخطو طويل.

وإذا برجل يهرول متخطياً القافلة حتى تقدم وأمسك بزمام فرس الحسين فتوقف وتوقفت القافلة. وعرف الجميع أنه محمد بن الحنفية أخو الحسين.. قال بلهفة:

ـ («ألم تعدني النظر فيما سألتك؟»).

فأجاب الحسين:

ـ «بلى».

فقال محمد:

ـ («فما الذي حملك على الخروج عاجلاً؟»).

فقال الحسين:

ـ «أتاني رسول الله بعدما فارقتك وقال: يا حسين اخرج إلى العراق فإن الله شاء أن يراك قتيلاً مخضباً بدمائك».

فقال محمد متألماً باكياً:

ـ ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ فإذا علمت أنك مقتول فما معنى حملك هؤلاء النسوة والأطفال معك؟».

فقال الحسين:

ـ «ولقد قال لي جدي: إن الله عز وجل قد شاء أن يراهن سبايا مهتكات يساقون في أسر الذل. وهن أيضاً لا يفارقنني ما دمت حياً».

فبكى محمد بكاء شديداً منعه عن الكلام فترك زمام الفرس وقال مردداً بألم وحسرة:

ـ «أودعتك الله.. أودعتك الله.. أودعتك الله..»).

وعاد الحسين للمسير بالركب.

وإذا بفارس ينخرط بسرعة بين الرفاق، يهمس في آذانهم وهم يسيرون:

ـ («إن عَمْراً بن سعيد بن العاص داهم مكة منذ لحظات بجيشه الكبير، وقد احتلها وهو يطلب الحسين»).

فعرف الرفاق عند ذلك سبب خروج الحسين مستعجلاً بالرحيل.

وما إن خرجوا إلى طريق العراق من مكة، وكان الفجر قد انبثق وأخذ كلٌ يتعرف على من حوله والآخرين.. استطلع الرفاق بعضهم فإذا هم هم لا ينقص واحد منهم، وهم الذين جاؤوا مع الحسين من المدينة إلى مكة..

وانقسمت القافلة على الشكل التالي:

الحسين بالمقدمة وأمامه العباس. . ثم الرفاق في صفين. . ثم قافلة الجمال التي تحمل الهوادج للنساء والأطفال وحولها أبناء الحسين وإخوته وأبناء إخوته وعمومته. ثم الجمال والخيل التي تحمل المؤونة والأواني والخيم وغيرها. .

وطلع الصباح، وابتعدوا عن مكة، فتوقف الحسين وتطلع الجميع إليه ليروه يرسل طرفه إليها وعلى محياه النبيل مشاعر لا يمكن أن ترتسم إلا على وجوه أبناء الأنبياء، فعلم الكل أنه يودعها ثم تنهد وزفر زفرة طويلة وعاد للسير.

* * *

ولم يمض وقت طويل وإذا بوقع حوافر خيل تعلو وعليها فارسان يتجهان نحو القافلة من ناحية مكة. . ووصلا وأسرعا حتى وصلا إلى الحسين الذي هتف:

ـ («من؟ محمد وعون؟ ما جاء بكما؟»).

فقال أحدهما:

ـ («أرسلنا والدنا برسالة إليك وها هي»).

وناوله الرسالة ففضها وقرأها وإذا بها:

(«أما بعد. .

فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا، فإني مشفق عليك في هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك فإن هلكت اليوم طفىء نور الأرض فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين فلا تعجل بالسير فإني في أثر كتابي والسلام»).

ولم يمض وقت طويل، حتى بانت من البعيد، من طريق مكة، مجموعة كبيرة من الفرسان تسرع نحو ركب الحسين، ورأى ذلك الرفاق، وإذا بالكل يأخذون سياطهم ويتقدمون نحو الحسين ووقفوا خلفه.

واقترب الفرسان، فعرفوا منهم على الفور عبدالله بن جعفر والد محمد وعون، ومعه يحيى بن عمرو بن سعيد بن العاص أمير الحج، والباقون من الجنود.

وتقدم عبدالله من الحسين وهو يقول بسرعة:

- («ذهبت إلى الأمير، وأعطاني لك أماناً، وهذا كتابه يمنيك ويعطيك ما تأمره به، على أن لا تخرج للعراق»). ثم ناوله رسالة الأمير فقرأها الحسين وقال:

- («رأيت رؤيا فيها رسول الله وأُمرت فيها بأمر أنا ماضٍ فيه»).

فقال يحيى:

- («فما تلك الرؤيا؟»).

قال الحسين:

- («ما حدثت أحداً بها وما أنا محدث حتى ألقى الله ربي»).

فأسقط عندئذٍ بيد عبدالله بن جعفر، فأمر ولديه محمداً وعوناً بمرافقة الحسين..

ولكن يحيى قال بغضب:

- («لن نترككم تذهبون»). وأمر جنوده بالتقدم.

وتحولت أنظار الرفاق إلى الحسين تنتظر القرار فإذا به يصدر بهدوء وعزم:

- «بل سنذهب»).

وفوراً تقدم الرفاق نحو الجنود.. وتقدم الجنود يسدون الطريق.. وحمل هؤلاء أيضاً السياط.. ومشى الرفاق ليفتحوا الطريق، ولكن الجنود رفعوا سياطهم وأخذوا ينزلون بها عليهم. وارتفعت على الفور سياط الرفاق وبدأت معركة كان سلاحها السياط والأيدي.. ولم تطل حتى تراجع الجنود

يفتحون الطريق مرغمين، ويتجمهرون حول قائدهم، الذي هاله الأمر فقال بحقد:

- («ألا تتقي الله يا حسين؟ تخرج من الجماعة وتفرق بين هذه الأمة؟»).

فقال برير لوهب:

- «انظر.. انظر الفاسقين وقولهم.. كلما أسمع هذه الكلمة يكاد ينشق لها صدري غيظاً».

وإذا بالحسين يجيب يحيى:

- («لي عملي ولكم عملكم.. أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون»).

فنظر برير إلى الحسين معتزاً به فخوراً وهمس:

- «حبيبي أنت وابن حبيبي.. ما أبلغ جوابك وأعظم قولك.. فقد أبردت قلبي يا بن رسول الله».

وعاد الجنود، تشيعهم نظرة الرفاق الساخرة أذلاء صاغرون.. وخلفهم عبدالله بن جعفر يسير وهو يتلفت للوراء مرة بعد مرة، مودعاً وقد ابتلت لحيته من الدموع.

ورفع العباس يده إشارة السير، وعاد كلٌ لراحلته، وبدأت القافلة المقدسة تسير وهي تحمل أثمن ما تحمل الأرض من الأحياء، وهم أهل البيت.. وطيف الرسول يرعاها من السماء ويوجهها حيث يريد وحيث أمره الله.. وقائدها الأعلى يرسل الطرف حوله، وكله تسبيحة كبرى لفظها الإيمان كله، والحق كله، والدين كله، والنور كله، وكل حبكة الإسلام العظيم.

* * *

ولم يكن من جديد والقافلة المقدسة تسير في الصحراء تشرق عليها الشمس، فترافقها بحنان لم تهبه إلا لأنبياء أو أبناء أنبياء، وتحتهم أرض تنعم

وكأنها تتهادى، تحت خطواتهم فرحة بهم، ومن حولهم رمال وتلال، وتارة جبال وصخور، ترقبهم عن قرب ومن البعيد، وكأنها تتنفس وقد دبت بها الحياة، أخذت تستقبلهم وقبل أن يصلوا ببشاشة وترحيب، ثم لا تلبث أن تودعهم وداعاً فيه الحب الكبير والحنان الكبير.. وما إن تذهب الشمس، حتى يحتضنهم الليل ليلفهم بردائه بلطف وحنان، وقد اخترقت عن كره منه، نظرات تقديس من نجوم تلمع في سماء بسطت كل ما لديها من طمأنينة وهدوء على هذه النقطة المقدسة في صفحة هذا العالم الواسع الكبير.. وتجاوبت القافلة المقدسة فعلت صلواتها وتسبيحها أطيافاً من الورع والتقى والإيمان ممتزجة مع النور الأبيض المشع مع فجر كل أذان يملأ الصحراء، والدنيا، والنجوم، والسماء، يقودها جميعاً رمز النور ومزيج كل المثل العليا.

* * *

ومضت الأيام والليالي تعدها خطوات القافلة الرتيبة، التي تلمس الأرض لمساً خفيفاً، تحدو على ظهور رواحلها فاطميات طاهرات، وأحلام أطفال بريئة بيضاء.

وأخذت تمر على قرى ومضارب للأعراب والناس يستطلعون عن سبب رحيل الحسين إلى العراق وما إن عرفوه حتى همس الكثيرون لبعضهم:

- («فلننضم لملك الحجاز.. فإنه سيغزو العراق وهناك غنائم كثيرة»).

وانضم كثيرون للقافلة وساروا عن بعد منها.. والقافلة تمضي بطريقها الطويل.

ومضت الأيام.. ومرت بمكان اسمه ذات عرق، ثم بمكان اسمه الثعلبية.. ثم الحاجز من بطن الرمة. وفيها أرسل الحسين قيس بن مسهر الصيداوي برسالة لمسلم بن عقيل لأن القافلة لم تكن تعلم ما جرى لمسلم والثورة لانقطاع الخبر وبعد المسافة.

ثم واصلوا السير.. وكانت القافلة أينما حلت، تجد من يرحب

بالحسين ويتجمع حوله المسافرون وبعض الرؤساء، ينصحونه بعدم إكمال سفره وهو يرفض.

ويوماً..

كانت القافلة تواصل سيرها. إذا بقافلة صغيرة تسير أمامهم ثم تحيد عن الطريق وتسير وراءهم، وكأنها لا تريد مماشاتهم. وأكملت قافلتنا طريقها وإذا بواحة صغيرة تتوسطها مياه من (مياه العرب) فانعطفوا إليها، وأمر الحسين بالنزول للراحة، وتم ذلك، ونزلت القافلة الثانية عن بُعد، وأهلها يتحاشون الاقتراب من أهل قافلة الحسين.

* * *

وأتى المساء فأرسل الحسين بطلب جون فذهب جون على عجل ليلبي الطلب، فقال له:

- «اذهب إلى زهير بن القين، صاحب هذه القافلة وأدعه إلي».

وتعجب جون من معرفة الحسين لاسم صاحب القافلة.. وتذكر أن زهيراً من مؤيدي السلطان، وهو يكره الحسين ولذلك لم يماشه ولكنه نفذ الأمر.. وسأل عن زهير فأشير لخيمته، فاستأذن ودخل، فوجده مع أفراد القافلة يأكلون.. فنقل إلى زهير طلب الحسين.. وإذا بالطلب ينزل كالصاعقة، فرموا الأكل من أيديهم متذمرين، وهم يستثقلون الطلب. وقال زهير لجون بكره ومضض:

- «سيكون».

فأتى جون وأخبر الحسين.. وبعد قليل إذا بزهير يأتي ويدخل عليه.. ولم يمض وقت طويل حتى خرج من عنده مستبشراً فرحاً، مما تعجب له الرفاق، وأهل قافلته جميعاً، فسألوه عن تبدله المفاجىء فقال:

- («كنا غزونا بلنجر وكان معنا سلمان الفارسي، وكنا غنمنا غنائم فرحنا لها كثيراً جداً، فقال لنا سلمان يومذاك: أفرحتم بما غنمتم؟ قلنا: نعم. فقال

ما لم أنسه لليوم: إذا أدزكتم قتال سيد شباب أهل الجنة وشباب آل محمد فكونوا أشد فرحاً بما غنمتم. وأنا من الآن سأنضم للحسين. . »).

ثم صرخ بالجميع:

ـ («ضموا القافلة لمولاي الحسين فوراً»).

ونفذ رجال قافلته أمره رغم استغرابهم بينما ذهب زهير لزوجته وقال لها:

ـ («يؤسفني أن أقول لك أنت طالق. . فالمال الذي هنالك») وسألته عن السبب فأجابها بما كان فأيدته. وفي اليوم الثاني انفصلت القافلة الصغيرة تاركة زهير بن القين، مع الحسين لينضم إلى الرفاق، وليرحبوا به وكان منهم كثيرون يعرفونه ويعرفهم. وتوجهت قافلته لديارها لتترك قافلتنا تكمل طريقها إلى مكان اسمه الخزيمية ثم إلى مكان اسمه ذبالة.

وفي ذبالة أمر الحسين بالراحة ليومين وليلتين. . وهيئت المضارب والخيم واستعد الجميع.

وأتى المساء. . ولاحظ الرفاق الذين يقومون بالحراسة، أن الحسين ينفرد بنفسه عن بُعد قليل ينظر إلى ناحية العراق. وغابت الشمس وأظلم الليل والحسين منفرداً. . وطال الوقت. . فعاد إلى المعسكر. . وإذا بأشباح لفرسان تأتي من البعيد، فتطلع الرفاق الحراس إليها حتى وصلوا. . وكم كانت دهشتهم وفرحتهم. . إذ كان الأشباح: سعيد وهاني ونافع. . وحيا سعيد وسأل عن الحسين، فقال له أحدهم:

ـ «إنه بذلك الفسطاط الكبير. . ما وراءكم وكيف حالكم؟».

وترجل الثلاثة وتقدموا من فسطاط الحسين. وفي تلك اللحظات كان الكل قد عرفوا بمجيء سعيد ورفاقه فأتوا يهرولون من هنا وهناك، وكانوا دخلوا الفسطاط. . وهم بحالة يرثى لها فكلهم شعث غبر ممزقو الثياب متسخو الوجوه وكأنهم آتون زحفاً.

ووقف الحسين يستقبلهم وقد فوجىء بمنظرهم المؤثر ووقفوا قبالته بصمت كئيب. . ثم قال سعيد:

- «السلام عليك يا مولاي».

فرد الحسين وقال بحزن:

- «ما وراءكم. . أهلاً بكم».

فارتبك سعيد وفتح فمه ليتكلم، ولكنه عاد وسكت بينما كان رفاقه ينظرون إلى الحسين بحزن ونظرات متألمة قلقة. . ومد سعيد يده برسالة قائلاً:

- («كان أحدهم آتياً بها إليك يا مولاي، ولكننا وجدناه جريحاً يجود بأنفاسه في الصحراء، وقد مات وهو يوصينا بإيصالها إليك. . ونحن نؤيد ما بها».

ثم أحنى رأسه ليخفي مشاعره. . وتناول الحسين الرسالة وأخذ يقرأ وإذا بدموعه تسيل على وجنتيه وأدار ظهره ينتحب باكياً بشدة كادت تتمزق من أجله قلوبهم. . وقال بصوت متهدج:

(«اللهم اجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك إنك على كل شيء قدير. . منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً»).

وبعد قليل تقدم الحسين إلى باب الفسطاط، والرفاق خلفه، ليجدوا أن كل رجال وغلمان القافلة ينتظرون ما أتى به سعيد ورفاقه.

ورفع الحسين صوته بحيث يسمع الجميع وقال بصوت أجش متهدج:

- («قد أتانا خبر فظيع. . قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبدالله بن يقطر. . وقد خذلتنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف في غير حرج ليس عليه ذمام»).

وعاد ودخل الفسطاط ليسمع الجميع بكاء النساء وعويل الأطفال وكأن

القافلة أصبحت في مأتم.

وسار سعيد ورفاقه، وحوله الجميع بوجوم وصمت.

ولما بعدوا عن الفسطاط وقف سعيد أمام جميع الرفاق وقال:

- «سنخبركم بكل شيء بعد أن نخبر مولاي». وذهب كل إلى خيمته بنفس الصمت والوجوم.

وسهرت القافلة الليل كله بحزن بينما كان سعيد ورفاقه نائمين لشدة التعب والجهد الذي حل بهم لمواصلة السير والمخاطر عبر الصحراء.

* * *

وفي صباح اليوم التالي تلفت الرفاق حولهم ليروا الذين انضموا إلى قافلة الحسين يديرون ظهورهم للقافلة ويرحلون.. ولم يبق إلا الذين أتوا من المدينة ومن انضم إليهم بعد ذلك كرفاق.

وأرسل الحسين بطلب سعيد مرة ثانية.. وكم كانت دهشة الجميع، عندما علموا أن (اليوم الذي قتل فيه مسلم وهاني هو نفس اليوم الذي خرج فيه الحسين من مكة، إذ كان يوم الثلاثاء وهو يوم التروية بالحج).

(وعندما حل المساء عاد الحسين لينفرد عن بعد من القافلة، لينظر حوله وللبعيد عبر الصحراء.. وعرف الرفاق أن لذلك أصبح معنى وهو أن قادماً أو قادمين جدد سيفدون..

وبالفعل لم يمض وقت طويل حتى أخذت تظهر أشباح من بعيد من جهات مختلفة).

وتقدم الرفاق نحو الحسين، الذي أخذ يمعن النظر.. فإذا بالأشباح تظهر وتقترب الواحد تلو الآخر.. وهتف أحدهم قائلاً:

- «هذا أبو تمامة الصائدي أحد كبار قواد مسلم بن عقيل».

ووصل أبو تمامة وترجل وانحنى على يد الحسين وقبلها، ورحب به

الحسين وكأنه على موعد معه. .

وإذا بأحدهم يقول مسمياً شبحاً آخر:

- «حبيب بن مظاهر أحد قواد جيش أمير المؤمنين علي في صفين وهو صحابي أدرك الرسول».

ووصل حبيب وترجل عن جواده ليقف أمام الحسين قليلاً، ثم يبكي ويرتمي عليه يحتضنه. . ورحب به الحسين ترحيباً حاراً. .

وعلا صوت يقول:

- «هذا مسلم بن عوسجة وكيل مسلم بن عقيل وأحد قواد جيشه ومعه أهل بيته». وقد ظنوا جميلة زوجته.

ووصل مسلم وترجل وانحنى على يد الحسين يقبلها. . فرحب به الحسين وانضم هو للرجال، وأهل بيته - على حد تعبيرهم - إلى النساء. ثم أخذ آخرون من الرجال، يفدون من هنا وهناك، هذا على فرسه، وذاك على ناقته، وغيرهم معه عياله، وآخر منفرداً. . وكلهم ينضمون إلى الحسين وصحبه بما يشبه الصمت وكأنهم كما قلنا على موعد بالزمان والمكان معه.

وأخيراً واجه الحسين الرفاق وقال بعزم وتصميم:

- ((لم يبق غيركم. . فمسيرنا غداً. . فبيننا وبين القوم كلام ووعد)).

وعلموا أنه قرر تكملة السير إلى الكوفة رغم علمه بأن لا خير فيها ولا في الطريق الذي يؤدي إليها.

وعاد الرفاق الأربعة وهب وسعيد وجون ونافع ومعهم هاني لينضموا لخيمة واحدة ويصبحوا كتلة واحدة.

* * *

وبينما كان سعيد يجلس مهموماً متألماً مع رفاقه، إذا بأحد الغلمان الذين يخدمون النساء، يأتي ليهمس بأذنه كلمات فغر لها فمه ووقف ينظر

بحيرة إلى الرفاق، ثم يخرج برفقة الغلام إلى خيمة مسلم بن عوسجة، ودخلها وإذا به وجهاً لوجه أمام جميلة. .

ووقف مشدوهاً وقد علت البغتة ملامحه ونظرت إليه جميلة بتحدٍ لطيف وقالت:

ـ «أنا هنا يا سعيد».

وأراد أن يتكلم، وفتح فمه ثم عاد ليسكت متذمراً فقالت:

ـ «سعيد. . أعتذر عن كل ما قلته عن الحسين بالماضي. . فلم أكن أعرف أهل البيت حق المعرفة. . وكنت أنظر لهم فقط بعين الحقد أما الآن. . فبعد أن عرفتهم عن قرب، لم أتمالك أن ألعن نفسي ألف مرة. . نفسي التي سمحت لي أن أتكلم عنهم بسوء. . ولا تستغرب أني استأذنت مولاتي لمقابلتك».

فقال سعيد كالذاهل:

ـ «وأي مولاتك؟».

فقالت:

ـ «السيدة زينب. . تأكد أني لا أتجرأ أن أنظر لعينيها لمهابتها ونبلها. . كما تعرفت على هانية زوجة وهب وأمه والرباب زوجة الحسين ابنة امرىء القيس وابنة الملك كسرى وسكينة وأم كلثوم ورقية حتى أطفاله وخاصة عبدالله الرضيع».

ثم تهدج صوتها وارتبكت وهي تقول:

ـ «كنت استحق القتل عندما كنت أشتم أهل البيت، وكنت على حق في معاملتي».

ثم قالت بصوت مرتجف:

ـ «هل يغفر لي الله حقدي الذي كان على الحسين؟».

فقال سعيد برقة:

ـ «جميلة!».

فالتفتت إليه لتراه ينظر إليها بحنان وينقل بصره في وجهها فقالت:

ـ «لن أضايقك بعد اليوم. .»

ثم قالت بإصرار:

ـ «أنا بريئة من أبي ومما فعل أبي».

فقال وعلى فمه ابتسامة:

ـ «لو لم يكن الموقف غير ما نحن عليه. .»

فقالت بعزم:

ـ «أنت أتيت والحسين يملأ حياتك. . وأنا سأكون معكم ويملأ حياتي أهل البيت أطهر من في الدنيا».

فقال سعيد هامساً:

ـ «وأنا؟».

فنظرت إليه نظرة طويلة فيها كل الحب. . وخرجت قائلة:

ـ «إن عبدالله الرضيع بحاجة إلي».

ورغم كل الآلام التي عاناها سعيد ويعانيها ورغم الحزن الذي يسيطر على القافلة كلها لحزن الحسين وأهل البيت، عاد إلى خيمته ووقف ببابها ليواجه نظرات رفاقه وفي صدره ابتسامة أبت إلا أن ترتسم على شفتيه. . فنظر إليه نافع بريبة وهمس له وهو يجلس قربه:

ـ «خيراً إن شاء الله».

فقال سعيد بصوت مسموع وهو يستلقي بهدوء:

ـ «أصبحت جميلة منا».

وعلى الفور انتقلت الابتسامة من سعيد لترتسم على أفواه نافع وهاني فيتبادلان النظرات.

في تلك الأثنـاء كان حبيب بن مـظاهر وزهيـر بن القين ومسلم وكثير من الرفاق يجتمعـون بالحسين من وقت لآخـر يتدارسـون الأمر ويقلبـوه من جميع الوجوه.

وفي سحر اليوم التالي نادى منادي الحسين بالرحيل.. فدبت الحركـة، وقـوضت الخيـام، وانتصبت الهـوادج، ووقفت الجمـال، واعتلى الفـرسـان الخيول، وانتظر الجميع إشارة العباس بالسير.

وركب الحسين جـواده، وأحـاط بـه حبيب وزهيـر وأمـامـه العبـاس.. وبدأت المسيرة.. إلى الكوفة.

* * *

ومضت أيام قلائـل وكان الـوقت قبيل الـظهر وهـم يسيـرون على منبسط فسيح من الأرض.. وعلى بُعدٍ قليل جبل يمتد للبعيد وإذا بأحد الرفاق الـذين يسيرون قرب الحسين يهتف:

- («الله أكبر».

فقال الحسين:

- «لِمَ كبرت؟».

فقال الرجل:

- «رأيت النخيل».

فتطلع الجميع حيث ينظر فقال أحدهم متعجباً:

- «إن هذا المكان ما رأينا به نخلة قط».

وتأملوا جيداً فقال أحدهم:

- «والله ما هي إلا أسنة الرماح وآذان الخيل تبدو من البعيد».

فقال الحسين:

- «نحن في العـراء. أليس لنا ملجـأ فنجعله في ظهورنـا ونستقبل القـوم

بوجه واحد؟».

فقال أحد الرفاق:

ـ «هـذا ذو جشم (الجبل) الـذي جنبنا فلنمـل إليه عن يسـارنا وهـو في منتصف الطريق بيننا وبين القوم».

فانعطف الحسين.. وانعطفت القافلة بـأجمعها للجبـل.. وإذا بالجيش الذي بدا كالنخيل ينعطف نحو وجهة القافلة.. فأمر الحسين بـالخيم فضربت أوتـادها، وحـطت رحالهـا.. ومـا أن تم ذلـك إذ بـالجيش يقف قبـالـة رحـل الحسين وكان الوقت أصبح الظهر والشمس محرقة).

وقف الحسين يحيط به الرفاق ينتظرون ما سيكون.. وتقدم قائد الجيش الذي قدره الرفاق بألف فارس.. وترجل القـائد، ومشى نحـو الحسين، يتبعه بعض الجنود ورمى التحية وقال:

ـ («أنا الحر بن يزيد التميمي»). وإذا به رجل جميل الصورة قوي البنية تبين على ملامحه الشجاعة والنبل.

فقال الحسين:

ـ («ألنا أم علينا؟»).

فقال القائد:

ـ («بل عليك يا أبا عبدالله»).

فقال الحسين:

ـ («لا حول ولا قوة إلا بالله»).

ثم نظر إلى وجوه الجنود وخيولهم فأدرك أنهم عطاش ولم يسألوه الماء، لأنهم كانوا يحسبون أنفسهم أعداء سلفاً وقبل أن يفقهـوا شيئاً.. فـالتفت إلى الرفاق وقد أشفق على من اعتبروا أنفسهم أعداء وقال:

ـ «اسقوا القوم».

فأخذ الـرفاق يقـودون الجنود، كـلا إلى خيمته ويسقيـه ويسقي فرسـه، وعـاد الحسين إلى فسـطاطـه ووراءه العبـاس وحبيب وزهيـر وبـريـر وبعض الرفاق. . وبينما هو سائر التفت فرأى أحد جنود الحر يحاول أن يسقي فرسـه، فتقـدم الحسين منه وعلمـه كيف يجب أن يفعل، فنـظر بريـر إليه نـظرة طويلة وتمتم:

ـ «بأبي أنت وأمي يا مولاي ما أعظم حنانك وعطفك».

ثم التفت إلى الفارس وتمتم أيضاً:

ـ «أما أنت فبهيمة تقود بهيمة».

ووصـل الحسين إلى فسطاطـه، ونظر إلى مـوقـع الشمس من السمـاء، فعلم أن وقت الصلاة حضر، فأمر مؤذنه فأذن، فتجمـع الرفـاق خلفه، وتقـدم الحر وخلفه كثير من جنوده ناحية الحسين الذي قال له:

ـ «أتريد أن تصلي بأصحابك؟».

فقال الحر:

ـ «بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك».

فوقف الحسين يستقبل القبلة أمام الجميع. . .

واصطف الرفاق خلفه صفوفاً متـراصة، ووقف الحـر في الصف الأمامي أما جنوده فكانوا في الصفوف الخلفية. وعلا التكبير وأقيمت الصلاة. . وما إن انتهى الحسين منها حتى استدار نحوهـم وقال:

ـ («الحمد لله وصلى الله وسلم على رسوله. .

أيها الناس. .

إنهـا معـذرة إلى الله وإليكم. إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقـدمت علي رسلكم، أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام، لعـل الله أن يجمعنا بـك على الهـدى والحق، فإن كنتم على ذلـك فقد جئتكم فـاعطوني مـا أطمئن إليه من

عهودكم ومواثيقكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم»).

فقال برير لوهب وكان قربه:

- «هذه هي الحجة الأولى عليهم».

وتطلع كل الرفاق إلى الحر وجنوده، فإذا بهم ساكتون فانتظر الحسين والرفاق قليلاً، فلم يجب أحد، فتقدم الحسين إلى فسطاطه يتبعه الرفاق وتقدم الحر إلى خيمته وجنوده يجلسون في ظل خيولهم.

وحل وقت العصر.. فأمر الحسين بالتهيؤ للرحيل، فتهيأوا وأذن المؤذن لصلاة العصر وعاد الجميع للصلاة، وما أن أنهاها حتى واجههم من جديد وقال:

- («أما بعد..

أيها الناس.. فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله عنكم، ونحن أهل بيت الرسول، أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان، فإن أبيتم إلا الكراهية لنا والجهل بحقنا، وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت به علي رسلكم انصرفت عنكم»).

فقال برير لوهب:

- «وهذه الحجة الثانية».

فوقف الحر وقال:

- («أنا والله ما أدري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر»).

فقال الحسين لعبدالله بن سمعان:

- («أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إلي»).

فأخرج عبدالله خرجين مملوءين صحفاً ونشرها بين يدي الحسين..

فقال الحر:

ـ («أنا لست من هؤلاء الذين كتبوا إليك. . وقد أُمرنا إذا نحن لقيناك، أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيدالله بن زياد»).

فنظر الحسين إليه نظرة غضب، وقال بحدة:

ـ («الموت أدنى إليك من ذلك»).

ثم التفت إلى الرفاق، وقال آمراً:

ـ («اركبوا»).

وبسرعة، كان كل من الرفاق يركب جواده ويتخذ مكانه. فقال الحسين:

ـ («انصرفوا»).

فإذا بالحر يشير لجنوده أن يمنعوهم. وتقدم هؤلاء يعترضون طريق الرفاق. . فقال الحسين للحر بحدة:

ـ («ثكلتك أمك، ما تريد؟»).

فقال الحر:

ـ «أريد أن أنطلق بك إلى الأمير عبيدالله بن زياد».

فقال الحسين بغضب، وهو يهز رأسه:

ـ («ذلك لن يكون»).

فقال الحر:

ـ («إذاً لا أدعك»).

عند ذلك نظر الحسين للعباس نظرة، فهمها العباس على الفور. فتقدم حتى صار أمام الرفاق. . وعرف الرفاق المراد. وبسرعة كان كلٌ يتخذ مكانه للقتال، وضربوا أيديهم إلى سيوفهم، مما أحدث صوتاً رتيباً أيقظ الحر، فنظر إليهم نظرة طويلة، فإذا بهم مزيج عجيب. . أظهر ما فيه أنه يثير الإعجاب

والخوف معاً، فالتفت إلى الحسين، وقال:

- («لم أؤمر بقتالك. . إنما أُمرت أن لا أفارقك، حتى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك إليها، ولا يردك إلى المدينة، يكون بيني وبينك نصفاً. . وسأكتب إلى الأمير عبيدالله بن زياد. . فخذ الطريق من هنا فتياسر عن طريق العذيب والقادسية، لأنه محاصر»).

فرضي الحسين بما أشار الحر. . وواجه القوم بقوله بهدوء:

- («أيها الناس. .

إن رسول الله، قال؛ من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير بقول ولا فعل، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. .

ألا وإن هؤلاء. . قد لزموا طاعة الشيطان، وتولوا طاعة الرحمٰن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق بهذا الأمر. . وأتتني كتبكم أنكم لا تخذلوني. فإن وفيتم لي ببيعتكم، فقد أصبتم رشدكم. . وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله، ونفسي مع أنفسكم، وأهلي وولدي مع أهاليكم وأولادكم ولكم بي أسوة. وإن لم تفعلوا ورفضتم عهدي وخلعتم بيعتي، فلعمري ما هي منكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغتر بكم فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام»).

فلما سمع الحر ذلك، تحير في أمره، وقال:

- («إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن»).

فقال الحسين:

- («أفبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني! وسأقول كما قال أخو الأوس لابن عمه، وهو يريد نصرة الرسول، فخوفه ابن عمه،

فقال:

سأمضي، وما الموت عار على الفتى
إذا نوى حقاً، وجاهد مسلما)

فلما سمع الحر ذلك، تنحى عن ركب الحسين، وعاد لجنوده، وأخذ طريقه عن بعد.

ولم يزالوا سائرين حتى انتهوا إلى مكان اسمه عذيب الهجانات، فإذا بأربع فرسان قادمين مقبلين من الكوفة، وسرعان ما أشار الحر لجنوده فاعترضوهم، ولم يكن أحد يعرف من هم.. فقال الحسين للحر:

- («هؤلاء أنصاري، وهم بمنزلة من جاء معي، ولأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، فإن بقيت على ما كان بيني وبينك، وإلا ناجزتك»).

فنظر الحر تلقائياً إلى الرفاق، فإذا بالكل ينظرون إلى الحسين، وكأنهم لا يرون بالدنيا إلا شخصه، وهم ينتظرون إشارة منه.. وأشار لجنوده ليخلوا عن القادمين. وعاد الحر يبتعد بجنوده عن ركب الحسين، فتقدم الأربعة ووقفوا بين يدي الحسين.. وتحلق الرفاق حولهم، فسألهم عما وراءهم بالكوفة.. فكان الجواب:

- («الأشراف استمالهم ابن زياد بالأموال الهائلة، فكلهم ألب واحد عليك.. أما سائر الناس، فأفئدتهم لك وسيوفهم عليك»).

فقال لهم:

- («هل لكم علم برسولي قيس بن مسهر؟»).

فقالوا:

- («نعم.. قتله ابن زياد»).

فترقرقت الدموع في عيني الحسين، وقال:

- **﴿منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾**.. اللهم

اجعل لنا ولهم الجنة نزلاً، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك، ورغائب مذخور ثوابك»).

ونصحه أحدهم، واسمه الطرماح بن عدي بأن لا يكمل طريقه إلى الكوفة، وقال:

- («يا مولاي. . إن ابن زياد ليسيطر سيطرة تامة على الكوفة، وقد أرسل الجيوش بقيادة الحصين بن نمير، قائد الشرطة وأكملوا حصار الحدود الممتدة من خفان إلى القطقطانية إلى جبل لعلع ماراً بالقادسية، ولا أحد يستطيع الدخول والخروج، ثم كذلك حوصر الطريق ما بين واقصة إلى طريق الشام. . فإذا تفضلت بالنزول في عشيرتنا، فسنحميك بأرواحنا وننصرك»).

فقال له الحسين:

- («جزاك الله خيراً يا طرماح. . ولكن بيننا وبين القوم وعد وكلام»).

فقال برير لوهب باسماً:

- «أمثل مولاي يهرب؟ إذا كان في سبيل نفسه فلا، فكيف إن كان في سبيل الله؟ وها هي بداية الثورة تظهر ملامحها».

وقال الحسين للرفاق:

- («من منكم يعرف الطريق؟»).

فتقدم الطرماح بن عدي، وقال:

- («مولاي، أنا أعرف»).

وسار هذا في المقدمة، وتحركت القافلة من جديد.

* * *

وكان الوقت ليلاً، والقافلة تسير والحسين على فرسه وقربه العباس وابنه علي الأكبر شبيه الرسول، فخفق خفقة، وغلبه النعاس، ثم إذا به يتنبه وهو يقول:

ـ («إنا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين»).

وردد ذلك. فتقدم إليه علي الأكبر، وقال له:

ـ («يا أبت جعلت فداك، مم حمدت واسترجعت؟»).

فقال الحسين وهو يزفر زفرة طويلة:

ـ («يا بني ، خفقت خفقة فعن لي فارس على فرس، وهو يقول: القوم يسيرون، والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها نفسنا نعيت إلينا»).

فقال له علي الأكبر باسماً:

ـ («يا أبت، لا أراك الله سوءاً. . ألسنا على الحق؟»).

فنظر إليه الحسين باعتزاز، وقال:

ـ («بلى، والذي إليه مرجع العباد»).

قال علي:

ـ («إذاً، لا نبالي أن نموت محقين»).

فقال الحسين متألماً:

ـ («جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن ولده»).

* * *

وفي اليوم التالي، وصلوا إلى مكان اسمه نينوى. . وإذا بفارس قادم من البعيد، فوقف ركب الحسين وركب الحر. واقترب الفارس، وكان مسلحاً متنكباً قوسه وتقدم نحو الحر وأعطاه رسالة ففضها.

وما إن قرأها، حتى أمر جنوده باعتراض ركب الحسين فتقدم الجنود يعترضون الركب. . وطلب من الحسين أن تنزل القافلة في ذلك المكان. . فقال الحسين:

ـ («ألم تطلب منا العدول عن الطريق؟»).

فقال الحر:

- («بلى، ولكن كتاب الأمير عبيدالله قد وصل يأمرني فيه بالتضييق عليك»). ثم أعطاه الرسالة، فقرأ الحسين:

- («أما بعد، فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلا بالعراء، في غير حصن، وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك، حتى تأتيني بانفاذك أمري والسلام»).

فقال الحسين للحر:

- («دعنا ننزل في قرية من هذه القرى التي تبدو من البعيد»).

فقال الحر:

- «لا أستطيع، وهذا رجل قد بعث علي عيناً، وإذا تقدمتم سنبدأ القتال».

فتقدم زهير بن القين للحسين قائلاً بهمس:

- («يا بن رسول الله . . إن قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به»).

فقال له الحسين:

- («ما كنت لأبدأهم بالقتال»).

وواجه الحسين الرفاق، فتجمعوا على الفور أمامه فقال:

- («الحمد لله . . إنه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون وإن الدنيا تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها واستمرت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة (بقية) الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل (الوخيم) ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً (ضجراً)»). وسكت. فقال زهير:

- («والله يا بن رسول الله، لو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلدين،

لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها»).

فتقدم برير، وقال:

- («والله يا بن رسول الله، لقد من الله بك علينـا أن نقاتـل بين يديـك، وتقطع فيك أعضاؤنا، ثم يكون جدك شفيعنا يوم القيامة»).

وتراجع ليقف قرب وهب وسعيد ونافع وجون وبقية الرفاق.

وسأل الحسين، وقال:

- («ما اسم هذه الأرض؟)».

فقال بعض الرفاق:

- («نينوى»).

فتنبه الحسين، وقال:

- («إذاً سيروا»).

فتابعت القافلة سيرها. وتقـدم الحر يعتـرض الحسين على المسير، فلم يرد عليه، فسكت على مضض، والقافلة تسير، وإذا به يهتـف:

- («يا أبا عبدالله، إن علي عينا، وأنا مأمور»).

فلم يرد عليه الحسين، فسكت الحر، وأخذ ينظر إلى الفارس الذي أتى بـالـرسـالـة، وكـأنـه يحسب لـذلـك ألف حسـاب، ولكنـه عـاد ليسكت على مضض.. وإذا بالحسين ينظر إلى أرض معينـة والقافلة كـانت لم تزل تسيـر، وأخذ يتأملها.. وتقدم الحر وقد نفد صبره، وقال:

- («يا أبا عبدالله، أنا مأمور، يجب أن تنزلوا هنا»).

فقال الحسين:

- («إن هذه الأرض أرض قفر، على غير ماء ولا قرية»).

فقال الحر بإصرار، بعد أن أشار لجنوده بالاستعداد للقتال:

ـ («إن علي عينا يطالبني»).

فالتفت الحسين إلى الرفاق، وقال:

ـ («ما اسم هذه الأرض؟»).

فقال البعض:

ـ («كربلاء»).

فتوقف الحسين، ونظر حوله بحزن يرسل طرفه إلى تلك الربوع المقفرة الموحشة، وقال وكأنه يعرفها:

ـ («اللهم أعوذ بك من الكرب والبلاء»).

ثم التفت إلى الرفاق وقال رافعاً صوته:

ـ («الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون»).

ثم قال وهو يتمعن من جديد بتلك البطاح:

ـ («أهذه كربلاء؟»).

فقالوا:

ـ («نعم يا بن رسول الله»).

فأجال بهم بصره واحداً واحداً، ثم فعل كذلك بأهل بيته، وعبس وقال بعزم:

ـ («هذا موضع كرب وبلاء..

ههنا مناخ ركابنا.. ومحط رحالنا.. ومقتل رجالنا.. ومسفك دمائنا»).

فنظر إليه برير والدموع تملأ عينيه، وقال هامساً:

ـ «ليتني أستطيع أن أفديك وأهل بيتك بأكثر من نفسي».

وحطت القافلة أحمالها، وضربت الخيم ونزلوا.. ونزل الحر بجنوده

عن قرب.

وذهب الحسين وجمع أخوته وولده وأهل بيته في فسطاطه وشملهم بنظره، والدموع تترقرق بعينيه، وقال رافعاً صوته:

- («اللهم انا عترة نبيك محمد، وقد أُزعجنا، وطردنا وأُخرجنا عن حرم جدنا، وتعدت بنو أمية علينا.. اللهم فخذ لنا بحقنا وانصرنا عل القوم الظالمين»).

وكان نزول الحسين بكربلاء، في اليوم الثاني من شهر المحرم (٦ تشرين الأول) وهو يوم الخميس من سنة إحدى وستين للهجرة.

* * *

وفي اليوم الثاني من إقامة القافلة أتى فارس معلناً أن معه رسالة إلى الحسين من عبيدالله بن زياد، فأدخله الرفاق، وأعطى الرسالة للحسين، فقرأ:

- («أما بعد، فقد بلغني يا حسين نزولك بكربلاء، وقد كتب إلى أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسد الوثير ولا أشبع من الخمير حتى ألحقك باللطيف الخبير، أو ترجع إلى حكمي وحكم يزيد والسلام»).

فرمى الحسين الرسالة من يده، وقال مغضباً:

- («لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق»).

فقال الرسول:

- («يا أبا عبدالله.. أرجو الجواب»).

فقال الحسين:

- («ما له عندي جواب، فقد حقت عليه كلمة العذاب»).

فخرج الرسول متجهاً إلى الكوفة.

ولما علم ابن زياد بذلك غضب غضباً شديداً، وخرج للمسجد وطلب للناس أن يجتمعوا، فخطبهم ومدح يزيد ومعاوية، ثم أمر بالأموال أن تؤتى

إليـه، وأخذ يـوزعها، ووعـد بزيـادة العطاء لكـل من يطيعـه، ويـذهب لقتـال الحسين.

* * *

وكما قلنا.. هناك كان الناس ثلاث فئات: فئة تؤيد السلطان يأكل قلبها حقد ورثوه على الحسين وأبي الحسين وكل أهل البيت. وفئة من الخونـة ذوو النفوس الضعيفة الـوضيعة التي لا تفقـه من الحياة إلا أنهـا تعيش وفقط. وفئة مرتشاة وأكثرها من الجياع، وهذه عامة الشعب.. الشعب الذي عامله بنو أمية معاملة الكلاب، بتجويعه، فاضطر لأن يتبعها ترغيبـاً أو ترهيبـاً، دون أن يكون هنـاك حاجـز بينها وبينـه لا دين ولا رسول ولا عـدالة ولا إيمـان ولا قـرآن ولا حق، يساندها بالتحكم بـرقابـه الفئة المؤيـدة للسلطان التي تمثل الحقـد وفئة الخونة التي تمثل الوضاعة وضعف النفوس، وتمثلت هذه كلهـا بجيش ضخم كبيـر قائـده الأصيل المـال ثم المال.. المـال الذي كـان عليه أن يكـون رمز العدل الاجتماعي والاحسان والإيمان والدين، فإذا به بتوجيه بني أمية، يصبح أداة لتحطيم العدالة والإحسان والإيمان والدين..

وزحف الجيش بقيادة رمزيـة لشخص كان مـزيجاً لكـل ما بنفـوس تلك الفئـات، فهو ورث الحقـد على أهل البيت من البعض حتى إن أبـاه سعداً بن أبي وقاص أبعده عنه وابتعد عنه عندما وصمه علي بن أبي طالب بقوله:

ـ «ما تقول يا عمر بن سعـد بن أبي وقاص عنـدما تقف مـوقفاً تخيّـر فيه بين الجنة والنار، فتختار النار؟».

ثم هو كان من الخونة الذين تنكروا لمن كانوا يـظهرون لهم الـطاعة في الدين والدنيا.

ثم فهو مرتش.. يبيع كل ما يملكه إنسان شريف بولاية الري.

وسـار عمر بن سعـد يقوده هـذا الثلاثي يجـر خلفه جيشـاً ضخماً، فيـه عشرون ألـف رجل.

* * *

وفي اليوم الثالث من المحرم وهو يوم الجمعة (٧ تشرين الأول) طلعت هوادي الخيل على كربلاء تزحف كالجراد الهائل ترتفع من تحت حوافرها عواصف من الغبار، تعلو لتحجب عن القافلة المقدسة منظراً، لو لم تكن القافلة مقدسة بالفعل، لحسبت لهم ألف حساب أو لتمنت من الخوف، أن تبتلعها الأرض، أو تكون لها أجنحة فتطير وتهرب. ولكن القافلة مقدسة وأقدس منها قائدها العظيم، الذي وقف خلفه الرفاق مرفوع الرأس، مرفوع الصدر وقد نسي أن معه أطفال، منهم الرضيع وغير الرضيع، ومنهم النساء، منهن الأم والفتاة، والصبايا الصغيرات.. كما نسي نفسه وكل ما بنفسه.. بل ونسي أن هذا الجيش الزاحف الذي يعد عشرون ألف رمح وعشرون ألف سيف، وآلاف الجياد وعشرات الألوف، بل مئات الألوف من السهام القاتلة.. نسي أن هناك قتل. هناك حقد في القتل.. هناك على الأقل سبي وذل السبي لأكرم وأشرف من حملت الأرض بعد الرسول وعلي.. نسي كل ذلك ولم يذكر إلا شيئاً واحداً، هو الإسلام، أو بمعنى آخر دين جده.. أو بمعنى آخر أمر الله.. أو بمعنى آخر أمر رسول الله.. فالإسلام في خطر وعليه أن ينقذه مهما كلف الأمر.. بقتله.. بتقطيعه.. بسبي نسائه وأطفاله أو قتلهم.

ولم ينس مع كل هذا، تلك الفئة الصغيرة الصغيرة جداً، أمام ذلك الجيش الهائل.. فئة الرفاق التي تعلقت، أرواحهم بروحه ووقفت أجسادهم أمام جسده، تأبى أن تمس شعرة منه، إلا والأعداء يدوسون جثثهم.

* * *

وتقدم الجيش، وأخذ يقترب رويداً رويداً، فترتفع من تحت حوافر خيوله، أصوات كهدير الأمواج الهائلة، أو ضجيج الرعود المتواصلة، أو كأن الأرض تزلزل زلزالاً عنيفاً يمتزج ذلك بصليل السلاح وجلبة أصوات الرجال.

وهب الرفاق يقفون خلف الحسين.. وقف سعيد ونافع وهاني وزهير وحبيب وسويد وبرير، وتكاملوا اثنان وسبعون رفيقاً، يربطهم شيء واحد لا

يعرفه إلا الجبابرة. . وهو بيعة الفداء. . .

وأمامهم مباشرة وقف أبو الفضل بشبابه الفياض وطوله الفارع، ومنكبيه العريضين ونظراته النبيلة، والحسين أمامه وأمام الرفاق. . ينتظرون بصمت وصول هذا الجيش.

ووصل. . ترتفع فوقه الرايات تعلو الرماح وكأنها غابات لها أول، وليس لها آخر. . واقترب ووقف بصف طويل بعيد المدى.

وتقدم القائد مستطلعاً، وعلى فمه ابتسامة استصغار من تلك الفئة الصغيرة التي تحيط بالحسين. . ثم عاد يأمر جيشه بالنزول. وسرعان ما ضربت الخيام عن بعد وظهر معسكر يملأ كل تلك الدنى. .

وعاد الحسين والرفاق ودخل فسطاطه، ومعه بعضهم، ووقف الباقون يحيطون بالفسطاط والمخيم. وكان سعيد ونافع ووهب وجون يقفون أمام الفسطاط مباشرة وظهورهم إلى مدخله.

وإذا بفارس ينفصل عن الجيش ويتقدم نحو فسطاط الحسين. . ووصل وترجل، وتأمله الرفاق الأربعة ليروه رجلاً شديد البأس، وهو بكامل سلاحه. . وتقدم دون أن يحسب حساباً لأحد يريد الدخول إلى الفسطاط، فاعترضه سعيد قائلاً:

- (من أنت. . . إلى أين؟).

فقال الرجل بنبرة القوي المستهزىء:

- (أنا كثير بن عبدالله الشعبي، وأريد مقابلة الحسين).

فهز سعيد رأسه، وكأنه يقول له: لا يمكنك ذلك. وأضاف:

- (حتى يأذن لك مولاي).

فغضب الرجل، وقال منتهراً:

- (سأدخل). وتقدم، فإذا بيد سعيد تمتد إلى سيفه، ويقف أمامه

مباشرة، وصدره يكاد يلاصق صدره متحدياً. وبان الشر في عيني الرجل، وجرب أن يدفع سعيداً. إلا أن سعيداً كان كالصخرة.. ومد الرجل يده إلى سيفه وامتشقه قليلاً. وإذا أبو تمامة الصائدي يخرج من الفسطاط، وقد سمع ما جرى، فالتفت إلى الرجل، وهز برأسه دلالة على معرفته به، فقال:

- (ما تريد؟).

فقال الرجل:

- (أنا رسول).

فقال أبو تمامة:

- (انزع سيفك وضعه هنا).

فقال الرجل بتكبر:

- (لا والله، ولا كرامة).

فقال أبو تمامة:

- (فآخذ بقائمه وتكلمه).

فقال الرجل:

- (لا والله، ولا تمسه).

فقال أبو تمامة، وقد نفد صبره:

- (أخبرني بما جئت؟ وأنا أبلغه عنك).

فقال الرجل:

- (لا).

فقال أبو تمامة بهدوء:

- (لن أدعك تدنو منه.. فأنت فاجر فاسق).

فنظر الرجل حوله ليواجه بسعيد وهاني ونافع وجون وأبو تمامة، وهم

ينـظرون إليه، وليس على وجوههم أي تعبيـر، فـانفتـل مغضبـاً، ورجـع إلى عسكره، فقال أبو تمامة للرفاق:

- (هذا شر أهل الأرض، وأجرأ رجل على دم وأفتكه).

فتبسم سعيد، وهز برأسه كأنه يوافق على ذلك..

ومـا إن غاب الـرجل قليـلاً، حتى ظهر رجـل آخر يتجـه نحـو فسـطاط الحسين.. ووصـل فأراد الـدخول، فـوقف سعيد قبـالته ومـد يده لسـلاحـه، وأخذه، ثم فتح له الطريق فدخل، ووقف أمام الحسين، قائلاً:

- (يقول لكم القائـد عمر بن سعد، ما الذي جاء بكم؟).

فقال له الحسين:

- (كتب إلي أهل مصركم هذا، أن أقدم.. فـأما إذا كـرهتموني، فـإني أنصرف عنكم).

وخرج الرجل، واستعاد سـلاحه من سعيـد. وأبلغ عُمَرَ بـذلك. فكتب هذا لابن زياد يخبره به، فكان جواب ابن زياد:

- (اعرض على الحسين أن يبايع ليزيد، هو وجميـع أصحابـه، فإذا هـو فعل ذلك، رأينا رأينا).

فجمـع عمر قـواده وأبلغهم ذلك، فبـان الارتياح على البعض وخـاصـة الخـونة، لأن الإنسـان يستطيـع أن يغش الدنيـا كلها ولكن ضميـره فـلا، أمـا الباقون فحقدهم لم يرض.

ولكن.. لم تمض ساعات، وإذا بـرسالـة ثانيـة من ابن زياد تصـل إلى عمر، وفيها:

- (حل بين الحسين وأصحابه، وبين الماء، فلا يتذوقوا منه قـطرة، كما صنع بالتقي الزكي عثمان بن عفان).

وفرح الأكثر من القواد بهذا الأمر، ومنهم عمر نفسه فسرعان ما أمر أحد

الخونة، واسمه عمرو بن الحجاج، بقيادة خمسمائة فارس، ليحولوا بين الحسين والماء، الذي كان نهر الفرات يجري على بعد قليل من المعسكرين. وتحرك الأعداء على الفور، إلى شط النهر.

وبدأ الحقد يظهر، عبر عنه أحد الأعداء بقوله، بحيث يسمع الحسين وأصحابه:

ـ (يا حسين! أترون هذا الماء الرقراق الصافي، لن تذوقوه، حتى تموتوا عطشاً).

* * *

وعرف الجميع أن اللؤم والنذالة والحقد، هي جزء لا يتجزأ من هذا الجيش، ومن وراءه، وها هم بدأوا يبذرون ما في نفوسهم.

ومضى النهار. واحتاج الجميع للماء، واشتد بهم العطش وهناك نساء وأطفال ضجوا لذلك. والمكان صحراء والحر شديد. فتجمع الرفاق أمام الفسطاط ينتظرون قرار الحسين، فالماء أهم من السلاح لهم، وهم في هذا الوضع.

وخرج إليهم الحسين متمهلاً في إصدار القرار وأجال طرفه بهم واحداً، واحداً.. ثم التفت إلى العباس وقال مصدراً الأمر:

ـ (الماء حقنا.. اذهب أنت والبعض وآتونا به)

وتقدم العباس، ينادي من الرفاق واحداً بعد آخر، وكانوا كلهم من الشباب، وأولهم نافع وسعيد وهاني، حتى انتقى عشرين رفيقاً. ثم انتقى من الباقين ثلاثين فارساً، وكان منهم جون وعابس ووهب وسويد.. وقال لهم:

ـ (نذهب جميعاً.. العشرون معهم القرب لملئها بالماء، والثلاثون تكونون على جيادكم لحمايتهم.. أما الوقت فسيكون ليلاً.. وتفادوا القتل).

وأقبل الليل واستعد الجميع، وحمل سعيد ونافع وبقية الرفاق القرب، وامتطى الثلاثون فارساً جيادهم وساروا نحو النهر.

وبعد قليل وصلوا فتوقف الفرسان عن بعد، وتقدم العشرون بالقرب من الماء، فأحس الأعداء بهم، فوقفوا أمام النهر، وبأيديهم السيوف والرماح مشرعة، وتقدم قائدهم ليرى نافعاً، فقال له:

ـ (ما جاء بكم؟).

فقال نافع:

ـ (جئنا نشرب من هذا النهر الذي منعتموه عنا).

فقال القائد:

ـ (اشرب هنيئاً).

فتقدم نافع ورفاقه.. ورأى الأعداء القرب فتجمعوا يمنعونهم من التقدم من الماء، فقال نافع، وقد فهم قصدهم:

ـ (والله لن نشرب، والحسين عطشان هو وأهله).

فقال القائد مشيراً لجنوده للتقدم:

ـ (لا سبيل إلى سقي الحسين وأهله، فنحن هنا لمنع الماء عنهم).

وإذا بيد ترتفع في الظلام ثم لتهبط.. وكانت يد العباس.. ومعها هجم ثلاثون فارساً والعشرون رجلاً. وبدأت المعركة، صعبة ودقيقة فهم عليهم بملء الماء ثم تفادي القتل، وتجمع الفرسان يفتحون الطريق أمام القرب العشرين، لتملأ بصعوبة من النهر، ثم بصعوبة كبيرة يعودون، وهم يقاتلون. ولكن الأعداء قطعوا الطريق عليهم، فأشار العباس للفرسان بالتجمع حوله، ثم أمر نافعاً وسعيداً والرفاق العشرين بحمل الماء إلى المخيم. وبدأ العباس والفرسان الثلاثون بفتح الطريق ففتحت، فاخترقها الرفاق والعباس وهم يحمونهم حماية تامة من المهاجمين. وتم لهم ذلك بصعوبة كبيرة.. وتراجع العباس ومن معه والكل سالمون.. وأسرعوا نحو المخيم ليوزعوا الماء على الجميع، وخاصة الأطفال، فقد كانوا يشربون بنهم لشدة عطشهم.

وتنبه الأعداء لذلك، فأرسلوا على الفور خمسة آلاف فارس لمنع الماء

عن الحسين وأهله والرفاق، وانتشر الجنود على مدى طويل وكثيف على شاطىء النهر، وبذلك أحكموا الحصار على الماء. .

وكان ذلك يوم الأربعاء في السابع من المحرم أي بعد نزول القافلة بخمسة أيام.

* * *

وفي صباح اليوم التالي تقدم الحسين نحو جيش الأعداء ووراءه العباس والرفاق، ووقف قبالتهم، فوقف أكثرهم بصفوف متراصة ينظرون إليه، ورفع صوته قائلًا:

ـ (أنشدكم الله، هل تعرفون من أنا؟).

فقالوا:

ـ (نعم أنت ابن رسول الله وسبطه).

فقال:

ـ (هل تعلمون أن جدي الرسول وأمي فاطمة ابنته، وأبي علي وجدتي خديجة. . . . وأنشدكم الله، هل تعلمون أن هذا سيف رسول الله أنا متقلده، وهذه عمامته أنا لابسها؟).

فقالوا:

ـ (اللهم نعم).

فقال ينتهرهم:

ـ (فيم إذاً تستحلون دمي، ولواء الحمد في يد أبي يوم القيامة؟).

فقالوا:

ـ (قد علمنا ذلك كله، ونحن غير تاركيك حتى تذوق الموت عطشاً).

وما إن سمع النساء والأطفال كلام القوم، حتى استبد بهم الخوف وعلا بكاؤهم وصراخهم. . فالتفت الحسين مقطباً إلى العباس وابنه علياً الأكبر،

وقال لهما:

- (اذهبا واسكتاهن.. فلعمري ليكثرن بكاؤهن). فتوجه العباس وعلي الأكبر إلى خيم النساء..

وأخذت الأصوات من الجيش، تعلو من هنا وهناك منفردة ومجتمعة تواجه الحسين بقولها:

- (يا حسين.. يا بن أبي تراب.. لن ندعك حتى تموت عطشاً أنت ومن معك).

فنظر إليهم نظرة طويلة ولم يتكلم، وإنما كان لنظرته ألف معنى، ثم قفل راجعاً لفسطاطه يحيط به الرفاق. وجلس مهموماً متألماً حزيناً، وأكثر الرفاق بين يديه، بصمت ووجوم.. ثم إذا به يرفع رأسه ليقع بصره على عمر بن قرظة الأنصاري، فقال الحسين:

- «يا عمر بن قرظة الأنصاري».

فهب عمر وتخطى الرفاق، ووقف أمامه ملبياً.. فقال الحسين:

- «اذهب إلى عمر بن سعد، وادعه إلى اجتماع بيني وبينه الليلة».

فقال عمر:

- «سمعاً وطاعة يا مولاي». وذهب متجهاً نحو معسكر الجيش، حيث أفسحوا له الطريق. ووصل إلى فسطاط عمر بن سعد فاعترضه الذي اسمه كثير بن عبدالله الشعبي، الرجل الذي رفض أن يسلم سلاحه عند ذهابه رسولاً إلى الحسين، وقال له:

- «هات سيفك».

فقال عمر ببرود:

- «أنا رسول من مولاي الحسين لعمر بن سعد، ولم يأمرني مولاي بتسليم سلاحي، ولذلك لن أفعل».

فغضب كثير، وهجم على عمر يريد انتزاع السيف منه، إلا أن عُمَرَ أمسك بيديه يدي كثير بقوة، ثم جذبه إليه قليلاً ودفعه عنه فاندفع الرجل إلى الوراء مترنحاً وكاد أن يسقط. . وتجمهر كثيرون من الجيش، واستلوا سيوفهم يريدون الفتك بعمر، إلا واحداً منهم أخذ ينظر إليه نظرة طيبة، وسمع عمر بن سعد الجلبة فخرج ليرى جنوداً كثيرين من جيشه يتقدمون رويداً رويداً من عمر بن قرظة، وهو يقف ينظر إليهم متحدياً. . فوقف عمر بن سعد يأمرهم بالتراجع، فتراجعوا وهم يحدجون الرفيق بحقد، ودخل عمر بن سعد فتبعه النصير فقال له عمر:

- «نعم. . ما تريد؟».

فقال عمر بن قرظة بلهجة جافة:

- (إن مولاي الحسين يرغب إليك بالاجتماع به الليلة).

فتبسم عمر بن سعد ابتسامة المنتصر وقال:

- «لِمَ لم تسلم سلاحك؟».

فقال الرفيق:

- (لم يأمرني مولاي بذلك. . ولذلك لن أسلمه لأحد).

فتبسم عمر وقال:

- (قل لحسين إني سأجتمع به الليلة ومعي ابني وعشرون من قومي).

فاستدار الرفيق وعاد متمهلاً، ينظر بتحد لمن يعترضه. .

وأبلغ الحسين موعدَ الاجتماع.

* * *

وأقبل الليل. . فطلب الحسين ابنه علياً الأكبر وعشرين من الرفاق. وكان بينهم سعيد ونافع وجون ووهب وعابس وعمر بن قرظة وبرير وسويد. وتجمع الرفاق حول الحسين وعلي الأكبر، وسيوفهم معهم إلا نافع، فقد كان

يحمل قوساً وكنانة كبيرة فقال له سعيد وهم يسيرون للاجتماع:

ـ «ما هذا؟».

فقال نافع:

ـ «أخاف أن يغدر القوم بالحسين، وهذه كنانتي وبها مئة سهم كاملة صنعتها بيدي عندما كنت في بيتك بالكوفة».

فقال سعيد:

ـ «أرني». فناوله نافع واحداً فأخذ سعيد يتفرج عليها فإذا به يلاحظ كتابة محفورة فقدمها لعينيه ليرى اسم نافع عليها فتبسم سعيد وقال:

ـ «وهل حفرت اسمك على الكل؟».

فقال نافع:

ـ «كلها.. وفيها سهم واحد مسموم».

فأعاد سعيد السهم ليعيده نافع إلى الكنانة ويتابع السير، ويد سعيد على كتفه.. ووصلوا. فإذا بعمر معه ابنه واسمه حفص وأحد عبيده، وتقدم من الحسين محيياً بارتباك وطلب إليه أن ينفردا في خيمة ضربت خصيصاً. فأمر الحسين الرفاق أن يبقوا عن قرب وكذلك أمر عمر رجاله العشرين أن يبقوا عن قرب..

وما إن تم بالحسين وعمر الجلوس حتى قال الحسين:

ـ (ويحك يا بن سعد. أما تتقي الله الذي إليه معادك؟ أتقاتلني وأنا من تعلم؟).

فسكت عمر ولم يجب.. فتابع الحسين:

ـ (أنسيت قرابتنا؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي فإنه أقرب لك إلى الله).

فقال ابن سعد والنية خبيثة:

ـ (أخاف أن تهدم داري).

فقال الحسين:

ـ (أنا أبنيها لك).

فقال عمر:

ـ (أخاف أن تؤخذ ضيعتي).

فقال الحسين وقد كان يعرف سلفاً نيته:

ـ (أنا أخلف عليك خيراً منها).

فقال عمر:

ـ (لي عيال وأخاف عليهم).

فنظر إليه الحسين يتأمله، وقال وكأن شبح ابتسامة على فمه:

ـ (إذاً ماذا تريد)؟.

وكأن عمر دبت به الحياة فقال بسرعة:

ـ (بايع أمير المؤمنين).

فنظر إليه الحسين نظرة طويلة وقال متجاوزاً حتى أن يسمع أن يزيدَ أميراً للمؤمنين:

ـ (دعوني أرجع حيث جئت أو أذهب في هذه الأرض العريضة).

فقال عمر:

ـ (أنا أرضى بذلك ولكن لي أمير سأعود إليه).

وفي تلك الأثناء كان برير يجلس وقربه وهب الذي قال:

ـ «يا ترى ما سيكون بينهما؟».

فقال برير:

ـ «أعرف سلفاً ما بهذا الاجتماع».

فقال وهب متعجباً:

ـ «وكيف؟».

فقال برير وهو يسرح بطرفه:

ـ «أليس اسم هذه الأرض كربلاء؟».

فقال وهب:

ـ «نعم».

فقال برير وهو يعبس:

ـ «إذاً.. ما سيقوله الحسين لن يكون إلا حجة عليهم وهو مأمور من الله والرسول في أن يفعل ذلك».

وإذا بالحسين يخرج ومعه علي الأكبر وتقدم الكل يحيطون به.. ووصلوا للمخيم فأخبرهم علي الأكبر ما جرى فنظر وهب لبرير وقال:

ـ «صدقت يا برير».

فقال برير:

ـ «يا وهب.. ذكر الرسول هذه الأرض وبكى.. ومر أمير المؤمنين بها وبكى وليس هناك شك بعد قولهما فهما الصدق».

وكما وعد عمر بن سعد بإرسال رسالة إلى أميره، يخبره بها بما جرى بينه وبين الحسين كان.. فإذا بالجواب من ابن زياد يأتي مع شمر بن ذي الجوشن الذي رآه نافع بالقصر:

(لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه، ولا لتطاوله ولا تمنيه السلامة والبقاء، ولا لتعتذر إليه ولا لتكون له عندي شافعاً.. انظر.. فإن نزل الحسين وأصحابه على حكمي واستسلموا، فابعث بهم إلي سلماً وإن أبوا، فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم، فإنهم لذلك مستحقون. فإن قتلت الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره، فإنه عاق شاق قاطع ظلوم، ولست أدري إن هذا يضر بعد الموت شيئاً، ولكن على قول قد قلته، لأفعلن هذا

به، فإن أنت قضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فإنا قد أمرناه بأمرنا والسلام).

وكان مع عمر بن سعد بعض رجاله وبينهم الذي نظر إلى عمر بن قرظة النظرة الطيبة.

فقال عمر لشمر:

ـ (أفسدت علينا أمراً قد رجونا أن يصلح. والله لا يستسلم حسين إن نفس أبية لبين جنبيه).

فقال له شمر بلؤم متذمراً:

ـ (أخبرني بما أنت صانع. أتمضي لأمر أميرك وتقاتل عدوه؟ وإلا خل بيني وبين الجند والعسكر).

فنظر إليه ابن سعد مرتبكاً وقال:

ـ (لا.. ولا كرامة لك.. ولكن أنا أتولى ذلك فدونك فكن أنت على الرجالة).

وعلم الرجل ذو النظرة الطيبة أن القتال سيبدأ لا محالة. فتسلل وخرج ثم اتجه إلى مخيم الحسين وهو يمشي بحذر حتى توسط الطريق، فانطلق راكضاً. ولدى ذلك نظر بعض الجنود، فأخذ أحدهم قوساً وسهماً، وسدد إليه وأطلق، وعلى الفور أصيب الرجل فسقط ثم نهض وهو يسرع في مشيه ويسقط ثم يعود للوقوف ثم يسقط.. ثم يعود للوقوف.

* * *

الوقت عصر والحر شديد والكل في خيمهم.. وكان مخيم الحسين وهو يبدو عن قرب والهدوء يسيطر عليه والسكون يجلببه إلا من أصوات أطفال يبكون بين الفينة والفينة يطلبون الماء.. الماء الذي كان بالأمس عشرون قربة لم تكف القافلة بمن فيها إلا توزيعاً واحداً.. والرجال والنساء يتحملون

العطش، ولكن الأطفال وخاصة الصغار منهم فهو فتاك، لذلك كان يسمع بين الفينة والفينة بكاؤهم بأصواتهم البريئة وهم يطلبون الماء. . وكانت كل صرخة تأتي لمسامع الرجال كالطعنة وأصاب الحسين منها أقواها لأنه كان أباً أو عماً. . ولكن كان كل صوت يعطي الحسين صلابة أكثر. .

* * *

وظهر غلام يركض من مخيم النساء إلى خيمة سعيد ورفاقه وأسرع بالدخول ليتوجه إلى سعيد ويهمس باذنه بكلمات، فوقف وخرج متوجهاً إلى حيث جميلة، فرآها في خيمتها تنتظره مرتبكة. . وما إن أطل حتى واجهته وهي تكاد تختنق بالبكاء:

ـ «سعيد. . الأطفال يريدون الماء».

فقال سعيد وهو يعلم ذلك:

ـ «يا جميلة أغلب الظن سيبدأ القتال قريباً، والطريق مفتوح أمامك وأرى أنك خائفة والحياة أمامك».

فقالت مستنكرة:

ـ «أنا خائفة!. وأنا أذهب!. . حياتي مع أهل بيت الحسين وموتي معهم». وسكتت قليلاً وتابعت:

ـ «لو عرفت أي قوم هنا. لو تعرفت إلى سيدتي زينب، لهان عليك الموت ولو قطعت إرباً، إنها قطعة من رسول الله. . قطعة من أبي الحسين. . النبل، الصدق، العبادة، الطهارة، النقاء، الرحمة، النجدة». ثم تمعنت به وقالت بإصرار:

ـ «أتعرف يا سعيد لو نشب القتال وأمرتني أن أقاتل. . سأقاتل».

فتأملها باستغراب. . ثم قالت بألم:

ـ «هؤلاء الخنازير يمنعون الماء عن النساء والأطفال». ثم غصت بالبكاء وأكملت:

ـ «تصور يا سعيد إن عبدالله الرضيع جفت محالب أمه من العطش فهو يبكي يريد أن يرضع . . وأمه يجب أن تشرب».

وما إن سمع ذلك سعيد، حتى ترك جميلة مغضباً وخرج من الخيمة وهو يشعر بألم لم يستطع تحمله، وعاد لينضم إلى رفاقه وعيناه مملوءتان بالدموع، وجلس ينظر إليهم واحداً واحداً ثم وضع رأسه بين كفيه وأخذ ينتحب بصمت.

فهب نافع ووهب وجون وهاني يتحلقون حوله، يسألونه باهتمام عن السبب وفتح فمه ليتكلم، وإذا بأحدهم يقف بباب الخيمة ويقول صارخاً:

ـ «هناك جريح يأتي إلينا من معسكر العدو».

فهب البعض منهم وهب وسعيد، ليروا الرجل صاحب النظرة الطيبة، يمشي قليلاً مترنحاً ثم يسقط فركضوا إليه ليحملوه، وقال بصوت ضعيف:

ـ «خذوني للحسين».

فتوجهوا به إلى الحسين الذي كان يقف ومعه العباس وبعض الرفاق يستطلعون الخبر. . ووضعوه أمامه فانحنى عليه الحسين متسائلاً باهتمام:

فقال الرجل وهو يجود بأنفاسه بصوت متقطع:

ـ «سامحني يا مولاي . . أنا من جيش العدو . . وكنت نويت نصرك . . فهل لي من توبة؟».

فقال الحسين:

ـ (تاب الله عليك وغفر لك).

فابتسم الرجل، وأكمل يخبره برسالة ابن زياد مع شمر بن ذي الجوشن، وأن القوم على أية حال سيحاربونه . . وما إن انتهى من ذلك حتى نظر إلى الحسين نظرة طويلة ومات . . فوقف الحسين ليقول بصوت هادىء عميق:

ـ «منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر. . رحمك الله».

وما إن أتم كلامه حتى سمعوا ضجيجاً، فالتفت الجميع فإذا بهم يرون آلافاً من الرجالة المسلحين يهجمون متجهين إلى فسطاط الحسين.

* * *

وبسرعة خرج العباس راكضاً، وامتشق سعيد ووهب وهاني ونافع وجون سيوفهم ووقفوا عن بعد من فسطاط الحسين وقد نسوا كل ما حولهم وكل ما يصلهم بالحياة والدنيا، وأصبحوا عيوناً تنتظر المهاجمين على فسطاط الحسين الذي وقف بالباب مستغرباً الهجوم.

أما العباس فوصل إلى ناحية مخيم النساء حيث سيطر الخوف على من هناك وانقلب صراخ الأطفال لينبىء عن الرعب الذي هم فيه، وقد نسوا عطشهم وجفاف أجوافهم.

ووقف العملاق وقد امتشق سيفه. . وهجموا عليه وبدأ القتال بين مئات وفرد.

وفي ناحية الفسطاط كان المهاجمون وصلوا ليجدوا سيوف سعيد ورفاقه بانتظارهم وبدأ الاشتباك.

ويظهر أن المهاجمين قد استهانوا بأصحاب الحسين، لذلك عجلوا القتال وظنوا أنهم سيبيدونهم بأقل من ساعة. . ولهذا كانت المفاجأة والبغتة تعلو وجوههم عندما رأوا أن مئات تقاتل ولم تستطع زحزحة ستة منهم بل إن هؤلاء بدأوا بعد قليل يهزمونهم.

وبنفس الوقت كان العباس يوالي هجماته من هنا وهناك على طول مسافة مخيم النساء وكانت ضرباته عنيفة صارمة، حيث أن الواحد من الأعداء لم يكن ليحتمل أكثر من ضربة واحدة.

ومضى الوقت فلا أولئك استطاعوا زحزحة الرفاق عن فسطاط الحسين ولا هؤلاء استطاعوا التقدم شبراً نحو مخيم النساء.

أما النساء والأطفال فبعد أن تأكدوا من أن المهاجمين لم يصلوا إليهم أخرجوا رؤوسهم ليروا ما هناك، فإذا بهم يرون العباس وكأنه مئة رجل، أو ألف رجل يقاتل قتالاً شديداً فيه ذكاء ووعي ورباطة جأش كما فيه تخطيط يثير الإعجاب وقوة خارقة.

ونسي الأطفال عطشهم والنساء خوفهن وهم يرون مئات من المهاجمين يتراجعون رويداً رويداً أمام ذلك العملاق الذي اسمه العباس، وقد أسقط في أيديهم أول الأمر، ثم بان عليهم الخوف وكل واحد تطاله يد العباس يتلقى ضربة قاضية.. وتراجعوا مذعورين.

وكان الرفاق قد رأوا المعركة.. فهبوا جميعاً.. الشيخ منهم والكهل والرجل والفتى وبدأوا بحركة دامت لحظات.. هذا يدخل خيمته يأتي بسلاحه، وهذا يركض من هنا، وهذا يمتشق سيفه، وهذا يتناول ما تطاله يده من رمح أو سيف معلق في سرج فرسه، أو عمود خيمته، أو قوساً معلقاً بأحد الأطناب.. وما إن كان الأعداء تظهر عليهم الهزيمة، أمام الرفاق قرب فسطاط الحسين، وأمام العباس قرب مخيم النساء، حتى كان جميع الرفاق يحيطون بمخيم الحسين إحاطة تامة ووقفوا وقفة أقل ما تدل أنها إعلان لجميع الأعداء أن الرفاق على استعداد تام لهجوم الجميع.

ومن جهة ثانية خرج شباب آل محمد من خيمهم كلٌ يحمل سيفه، وعلى رأسهم علي الأكبر، وذهبوا فوراً يهرولون نحو مخيم النساء، فوجدوا الأعداء يتراجعون، فأحاطوا بالمخيم ظهورهم له ووجوههم نحو الأعداء.

وأتى فارس مسرعاً من ناحية معسكر الأعداء صارخاً:

- «بأمر الأمير.. عودوا إلى مراكزكم». فتوقف القتال وأخذ الأعداء يتراجعون شيئاً فشيئاً.

وهدأ كل شيء.. فعاد العباس تاركاً حراسة المخيم للشباب، ورجع إلى فسطاط الحسين وهو يعيد سيفه لغمده، كما أعاد الرفاق سيوفهم وسط

إعجاب الجميع، وتقدم عابس منهم وأخذ ينظر إلى كل واحد بدوره وهو يقول بإعجاب:

- «أبطال.. والله أبطال».

ورجع الحسين للداخل، ومعه العباس وحبيب وزهير وبرير وجابر بن عروة الغفاري ومسلم بن عوسجة وأبو تمامة الصائدي أما الباقون، فقد بقوا في مواقفهم يحكمون الحصار على المخيم.

* * *

ولم يمض وقت طويل، حتى أتى فارس من معسكر الأعداء متجهاً نحو مخيم الحسين، فعرفه الرفاق على الفور أنه قائد المشاة فقال نافع لسعيد ورفاقه:

- «هذا شمر بن ذي الجوشن.. رأيته عند ابن زياد في القصر وهو لئيم، فاسق، نذل، لا يرعى لله حرمة ثم انظروا إليه فكل ما به كريه».

ووصل شمر وصاح بأعلى صوته:

- (يا عباس، يا عبدالله، يا جعفر، يا عثمان).

فسمع الحسين صوت شمر فقال للعباس:

- (أجيبوه فإنه بعض أخوالكم وإن كان فاسقاً).

فتلفت المنادون إليه، وواجهه العباس قائلاً:

- (ما تريد؟).

فقال شمر:

- (أنتم يا بني أختنا آمنون.. وقد أخذ لكم خالكم عبدالله بن مخلد الكلابي الأمان من الأمير والأمان معنا).

(وأبرز شمر كتاب الأمان.. وكان الأخوة الثلاثة، قد تقدموا وانضموا للعباس، الذي نظر إليهم فإذا بوجوههم يبدو عليها الغضب، وكأنهم

سيشتمون شمراً، فأشار لهم بالسكوت، ورفع صوته الجهوري وقال:

ـ (لا حاجة لنا بأمانكم، أمان الله خير من أمان ابن سمية). (سمية جدة ابن زياد).

وكان برير ككل الرفاق ينظر لما يجري، وقربه كالعادة وهب فقال برير:

ـ «هذا ابن أبيه».

فقال شمر:

ـ (لا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين والزموا طاعة يزيد).

فقال العباس مغضباً:

ـ (تبت يداك ولعن ما جئتنا به من أمانك يا عدو الله.. أنترك أخانا وسيدنا الحسين وندخل في طاعة اللعناء أولاد اللعناء؟).

وقال الأخوة الثلاثة:

ـ (لعنك الله ولعن يزيداً ولعن أمانك أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟).

فقال برير مدمدماً:

ـ «لا فض فوكم.. لا غرابة.. وأنتم أبناء أمير المؤمنين»

فقال وهب متعجباً:

ـ «كيف يقولون ذلك لخالهم؟».

فقال برير:

ـ «إن هذا اللعين شمر ليس خالهم ولكنه من قبيلة أمهم فهو لذلك يعتبرهم أبناء أخته.. حتى ولو كان خالهم حقاً، فهو يستحق قولهم لأنه فاسق شرير.. بل إنه كافر.. بل ليس هناك كلمة تستطيع وصفه بها.. يكفي أن تنظر إليه لتعرف أن الكلب أفضل منه».

والتفت نحو شمر وقال:

ـ «انظر إليه . . إنه يرجع إلى معسكره الذي بمن فيه نسخة عنه وانظر لكل هؤلاء الفتيان من أهل البيت بل إلى رجالنا جميعاً فلا ترى إلا النبل يطل من عيونهم».

وما إن وصل شمر إلى المعسكر حتى دبت الحركة بالجيش.

وعلا صوت من هناك صائحاً:

(يا خيل الله اركبي . . وبالجنة أبشري).

* * *

وتجمعوا أثر ذلك بصف هائل، طويل المدى، كثيف البعد، ورفعت الأعلام، وتقدمت الفرسان المشاة وتشكلوا فرقاً ثم بدأ الزحف . .

وكان ذلك بين العصر والغروب.

وأدرك الجميع . . الحسين وأهل بيته والرفاق أن ذلك معناه الهجوم . . فتمسك الأطفال بأمهاتهم. ومن ليس له أم تمسك بعمته أو أخته أو قريبته بخوف ورعب . . وتجمع النساء حول السيدة زينب، وكانت منهن جميلة، وهانية زوجة وهب . . والجميع . . وجوههم مصفرة وقد جف اللون منها لما كابدوه من العطش، فهم لم يشربوا مدة يوم كامل . . ولكن الخوف أنساهم ذلك، وبدأوا يتطلعون لبعضهم بنظرات تفتت القلوب، ثم ينقلونها إلى ذلك الجيش الزاحف بعدته وعدده، فيزداد خوفهم حتى كثيرات منهن انهارت أعصابهن وجلسن يبكين مجهشات.

أما الرجال . . فقد تعلقت عقولهم وكل مشاعرهم بقبضات سيوفهم وفقط، فتحولت نظراتهم إلى مراقبة واستعداد وكأن عيونهم لا ترف . .

وقال العباس للحسين بهدوء:

ـ (مولاي . . أتاك القوم).

فقام الحسين ووقف بباب الفسطاط، ومعه من كنا ذكرنا من الرفاق . . وقال:

ـ (اذهب يا عباس حتى تلقاهم واسألهم ما بدا لهم).

فأسرع العباس إلى جواده يمتطيه، وفعل مثله حبيب بن مظاهر، وزهير بن القين، وبرير، وسعيد، ونافع، وجون، وسويد، ووهب، ومسلم بن عوسجة، وأبو تمامة الصائدي، وغيرهم من الرفاق حتى أصبحوا عشرين فارساً وأسرعوا نحو القوم يتقدمهم العباس، ووصلوا فوقف الزحف وكان على رأسه عمر بن سعد.

وتقدم العباس وعن يمينه زهير وعن يساره حبيب وقال:

ـ (ما بدا لكم؟).

فقال عمر:

ـ (جاء أمر الأمير عبيدالله بن زياد أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم).

فقال العباس:

ـ (سأرجع إلى أبي عبدالله فأعرض عليه ما ذكرتم).

وعاد العباس لوحده، وبقي العشرون. واغتنم الفرصة زهير وحبيب وسويد فأخذوا يعظونهم ويبينون للجميع أن قتال الحسين خرق لحرمة الله والرسول، وخاصة هم في شهر محرم الحرام، وأنهم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. ثم بينوا لهم أن الحسين لا يريد منهم بعد نكثهم عهودهم له إلا بتركه يذهب في هذه الدنيا العريضة، أو يعود حيث أتى.. وهم يصرون على أنهم لن يقبلوا حتى يبايع يزيداً وينزل تحت حكمه وحكم ابن زياد..

فقال برير لوهب:

ـ «إن الحسين لن يبايع.. ولن ينزل تحت حكم يزيد ولن يمد يده لشخص مشبوه بنسبه».

فقال وهب متسائلاً:

ـ «مشبوه بنسبه؟».

فقال برير:

ـ «ألا تذكر قصة زياد والتحاقه بنسب أبي سفيان؟».

فقال وهب:

ـ «اذكر».

فقال برير:

ـ «وهذا عبيدالله ابنه. ومرجانة التي هي أمه، كثيرون يشكون أن زياداً أباه».

وعاد العباس وكان قد أخبر الحسين بما قاله القوم فإذا بجواب الحسين:

الجواب الذي كان بداية لنهاية معارك الإسلام الكبرى ومقارعة الكفر بالإيمان، ووقف عملية تحريف الكتاب والسنة وإعادة الحق لمجراه وإضاءة الشعلة المقدسة.

لأن الجواب كان إصدار الحكم التاريخي الرهيب. ولم يتضمن الحكم اسم يزيد، ولا اسم عبيدالله بن زياد، أو غيره، لأنه، كان حكم الله ضد الشيطان، وحكم الخير ضد الشر، والإيمان ضد الكفر، والعدل ضد الظلم، والحرية ضد العبودية، والحق ضد الباطل، وإعادة الإنسانية الأصيلة بإنسانيتها، إلى مفاهيم الإسلام الحقيقية التي أنزلها الله سالمة سليمة، بعد أن تلاعبت بها الأطماع والشهوات والمصالح.. أما يزيد وعبيدالله فلم يذكرهم الحسين بحكمه، لأن هؤلاء هم ممثلون فقط وعبيد للشر والكفر والظلم والاستعباد والباطل، فقد نظر إلى العباس وقال:

ـ (ارجع إليهم فإن استطعت فأخرهم إلى غدوة، وتدفعهم عنا هذه العشية، لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفر له) وسكت قليلاً ليكمل قوله بصوت أبناء الأنبياء:

ـ (فهو يعلم أني كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار).

وقف العباس برهة، ينظر إلى الحسين نظرة الحب المشفقة والحنان العميق، نظرة أخٍ لأخيه من لحمه ودمه، وخياله يتصور ما سيكون بعد هذا الحكم، ملخصاً بكلمة واحدة هي «مذبحة». وهناك نساء وأطفال وشباب وفتيان كالورود، وأصحاب مثاليون. ولم تطل نظرته حتى تحولت إلى نظرة صارمة، فوقف مشدود القامة، مرفوع الرأس، وقد أصبحت نظرة جندي أمام قائده الأعلى للدين والدنيا.. وقفل راجعاً للقوم قائلاً:

ـ (يطلب منكم مولاي أن تكفوا عنه اليوم).

ورفض عمر بن سعد بادىء الأمر متعجلاً القتال إلا أن أحد الخونة وهو عمرو بن الحجاج الزبيدي قال له معترضاً:

ـ (سبحان الله.. والله لو أنهم من الترك أو الديلم وسألونا مثل ذلك لأجبناهم وكيف وهم آل محمد؟).

ولكن ذلك لم يكن سبب رجوعهم عن القتال بل إن الحقد تمثل بشخص يهمس بأذن عمر بقوله:

ـ «لم يستبد العطش بعد بالرجال، وأراهم كالأسود الضواري، وبينهم أبطال الماضي والحاضر.. فدعهم حتى الغد فإن لم تقتلهم أنت يقتلهم العطش فسيكونون أهون علينا من مقاتلة أطفال».

ورضي عمر بن سعد بذلك، وعاد بجيشه إلى مراكزهم. وعاد العباس بالرفاق إلى مخيمهم ليجتمعوا حول الحسين الذي أخذ ينظر إلى الشباب من أهل بيته، وولده، وأخوته، وأبناء أخوته، وأبناء عمومته، ثم إلى الرفاق.. أخذ ينظر إليهم بصمت كئيب وحزن دفين، ثم استأذن ليدخل أخبية النساء، وإذا بأصواتهن تعلو بالبكاء والعويل والنحيب، مما أبكى الرفاق جميعاً فقال وهب لبرير بألم فظيع:

- «دخل ليودعهن».

فقال برير وهو يبكي:

- «بأبي أنتم وأمي أهل البيت».

وعاد الحسين وهو يكفكف دموعه..

وكانت الشمس قد غابت وأظلمت الدنيا إلا من ضياء القمر ينتشر هناك بمسحة خفيفة إذ كان في الربع الأول من شهر محرم. (وطلب الحسين من الشباب والرفاق الاجتماع به عند قرب الماء، وهو مكان بعيد قليلاً عن المخيم، وخاصة عن أخبية النساء، وسار أمامهم، وساروا خلفه بصمت كئيب.. ووصلوا فأشار لهم بالجلوس، وبقي هو واقفاً أمام الجميع وقربه العباس.. وقد جلس أخوته بكتلة وأبناء أخوته بكتلة وأبناء عمومته بكتلة وأبناؤه بكتلة قريباً منه. وجلس الرفاق أمامه وكأن على رؤوسهم الطير).

وأجال الحسين بصره بالكل واحداً واحداً. ثم قال بلهجة ثابتة وصوت هادىء كله نبل:

- (أثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء).

ثم سكت قليلاً وعاد ينظر إلى الجميع ثم قال:

- (اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة فاجعلنا لك من الشاكرين).

ثم سكت قليلاً وتنهد وقال:

- (أما بعد..

فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي. ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي..).

فتمتم برير برقة وهمس:

- «بدأت بنا يا مولاي؟».

وأكمل الحسين:

ـ (فجزاكم الله عني خيراً. ألا وإني لأظن لنا يوماً من هؤلاء.. ألا وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً، في حل ليس عليكم مني ذمام.. وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرقوا في سواد هذا الليل، وذروني وهؤلاء القوم فإنهم لا يريدون غيري) وسكت..

وسكت الجميع لبرهة وأخذ يشعر كل منهم بصراع عنيف بداخله، حتى إن كثيرين لم يستطيعوا مقاومته إلا بإخفاء رأسه بين يديه ينتحب بصمت..

ووقف العباس ليقول بصوته الجهوري وكأنه الرعد:

ـ (ولم نفعل ذلك؟. ألنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً)..

(وأخذ الواحد والآخر من أهل بيته، يقول مثل ذلك، بل أخذ يقف الاثنان والثلاثة ليقولوا بنبرة شديدة مثل ذلك القول مستنكرين تركه).

(فنظر الحسين للكتلة التي تمثل أبناء عقيل والد مسلم بن عقيل وقال:

ـ «حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم.. واذهبوا فقد أذنت لكم»).

فوقفوا ليقولوا بإصرار صارخين:

ـ (فماذا يقول الناس لنا؟ وماذا نقول لهم؟ أنا تركنا سيدنا وبني عمومتنا، وهم خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف.. ثم لا ندري ما صنعوا؟ لا والله ما نفعل. ولكننا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك.. فقبح الله العيش بعدك).

فنظر الحسين إلى الرفاق ليسمع قرارهم.

وعلى الفور وقف مسلم بن عوسجة وقال بعزم ولهجة شديدة:

ـ (مولاي.. أنحن نخلي عنك؟ وقد أحاط بك هذا العدو وبم نعتذر

إلى الله في أداء حقك؟ لا والله لا يراني الله أبداً وأنا أفعل ذلك، حتى أكسر في صدورهم رمحي. . وأضاربهم بسيفي ما ثبت قائمة بيدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، ولم أفارقك أو أمُت معك).

وجلس وهو يرتجف تأثراً.

ووقف سعيد.

فتحولت إليه الأنظار وخاصة رفاقه، وقال بقوة:

- («مولاي. .

لا والله يا بن رسول الله لا نخلِّك أبداً، حتى يعلم الله أنا قد حفظنا فيك وصية رسوله محمد»). وسكت لحظة، ثم قال وكأنه يعد كلماته:

- («والله لو علمت أني أقتل فيك ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذرى، يفعل بي ذلك سبعون مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك. . وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة. . »).

وجلس بين نظرات الإعجاب من الجميع وخاصة رفاقه وهب وجون ونافع وهاني.

ووقف زهير بن القين ليقول بغضب وشدة وقد أعجب بسعيد والكل لموقفهم:

- («يا بن رسول الله. .

لوددت أني قتلت ثم نشرت ألف مرة، وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من اخوانك وولدك وأهل بيتك»).

ووقف عابس ونظر إلى الحسين نظرة طويلة وأراد أن يتكلم ولكن خنقته العبرة، فجلس متململاً وهو يضع رأسه بين كفيه ويتمتم:

- («أنا أخلي عنك؟. يا مولاي وابن مولاي؟ أنا أخلي عنك؟»). ثم يردد ذلك. . فتأثر الجميع. . إذ عبرت حركته وكلماته أوقع تعبير.

والتفت الحسين إلى أحد الرفاق وقال:

- («وأنت يا محمد بن بشير الحضرمي.. إن ابنك أسير. رحمك الله أنت في حل من بيعتي فاعمل على فكاك ابنك»).

فوقف الرجل وقال وهو يحدق بالحسين:

- («عند الله أحتسبه.. أنا أتركك؟ أكلتني السباع حياً إن فارقتك»).

وأخذ الرفاق يقفون الواحد تلو الآخر.. وقف سويد وجون ووهب وعمر بن قرظة الأنصاري ونافع بن هلال البجلي والكل.. وكل واحد يؤكد نفس الذي أشار إليه الذين تكلموا ولكن بطرق أخرى.

وعاد الحسين ينقل فيهم بصره واحداً واحداً وقد ارتسمت على محياه الشريف النبيل، ملامح الاعتزاز بأهله.. بأبنائه.. بأقاربه.. بأصحابه الشيخ منهم والفتى بالكبير والصغير وقال.. أو لنقل ودفع لهم الثمن. لم يكن مالاً. لا ذهباً ولا فضة، ولم يكن ولاية ولا صنيعاً واقطاعات.

كان الثمن، كلمة رأتها أبصارهم، وتحسستها أسماعهم، وقبضتها قلوبهم، فاحتضنتها صدورهم، وانتشت لها أرواحهم، وهذه لعمري هي تجارة المؤمنين في الحياة.. فالبضاعة هي الحق والمعاملة الكفاح في سبيل الحق، أما الثمن، فهو الذي دفعه أو قاله الحسين للجميع:

- «جزاكم الله خيراً». ومعها نظرة اعتزاز من مثل الحسين.

* * *

ثم طلب منهم أن يحفروا خندقاً وراء المعسكر على شكل نصف دائرة ويضعوا فيه القصب حتى لا يهاجمهم الأعداء من الخلف.

وعين القادة. فالراية لأبي الفضل العباس وبذلك هو القائد على القلب وهذا يعني أنه القائد العام. وعلى الميمنة زهير بن القين، والميسرة حبيب بن مظاهر. أي قسم جيشه إذا صح التعبير عن الرفاق الاثنين والسبعين لأن يسموا جيشاً، قسمهم إلى ثلاث فرق: الفرقة الأولى، وتعني الفرقة الوسطى، والثانية

الميمنة، أي الفرقة التي تكون على يمين القلب، والميسرة أي الفرقة اليسرى. وحيث إن ذلك الجيش اثنان وثلاثون فارساً وأربعون من المشاة، فقد كان عدد فرقة القلب عشرة فرسان ما عدا العباس وثلاثة عشر راجلاً. وكذلك عدد الميمنة ثم كذلك عدد الميسرة.

وباشر العباس عمله فعين على الفور عشرة من الحراس للحراسة في تلك الليلة، تستبدل كل ساعتين بعشرة أخرى أما أخبية النساء، فعين لها حراساً من شباب آل محمد.

ووقف الرفاق، وعادوا إلى المخيم وأخذوا يحفرون الخندق بهمة وصبر وصمت.. وما هو إلا وقت قصير، حتى كان يحيط بالمخيم خندق عريض عميق على شكل نصف دائرة.. ثم انتشروا هنا وهناك يجمعون الحطب والقصب ويرمونه فيه. وبعد الانتهاء عاد كل إلى مركزه.. بينما كان العباس وحبيب وزهير يضع لهم الحسين خطة القتال.

وعاد سعيد ونافع وجون ووهب وهاني إلى خيمتهم يرافقهم برير.

وعلا التكبير والصلاة في المخيم من كل نواحيه.. وطال ذلك وأخذوا يتعبدون ويستغفرون الله.. وتابع البعض ذلك بينما أخذ آخرون يصلحون سلاحهم.. هذا يشد قوسه ويسويه وهذا يتفقد سهامه وهذا يشحذ سيفه وذاك ينظم درعه.. ومن هؤلاء كان سعيد ورفاقه.. وبين ذلك كان برير يجلس بعد أن أنهى عبادته يراقبهم عن قرب واحداً واحداً ثم قال:

ـ «أعجبني قولك يا سعيد».

فقال سعيد وهو لم يزل يشحذ سيفه، بينما التفت بعضهم لسعيد، والباقون بقوا على ما هم عليه:

ـ «يؤلمني شيء واحد.. وهو أننا إذا قتلنا فسيبقى الحسين وحيداً.. وعند ذلك الطامة الكبرى».

الملحمة

أيها القارىء العزيز.

والآن، وقد وصلنا إلى معركة كربلاء العظمى. . معركة البطولات الأسطورية، المعركة التي هزت الدنيا. وستبقى تهزها إلى يوم القيامة. . المعركة التي أمر بها الله وأوصى بها الرسول ونفذها الحسين، وشباب آل محمد، وتلك النخبة من البشر، التي منها: حبيب بن مظاهر، ومسلم بن عوسجة، وزهير بن القين، وأبو تمامة الصائدي، وسعيد، ووهب، وعابس، ونافع، وجون، وسويد، وعمر بن قرظة الأنصاري، وكل تلك الفئة، من الاثنين والسبعين شيخاً وكهلاً ورجلاً وفتى الذين شاركوا في تسطير هذه الملحمة، التي أسميناها الملحمة الإلهية. . الملحمة التي قومت الاعوجاج، وأعادت الحق للحق، والإسلام للإسلام، والدين للدين، وأعادت سفينة الإسلام إلى طريقها الصحيح، بعد أن استولى على مركز الربان منها من لم يكن ذلك لهم فأضلوها، وساروا بها في غياهب البحار، حيث تلاطمت بها أمواجها الهادرة. . وكان أمر الله وتوقيت الرسول وظهور الحسين، وشباب آل محمد، وتلك الفئة التي سميناها بالرفاق، الذين سمعوا نداء الحق والحرية، فلبوا يقطعون البيد والصحاري، يلبون نداء الحسين فأتوا يقفون بين يديه،

وكلهم سمع وكل خلجاتهم طاعة.

* * *

والآن..

سأترك سرد بقية قصتنا لشاهد عيان. كان هناك.. كان مع الملحمة.. سمعها.. رآها.. تحسسها بعقله، بقلبه، بكل خلجة من كيانه، فحفرها على لوحة صدره، ومزجها بدموعه ودمه، فكانت معركة كربلاء.. ذلك هو التاريخ.

وللتاريخ نترك بقية القصة، ليقدم لنا الملحمة الإلهية.

* * *

مع بزوغ فجر صباح يوم الجمعة من التاسع من المحرم.. والأرض بيداء تمتلىء بآلاف مؤلفة من جيش يزيد وهي في خيامها التي تنتشر متقاربة في تلك الصحراء، عن بعد من مخيم الحسين.. والسماء زرقاء صافية عليها مسحة سوداء، بدأ الفجر يمحوها بلونه الأبيض، رويداً رويداً مبشراً بطلائع النور..

وكان السكون شاملاً، والهدوء مسيطراً على الدنيا، ولو لم يمزقه أذان مؤذن الحسين في ذلك اليوم، وعلى ما أعتقد لبقي الليل يخيم على بلاد الإسلام، ولم يطلع عليها فجر جديد، ونور جديد.

ومع الأذان تثاءبت طلائع النور من جهة الكعبة العظمى والمدينة المنورة، ثم من طلائع الحسين فامتزجت، فكانت صلاة لم تكن أكرم منها إلا صلاة الأنبياء.. صلاة أمها الحسين بأهله وأصحابه.. ولم تنته، بل لم يكن يريد الحسين وأصحابه أن تنتهي لولا ذلك الهدير الهائل الذي هز الأرض هزاً تحتهم، وأتاهم من ناحية العدو، الذي استيقظ متأهباً ليبدأ الزحف.. ولهذا أنهى الحسين الصلاة وأمر جيشه.. نعم جيشه.. جيشه العظيم.. جيشه الأسطوري الذي كان رغم أنه لم يبلغ المئة من الفرسان والفتيان والشيوخ

والكهول، حتى والقادة لم يبلغ المئة، إلا أنه كان جيشاً هائلاً لم تخلق الدنيا مثله، ولن تخلق كما سأقص عليكم:

* * *

أمر الحسين ذلك الجيش بالتأهب للقتال.. وما كان أروع استعدادهم وانتقالهم من الصلاة للقتال، ولست أدري أيهما أفضل، تلك الصلاة، أم ذلك القتال، وأغلب الظن لا أحد يدري إلا الله والرسول وعملاق الحكمة علي بن أبي طالب.

ودبت الحركة في جيش الحسين، وأخذ كلٌ يستعد.، فلم تمض لحظات، إلا والرفاق على أتم الأهبة.

وتجمع الأعداء.. وأنا أؤيد برير بتسميتهم صعاليك العقيدة، فتجمع صعاليك العقيدة، بعدتهم وعددهم وكامل سلاحهم، تجمعوا بصف طويل بعيد المدى، كجدار بشري هائل. ووقفوا هنيهة للتعبئة، فأمر عمر بن سعد عمراً بن الحجاج ليكون قائداً على الميمنة، وشمراً بن ذي الجوشن قائداً على الميسرة، وعروة بن قيس قائداً على الخيل، وشبث بن ربعي قائداً على المشاة، ثم أعطى الراية لعبدٍ له شديد المراس، اسمه دريد، وتشكلت الفرق.

وأما جيش الحسين، فقد تألف بلحظة وسهولة على ما قدمنا، وأمر بناقة فركبها، ودعا بمصحف فوضعه أمامه، ثم تقدم نحو الأعداء وخلفه العباس وعلي الأكبر، وبرير، ووهب، وسعيد، وسويد، وعن يمينه حبيب بن مظاهر، وعن يساره زهير بن القين، وهم على جيادهم. وشمل الأعداء بنظره، قائلاً بهدوء:

ـ «اللهم أنت ثقتي في كل كرب، وأنت رجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من كرب يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة مني إليك عن سواك، ففرجته عني وكشفته، فأنت ولي كل نعمة،

وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة».

ثم قال لبرير:

- «كلم القوم يا برير».

فتقدم برير حتى قرب منهم، وقال بأعلى صوته:

- «يا قوم، اتقوا الله، فإن ثقل محمد، قد أصبح بين أظهركم، هؤلاء ذريته وعترته وبناته وحرمه، فهاتوا ما عندكم وما الذي تريدون أن تصنعوه بهم».

فقال البعض منهم بلسان الجميع:

- «نريد أن نمكن منهم الأمير ابن زياد فيرى رأيه فيهم».

فقال برير:

- «أفلا تقبلون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي جاؤوا منه؟».

فسكتوا. فعرف برير، أو لنقل، تأكد من نيَّاتهم، فقال:

- «ويلكم يا أهل الكوفة، أنسيتم كتبكم وعهودكم التي أعطيتموها، وأشهدتم الله عليها؟ يا ويلكم، دعوتم أهل بيت نبيكم، وزعمتم أنكم تقتلون أنفسكم دونهم، حتى إذا أتوكم، أسلمتموهم وحلأتموهم (منعتموهم) من ماء الفرات؟».

ثم أضاف بغضب:

- «بئس ما خلفتم نبيكم في ذريته، ما لكم لا سقاكم الله يوم القيامة، فبئس القوم أنتم».

فأجابه البعض:

- «يا هذا.. ما ندري ما تقول».

فنظر إليهم برير باسماً بسخرية، وقال:

- «الحمد لله الذي زادني فيكم بصيرة.. اللهم إني أبرأ إليك من فعال

هؤلاء القوم. . اللهم ألق بأسهم بينهم حتى يلقوك وأنت عليهم غضبان».

وإذا بهم يرشقونه بالسهام فتراجع، وهو يهز رأسه غاضباً.

وتقدم الحسين نحو القوم حتى قرب منهم، وأمامه العباس وابنه علي الأكبر. وخاف الرفاق عليه، فتقدم سويد وسعيد ووهب على خيولهم، يرافقهم أكثر من عشرة منهم برير، الذي حاذى وهب، حتى وقفوا خلفه، وكان نافع معهم وقد وضع يده بمتناول قوسه، والكل يراقبه بعيون مفتوحة وآذان صاغية. .

وقف الحسين أمام الأعداء عن قرب، وأخذ ينظر إليهم رابط الجأش بصلابة ومهابة عظيمة، وقال رافعاً صوته:

ـ «الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال متصرفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرته، والشقي من فتنته، فلا تغرنكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء كل من ركن إليها، وتخيب طمع من طمع فيها. وأراكم قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته، وجنبكم رحمته فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمد، ثم إنكم زحفتم على ذريته وعترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولما تريدون. . وإنا لله وإنا إليه راجعون».

وسكت قليلاً، فلم يجبه أحد، فقال باحتقار:

ـ «هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم، فبعداً للقوم الظالمين».

فقال برير هامساً لوهب:

ـ «أترى هؤلاء الألوف المؤلفة. . إنهم بهائم على بهائم» فتبسم وهب.

وبين الأعداء. .

وعندما رأى ابن سعد أن لا أحد أجاب الحسين، قال لمن حوله من الرؤساء والقادة:

ـ «ويلكم كلموه، فإنه ابن أبيه، والله لو وقف فيكم هكذا يوماً جديداً، لما انقطع ولما حصر».

فتقدمِ عندئذٍ شمر بن ذي الجوشن وقال باستهزاء:

ـ «يا حسين ما هذا الذي تقول؟ أفهمنا حتى نفهم».

فقال الحسين بحيث يسمع الجميع:

ـ «أقول.. اتقوا الله ربكم ولا تقتلوني، فإنه لا يحل لكم قتلي ولا انتهاك حرمتي، فإني ابن بنت نبيكم، وجدتي خديجة زوجة نبيكم، ولعله قد بلغكم قول نبيكم: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.. و..».

وفجأة.. إذا بتحركات مريبة من الأعداء، وكأنها استعداد للهجوم، فتحرك الرفاق على الفور بالاستعداد للدفاع، والتفوا حول الحسين، بينما الذين بقوا قرب المخيم أخذوا ينظمون أنفسهم للقتال، فرفع عندئذٍ الحسين صوته عالياً قائلاً:

ـ «يا أهل العراق».

فتوقفوا ينصتون، فأكمل:

ـ «أيها الناس.. اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما يحق لكم علي، وحتى أعذر إليكم، فإن أعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، وإن لم تعطوني النصف من أنفسكم، فاجمعوا رأيكم ثم لا يكن عليكم غمة، ثم أقضوا علي ولا تنتظرون. إن وليي الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين».

عند ذلك تعالت أصوات نسائه وبناته بالعويل والبكاء من ناحية أخبيتهن.

فالتفت إلى العباس وابنه عليٍّ الأكبر، وقال لهما:

ـ «أسكتاهن، فلعمري ليكثرن بكاؤهن».

فقال برير، مدمدماً:

ـ «يلقي الحجة العاشرة».

وأكمل الحسين:

ـ «ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يصح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟.. ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدق برسول الله، وبما جاء به من عند ربه؟ أو ليس سيد الشهداء عمي؟ أو ليس جعفر الطيار عمي؟ أو لم يبلغكم ما قال رسول الله لي ولأخي هذان سيدا شباب أهل الجنة، فإن صدقتموني بما أقول وهو الحق، والله ما تعمدت كذباً، مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، وإن كذبتموني، فإن بينكم من إذا سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبدالله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي.. أما في هذا لكم حاجز عن سفك دمي؟».

فقال شمر، ساخراً:

ـ «هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول».

فانتهره حبيب بن مظاهر قائلاً على مسمع من الجميع:

ـ «والله لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما تقول، قد طبع الله على قلبك».

فأكمل الحسين:

ـ «فإن كنتم في شك من هذا، أفتشكون في أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم...

ويحكم.. أتطلبوني بقتيل قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟».

وسكت منتظراً الجواب، ولكن لم يرد أحد. فعاد الحسين ينظر إليهم

متأملاً من جديد، ثم رفع صوته منادياً بعض الخونة من القادة:

- «يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، يا محمد بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث.. ألم تكتبوا إلي إن (أينعت الثمار، واخضرت الجنان؟ وإنما تقدم على جند لك مجند؟). وسكت.

فتقدم أحد الخونة، وهو محمد بن الأشعث، من بين الصفوف، حتى ظهر للحسين قائلاً:

- «ما ندري ما تقول.. ولكن انزل على حكم بني عمك فإنهم لن يروك إلا ما تحب».

فقال الحسين، وقد اشتدت قامته، مرفوع الرأس والصدر، بصوت فيه رنة العزة والكرامة، كما فيه الطاعة الكاملة لله والرسول، وكما فيه أيضاً الاحتقار لكل من هم أمامه:

- «لا والله. لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد». وسكت قليلاً ليكمل، وقد تغيرت لهجته إلى الشدة:

- «يا عباد الله.. إني عذت بربي وربكم أن ترجمون. أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب».

ووقف هنيهة ينتظر، ولكن أحداً لم يجب. فعاد أدراجه للمخيم وحوله من كان معه، حيث جلس مفكراً، مهموماً، حزيناً، متألماً، والكل بصمت، يمزقه بين الفينة والفينة صرخة طفل يستغيث يريد الماء، أو صبية تنادي أمها لحمايتها.. ثم قام الحسين يتفقد أهله، ليقابل بالبكاء والعويل الممزوج بالخوف والرعب، من النساء. وهاله الأمر، وظهر عليه الارتباك، فعاد ليجلس مفكراً، بينما كان بعض الرفاق يراقبون تحركات القوم، وكان بينهم سعيد ونافع ووهب وهاني.. ودخل سعيد الفسطاط، حيث الحسين، وقال باهتمام:

- «مولاي.. القوم يستعدون للهجوم». وكان الحسين يعرف ذلك سلفاً، وهو يراهم من باب الخيمة، فالتفت ناحية العدو وقال وهو يزفر زفرة طويلة:

ـ «إنا لله وإنا إليه راجعون».

ثم نظر إلى العباس، وحبيب بن مظاهر وزهير بن القين القواد الثلاثة، فارتفعت رؤوسهم على الفور ينصتون لما سيقول، وبعد لحظة صمت والأعناق مشرئبة والآذان صاغية والعيون متنبهة...

... وكان الأعداء شكلوا صفوفهم، واستعدوا للقتال، ووقف أمامهم قائدهم عمر بن سعد متناولاً من أحدهم قوساً وسهماً، ثم يضع السهم في كبد القوس، ويوجهه ناحية معسكر الحسين قائلاً:

ـ «أشهدوا لي عند الأمير، أني أول من رمى».

وانطلق السهم طائراً، وتبعه آلاف السهام من العدو لتسقط على معسكر الحسين.

فقال الحسين، وهو يرى ما فعل القوم وكان ذلك نذير ببدء القتال:

ـ «قوموا، رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم».

* * *

وعلى الفور، توجه الجميع إلى ساحة المعركة، والوقت ضحى والشمس غمرت الدنيا، ووقف جيش الحسين قبالة جيش يزيد، أو جيش عبيدالله، أو جيش عمر بن سعد، أو يصح القول: جيش الكفر وصعاليك العقيدة.

واحد فقط من تلك الجموع كان ينظر لجيش الأعداء الذي هو فيه، تارة، وتارة إلى جيش الحسين، وتظهر على وجهه علامات الاشمئزاز والنفور والندم. كان ذلك الشخص هو الحر، قائد الألف، الذين اعترضوا الحسين أول الأمر.

وللمرة الأولى، وقف الرفاق يديرون ظهورهم للحسين.. وقفة لم يقفوها أبداً قبلها، ولاحظوا ذلك فشعروا بألم يحز بنفوسهم، عبر عنه برير

بالتفاتة إلى الوراء للحسين وهو أمام فسطاطه متمتماً:

ـ «عذراً يا مولاي».

وتشكلت الميمنة والميسرة، والقلب، واتخذ كل موضعه، أما شباب آل محمد، فقد كانت مهمتهم حول أخبية النساء، يحيطون بها إحاطة السوار، وهم ستة عشر شاباً وفتى منهم من لم يبلغ الرابعة عشرة بعد، وأكبرهم لا يتجاوز الخامسة والعشرين، وقيادتهم كانت لعلي الأكبر، شبيه الرسول.

وتقدم العباس بالراية، وهو على جواده مقنع بالحديد، ووقف أمام جيش الحسين، أو لنقل طلائع النور.

واتجهت الأنظار للأعداء، الذين رنوا باستخفاف إلى الرفاق، وعلى أفواههم ابتسامة سخرية، من هذه العدة اليسيرة العنيدة، التي لا تهاب الألوف ولا الموت، وحياتها كلها متعلقة بكلمة واحدة يلفظها الحسين.

وأجال العباس عينيه بتلك الجموع الهادرة، وإذا به يلاحظ كما رأى الجميع جدلاً وحديثاً يجري بين رجل وعمر بن سعد، وعرفوه على الفور، أنه الحر نفسه.

قال الحر لعمر:

ـ «أمقاتل أنت هذا الرجل؟».

فقال عمر:

ـ «إي والله، قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي».

قال الحر متسائلاً:

ـ «فما لكم فيما عرضه عليكم رضى؟».

فقال عمر، متنصلاً من خطورة وجريمة عمله:

ـ «أما لو كان الأمر إلي لفعلت، ولكن أميرك قد أبى».

ثم رأى الجميع الحر يخرج رويداً رويداً من بين الأعداء، ثم يركض

بفرسه، نحو جيش الحسين. وبسرعة كان نافع يركع إلى الأرض ويمسك قوسه وبه سهم ويسدده نحوه. . وكان الحسين يراقب كل حركة وسكنة بكل ما هنالك، فهتف:

ـ «دعوه، إنه منا». فتوقف نافع. وإذا بالحر يصيح، وهو يضع يده اليمنى على رأسه، والفرس يركض به:

ـ «اللهم إليك أنيب، فتب علي فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيك».

ونظر الرفاق إلى بعضهم بدهشة، وقد عرفوا أنه قادم لنصرة الحسين خارجاً من جيش صعاليك العقيدة، فأفسحوا له الطريق حيث أكمله، ووصل أمام فسطاط الحسين، لينزل عن جواده ويركع أمام الحسين قائلاً بلهفة:

ـ «جعلت فداك يا بن رسول الله. أنا صاحبك الذي حبسك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ولا يبلغون منك هذه المنزلة:

ثم قال بندم يكاد يذيبه، وصوته متهدج:

ـ «والله لو علمت أنهم ينتهون بك إلى ما أرى، ما ركبت مثل الذي ركبت، وإني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي، مواسياً لك بنفسي، حتى أموت بين يديك، فهل ترى لي توبة؟».

واتبع ذلك بنظرة طيبة تائبة صادقة. فتبسم الحسين وكأنه نسي ما به، وما يراد به وأهله، وكيف لا؟ وهو يرى إنساناً يهتدي بعد الضلال، ويؤمن بعد الكفر، وما هي رسالة الحسين لولا الهدى والإيمان؟ لذلك تبسم، وقال:

ـ «نعم يتوب الله عليك».

فوقف الحر، وقد تبدل كل ما به وظهر كأنه إنسان آخر وتقدم نحو فرسه، قائلاً:

ـ «أنا لك فارس خير مني راجل».

فقال الحسين، ولم تزل الابتسامة تشع من عينيه:

ـ «اصنع يرحمك الله، ما بدا لك».

واستوى الحر على فرسه، وتقدم أمام الرفاق وتوجه نحوهم، وأخذ ينظر إليهم واحداً واحداً بإعجاب... بحب، بإكبار، ثم لوى برأسه معتزاً بكل ما هناك، وأدار فرسه وتوجه نحو معسكر العدو، حتى اقترب منهم وصرخ رافعاً صوته، بقوله:

ـ «يا أهل الكوفة. لأمكم الهبل (الثكل) والعبر، أدعوتم هذا العبد الصالح حتى إذا جاءكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، وأمسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمه، وأحطتم به من كل جانب لتمنعوه التوجه في بلاد الله العريضة، فصار كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً، وحلأتموه وصبيته وأهله ماء الفرات الجاري، تتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه.. فهاهم قد صرعهم العطش، بئس ما خلفتم محمداً في ذريته، لاسقاكم الله يوم الظمأ».

وكان خروج الحر من جيش صعاليك العقيدة قد أغضبهم وزادهم قوله هذا، لذلك تقدم منه كثيرون يرشقونه بالسهام، فتراجع ليجد زهير بن القين يستقبله فرحاً، ويصافحه ويشد على يده، قائلاً:

ـ «أحسنت يا حر، وأنا أعتز بصداقتك».

فنظر الحر إليه نظرة حب وصداقة، ثم أعاد نظره للرفاق وقال لزهير:

ـ «أنتم أشرف مجموعة رأيتها بحياتي».

ثم انضم لزهير وأصبحا صديقين.

* * *

وفي جيش الأعداء بدأ التحرك. ثم الهجوم بصف طويل كثيف، وعلا وقع حوافر الخيل، وصليل السلاح، وشرعت الرماح، ونشرت السيوف.

ولم ينس الحر نفسه كقائد، فنظر إلى الرفاق بتعجب وتساؤل، كيف

سيصمدون أمام هذا السيل المخيف؟ ثم ما هي الخطة للدفاع حتى يدوم على أبعد تقدير ساعة أو أقل؟ . . وكان الجواب . .

صمت من الرفاق، ترقب بحذر، وهم يقفون كالتماثيل بدون حركة، بصف طويل وأمام كل فرقة رئيسها، وهم العباس وزهير وحبيب، وخلف العباس مباشرة كان جون ونافع وسعيد ووهب وهاني . . وقد بدوا كلهم بلا نظام، وكأن كل واحد منهم قائد نفسه، وله خطته بالقتال ولكن . .

وإذا بالعباس يرفع سيفه للعلاء، ولطوله وهو على فرسه، كان كأنه يطاول السماء. وبدأ جيش الأعداء يقترب رويداً رويداً، والرفاق لم يحركوا ساكناً واقتربوا.

وفغر الحر فمه بخوف وجزع، وهو يرى الأعداء يكادوا أن يصلوا، وليس بينهم وبين الرفاق إلا خطوات، والخيل تركض بهجوم صاعق.

ولكن . . إذا بسيف العباس ينزل أفقيا، وبلمح البصر تحركت تلك التماثيل على الفور تمسك الرماح فقط . . وبحركة ثانية من العباس بسيفه إلى أسفل، كان صف طويل من الرفاق يركع مشرعاً الأسنة، وبتلك اللحظة كانت صدور الخيل تظهر كالجدار، تلامس رؤوس الرماح مباشرة . . وبرعب وخوف أجفلت . . وبذلك ظهرت فرقة صغيرة من الرماة خلف الرفاق الراكعين، بدأت ترمي المهاجمين بسرعة وتسديد وإحكام، فبدأ على الفور القتلى والصرعى من الفرسان يهوون بكثرة من على جيادهم. ومن جهة ثانية بدأت الصفوف الخلفية لاندفاعها السريع تضرب بعضها بعضاً، واختل توازنهم وتنظيم صفوفهم، فترك الرماة من الرفاق أقواسهم والرماحة رماحهم وامتشقوا سيوفهم، ونظروا إلى العباس وهو يرفع سيفه إلى العلاء ثم يوجهه إلى الأمام، وبذلك بدأ هجوم موضعي وبدأت معركة أيقظت الحر من ذهوله فامتشق حسامه، وتقدم من زهير قائلاً بإعجاب شديد:

- «أبطال».

فنظر إليه زهير، نظرة كلها حب ثم هجم، وهجم الحر والرفاق وأمامهم

العباس يضرب ضرباً قوياً، كان كل من يطاله بضربة لا يحتاج لغيرها، فبدا كأنه وسط غابة من القصب يجزها جزاً، والرفاق من خلفه يحصدون الأعداء، كأنهم صف من النار في سهل من الهشيم، وكان أشدهم حبيب وسعيد ووهب وجون ونافع وسويد وعابس ومسلم بن عوسجة وأبو تمامة الصائدي وبرير والحر. . فحبيب كان يوجه ميسرته بحكمة ودراية وحنكة، ثم يبطش رغم كبر سنه بطشاً لا يضاهيه إلا ضرب سعيد ووهب بشبابيهما ونشاطيهما. وزهير يقود الميمنة بقلب مفعم بالإيمان، وكأنه لا يرى في الدنيا إلا شخصاً واحداً، ملأ حياته بالنور هو الحسين، فكان عنيفاً. أما سعيد ورفاقه فكانوا خلف العباس مباشرة، فقد نسوا كل ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ولم يعودوا يذكروا إلا اللحظة التي هم فيها، فعقولهم بحد سيوفهم وأرواحهم على أكفهم وقلوبهم عند فسطاط الحسين. وكانوا كالكتلة الواحدة يتحرك أحدها فتتحرك كلها، وهي تطعن وتضرب، وكل منهم له ميزة بحربه، فسعيد كان وكأنه يبارز فحركاته تستدعي التأمل لما بها من فن، ووهب كان لكل ما يأتيه خطة، ونافع كالبهلوان لا يكاد يفلت أحد منه، وهاني يكمل عمل الجميع. أما جون فكان مرعباً وهو يحمل سيفه بيمينه وترسه بيساره، وبدا وكأنه حطاب في كومة من الأغصان، وكان عليه أن يكسرها جميعاً بوقت قصير محدود. .

وكان الجميع وكأنهم يعملون عملية تنظيف لذلك السهل المغروس بالفرسان والرجال. . فبدا وكأن هناك مذبحة. . يسيطر عليها القتل والصمت إلا من صرخات ألم تتعالى متقاربة سريعة من جيش الأعداء يسقط بعدها العديد من الصرعى ليفرشوا الأرض بأجسامهم التي ملأت ساحة المعركة. .

* * *

وحمي وطيس المعركة، وعلا غبارها تحت أرجل الخيل والرجال المقاتلين، وغاص الرفاق، ومعهم الحر بين الأعداء، وتوالى سقوط القتلى والجرحى بكثرة. . ومضى الوقت. . وعلت البغتة وجه القائد عمر بن سعد ومعاونيه وسيطر عليهم الذهول. . إذ كانوا وقتوا لها توقيتاً لا يتجاوز الساعة

على أبعد احتمال وهذه الساعة تكاد تمضي ولكن جيش الحسين، طلائع النور تبدو صامتة صامدة ثابتة.

بل ما أشد عجبهم، عندما رأوا الهزيمة تبدأ فعلها بالعدو، واشتدت دهشتهم أكثر وأكثر عندما حلت الهزيمة بجيش ابن سعد بالفعل، وبدأ تراجعهم رويداً رويداً ثم إذا به يتحول إلى هرب.

نعم هرب الأعداء، ولم تكن مضت ساعة على بدء القتال. هربوا تاركين سهلاً فسيحاً مليئاً بالقتلى والجرحى وبينهم جيش الحسين يتخطاهم وهو يعود بعد أن لحق بالهاربين إلى مراكزهم.

هذا ما رآه عمر ومعاونوه. أما الرفاق فبعد تراجع الأعداء إلى الخلف شعروا بالنصر ولذة النصر فقويت عزائمهم وبدأوا يحسون كأنهم يقاتلون من جديد، فتبعوهم فملأ الرعب قلوب الأعداء فبدأوا بالهرب.. ولم تمض لحظات إلا وكانت فلول المهاجمين تولي الأدبار هاربة إلى قائدها.. وشد الرفاق خلفهم وهم يريدون فناءهم ولكن إذا بصوت القائد العباس يعلن بصوته الضخم الجهوري صارخاً:

ـ «بأمر مولاي الحسين لا تجهزوا على جريح ولا تلحقوا هارباً».

وتوقف الجميع عن اللحاق بالهاربين وهم يلاحقونهم بأنظارهم. فتبسم الحر وهو يشمل العباس والرفاق بإعجاب وقال:

ـ «قائد عظيم وجيش إيمان حقاً».

فقال برير بصوت مرتفع مبدياً رأيه بأمر العباس باعتزاز:

ـ «هي، هي نفسها بدر وأُحد والجمل وصفين.. القول ذاته من أهل البيت والفعل ذاته والقول من أعدائهم والفعل ذاته».

فتبسم الجميع، وعادوا أدراجهم ليقفوا أمام الحسين الذي كان طوال الوقت يراقب المعركة بلهفة وألم وحزن، يزيد ذلك أصوات النساء والأطفال الخائفة التي كانت تفعل فعلها الذريع بنفسه، والتي كانت عليه أشد وقعاً من

طعنات الرماح وضرب السيوف، ولكن ما إن رأى الهزيمة بالأعداء حتى أخذ ينظر بلهفة إلى المعركة والرفاق وهم يعودون ليقفوا أمامه، والكل شعث غبر ممزقو الثياب، والدماء تقطر من سيوفهم وأتراسهم وأجسامهم حتى لم يعرف منهم أيهم السليم وأيهم الجريح، ولكن كانت الحقيقة تدل بوضوح أن الجميع كانوا سالمين إلا من بعض الجراح الخفيفة في البعض.

ونظر الحسين إلى الرفاق، والمعركة، والعدو، فرأى النصر يرفرف فوق رأسه، فبدا مرتبكاً، وكأنه يعاني صراعاً داخلياً، يخير فيه بين النصر أو لقاء الله، وتنفيذ رسالة الله والرسول، فأرخى عينيه بانكسار وهو المنتصر، ثم توجه نحو الأعداء فأحاط به الرفاق على الفور وهم متعجبون من تصرفه، وصاح:

- «أما من مغيث يغيثنا لوجه الله.. أما من ذاب يذب عن حرم رسول الله».

وسكت الأعداء ولم يجيبوه. وتبسم برير وقال مدمدماً:

- «بأبي أنت وأمي يا بن رسول الله ما أعظمك. تطلب الغوث والنصر حليفك.. ولكنك يا مولاي لو كنت تريد النصر لأتيت بسبعين ألفاً والناس يسمونك ملك الحجاز، ولكنك تريد الله.. فانعم عيناً.. فنحن أمامك.. كلنا أمامك».

* * *

وظهر فارس من الأعداء يعدو بفرسه لمعسكر الحسين، فتلفت إليه الرفاق وصاح الحسين:

- «دعوه إنه من أنصارنا». ففتحوا له الطريق فوصل ونزل بسرعة عن فرسه ليقف أمام الحسين قائلاً والدموع تملأ عينيه:

- «مولاي.. أنا يزيد بن زياد بن المهاجر الكندي، أتيت إليك تائباً فتب علي يا مولاي وروحي لك فداء».

فتبسم الحسين بوجهه ابتسامة طيبة وقال:

- «يتوب الله عليك. فانفتل الرجل وذهب لينضم إلى الرفاق وهو يكفكف دموعه..

وطلب الأعداء من الحسين أن يأذن لهم بأن يأخذوا قتلاهم وجرحاهم من المعركة، فأذن فأتوا بالمئات ينتشرون هنا وهناك يحملون قتلاهم وجرحاهم الذين كانوا بالمئات.. وما إن انتهوا من ذلك حتى أسرعوا بالهجوم..

وكان العباس طلب الإذن من الحسين ليتفقد أخبية النساء فذهب لوحده يجول هنا وهناك يطمئن عنهن، وأخذ يوجه تعليماته لشباب آل محمدوآمرهم باليقظة والاستعداد التام.. وما إن رأته النسوة والأطفال حتى علت أصواتهم بالبكاء والعويل، يمتزج مع صراخ الأطفال من الخوف والعطش.. هذا طفل يناديه: يا عم.. وهذه تصرخ خائفة: يا عماه.. وهذا يقول له بصوت مخنوق يستغيث باكياً: اسقنا يا عم أكاد أموت عطشاً.. وإذا بفتاة صغيرة لا تتجاوز السادسة جميلة رغم اصفرار لونها من العطش والخوف وهي تركض نحوه صارخة باكية:

- «عماه.. أنا خائفة يا عماه.. أريد أن أشرب.. جف حلقي وأشعر كالنار في جوفي من العطش». فانحنى العباس أمامها وبسط ذراعيه وضمها إلى صدره وقال لها هامساً بصوت متهدج:

- «صبراً يا حبيبتي صبراً». فاحتضنته الطفلة وقالت له وهي تبكي بشدة:

- «لا تتركنا يا عمي.. إننا خائفون». فحملها بين يديه وذهب بها إلى إحدى الخيم ووضعها أمام بابها وقال لها بحنان:

- «اذهبي إلى أمك يا بنيتي». وتركها تدخل، وعاد أدراجه لناحية فسطاط الحسين وهو يهتز لكل صرخة طفل أو طفلة خائفاً يريد الماء وكأن تلك الصرخات طعنات تصيبه بالصميم.

ومـا إن وصل حتى كـان الأعداء قـد رتبوا صفـوفهم من جـديـد وبـدأوا يتحركون.

ونظر الحسين للعباس نظرة ذات معنى، وكأنها أمر بمباشرة القتال.

وعلى الفـور ركب العباس فـرسه وحمـل الرايـة بيده اليسـرى وركـزهـا بالركاب، وامتشق حسامه وكان ذلك للرفاق كالإشارة فعادوا لتشكيل صفـوفهم والتأهب.

وبـدأ العدو يقتـرب بهجوم أشـد وأدهى من الأول، فإذا بـالعباس يـرفع سيفه بطريقة فهمها حبيب وزهير فاستداروا نحو الرفاق قائلين:

ـ «هجوم».

وبينما كانت خيل ومشاة العدو تقترب مسرعة تهدر كالسيل العرم، كانت جياد الرفاق تركض بمن عليها، نحو ذلك السيل والعباس وحبيب وزهير والحر في المقدمة، وخلف العبـاس مباشـرة سعيد ووهب ونـافع وجـون وهاني على جيادهم تخب بهم الجياد خباً. ثم إذا بالعبـاس يسرع بفـرسه رويـداً رويداً ثم يطلق له العنان صارخاً بشعار الحرب:

ـ «وامحمداه».

وفعـل الجميع فعله فسبقـوا المشاة الـذين من الـرفـاق. وكـان الأعـداء باندفاع مماثل فالتقيا فإذا بـالتصادم يحـدث هائـلاً وبدأ العبـاس يبطش بـطشاً رهيباً وخاصة كان هـدفاً لهم لأنـه يحمل الـراية وهـو علامـة المعسكر، وكـان ضربه عنيفاً لدرجة مرعبـة جعلت الأعداء بعـد وقت قصير تـراه هائـلاً مخيفاً، لذلك بدأوا يفرون من بين يديه كلما هجم على جهة.. ومن خلفه كان سعيـد ووهب وجون ونافع وهاني يفرون فرياً مدهشاً بالعدو..

ومن جهة أُخرى، كـان حبيب وفرقتـه وكان فيهـا عابس وسـويد يفعلون أفعالاً لا يكاد يصدقها عقل، فحبيب كان قائداً مجرباً محنكاً قاد فرقته الصغيرة فكـانت كأنهـا جيش.. أما زهيـر ومعه من الـرفاق بـريـر والحـر فكـان فعلهم

يضاهي فرقة حبيب خاصة زهير والحر فقد كانا يغوصان بين صفوف العدو الكثيفة ينكلان به تنكيلاً هائلاً، وأخذ كل واحد منهما إذا رأى الآخر في ضيق يذهب إليه ويخلصه ويفتح له الطريق..

وحسب خطة العباس كان لا بد والفرسان يغوصون بين فرسان الرفاق.. وبالفعل فقد خرجت تلك الأعداد تتابع طريقها للحسين وإذا بالمشاة من الرفاق تقابلهم بسيوف مسلطة ورماح مشرعة تحمل الموت بحدها ورؤوسها.. وبدأ مشاة الرفاق بالعدو يحصدونه حصداً، فكان من المستحيل أن يصل إلى الحسين أحد من الأعداء ما دام هناك أحياء من الرفاق.

وأيضاً حسب خطة العباس وتقديره فقد انفصلت أعداد ضخمة من طرفي صفوف العدو متجهة إلى أخبية النساء وقد ظنوا أنهم بهجومهم سيتراجع الرفاق لحمايتهن، وتنبه العباس لذلك فثبت في مكانه، فثبت الجميع.

ومن جهة ثانية كان شباب آل محمد يتابعون المعركة باهتمام وكانوا يتوقعون هجوم الأعداء على أخبية النساء فاستعدوا للدفاع.. ولم يطل انتظارهم وإذا بالعدو يصل ويبدأ القتال.

وكانت مهمتهم، أن لا يدعوا أحداً يقترب من أخبية النساء وهم أحياء، ونفذوا ذلك بأمانة ودقة فلذلك ما كان لأحد من الأعداء أن يتقدم إلا ويسقط صريعاً.. وبدأ الفتيان كالأسود التي تدافع عن عرينها.. تضرب بعنف وصمت ودراية وحكمة وكأنهم لهم خبرة طويلة بأمثال هذه المعارك الرهيبة، التي كلها دماء، وكلها موت، وكلها قتل..

ولكن الأعداء اخترقوا ثغرات في صفوف الرفاق، وهجموا لناحية فسطاط الحسين، فانفلت أحد الرفاق.. التائب يزيد بن زياد المهاجر الكندي، وكان رامياً بارعاً، فأسرع راكضاً نحو الحسين، وارتمى راكعاً أمامه وأخذ بسرعة قوسه ونثر سهامه أمامه، وكانت مئة سهم.. في تلك اللحظة رأى نافع ذلك فعاد مسرعاً يركض به فرسه حتى وصل قرب فسطاط الحسين وقفز بخفة، وهو يحمل كنانته المحشوة بالسهام، وقوسه، بينما كان الأعداء يقتربون

فإذا بالتائب يسدد سهامه إليهم، ويطلق بمهارة وتسديد، فكان كل سهم يصرع واحداً، وكلما رمى بسهم يقول الحسين على مسمع من التائب:

- «اللهم سدد رميته واجعل ثوابه الجنة».

وكانت كلماته تفعل فعل السحر في نفس التائب، فإذا تسديده محكم، والصرعى يزيدون ويتجندلون من هنا وهناك، ومن القريب ومن البعيد، حتى نفدت سهامه المئة، وكلها كانت في صدور الأعداء لم يسقط منها على الأرض إلا خمسة فقط حاد عنها المهاجمون المخصصة لهم، فرمى قوسه من يده ووقف وامتشق حسامه ولكن. . إذا برمح طائر ينغرس بصدره.

في تلك اللحظة كان نافع يركع أمام الحسين، ويبدأ بعمل التائب حيث انتهى وبدأ بإطلاق سهامه. . فكانت تتوالى يتبع بعضها بعضاً، حتى إنه لم تمض لحظات إلا كل الذين اقتربوا من فسطاط الحسين كانوا صرعى. . وأجال نافع بصره إلى البعيد فرأى البعض هاجمين، وكانوا خمسة، وعن بعد أخذ يسدد إليهم سهامه ويشد وتر قوسه إلى آخره ويطلقه. . وعلى مدى رمية السهم كان يسقط الواحد تلو الآخر.

ولحظات كانت المعركة تهدأ. . بينما كان التائب سقط وفي صدره الرمح أمام الحسين الذي انحنى عليه فقال التائب بضعف:

- «مولاي. . هل أديت ما علي؟».

فقال الحسين:

- «نعم تاب الله عليك وأنت أمامنا في الجنة».

فتبسم الرجل وفاضت روحه.

ورويداً رويداً، بدأ الأعداء بالتراجع أمام العباس والرفاق وشعر بذلك المهاجمون على أخبية النساء فتراجعوا أو الأصح تراجعت بقاياهم. .

فعاد العباس وقد خلت ساحة المعركة إلا من قتلى الأعداء التي ملأت تلك الأرجاء، حتى إن الرفاق برجوعهم كانوا يتخطونهم على مهل وهم ينتقون

مواضع أقدامهم. .

وعاد الصمت يلف ساحة المعركة. . إذ ان الأعداء تم تراجعهم بينما كان الرفاق يعودون. . واغتنموا ذلك فأخذوا يرمونهم بوابل غزير من السهام سقط معها اثنان من الرفاق قتلى والسهام في ظهورهم. . صرخ أحدهما متألماً. . ودوى صوته في ذلك السكون:

ـ «اقرأوا الحسين عنا السلام»، وسقط. . فأسرع الكل لئلا يصابوا حتى وصلوا إلى فسطاط الحسين.

وهدأت المعركة هدوءاً تاماً.

ووقف الجميع أمامه مرة ثانية، وأجال الحسين بصره بهم واحداً واحداً باعتزاز بتلك الفئة العظيمة، وأخذ يعلق على صدورهم الأوسمة التي لمْ تكن لا من الذهب ولا من الفضة بل كلمات فرح لها الجميع:

ـ «جزاكم الله خيراً يا شيعتي وأصحابي».

وعاد الأعداء مرة أُخرى يلملمون قتلاهم وجرحاهم، بينما لم يخسر الحسين من أصحابه إلا خمسة، منهم اثنان من الرفاق أصيبوا بظهورهم وواحد فقط بصدره وهو التائب واثنان سقطا بين العدو.

* * *

وعندما استفسر الحسين عن الخسارة بجيشه وعلم بها ضرب بيده على لحيته وقال:

ـ «اشتد غضب الله على الكافرين إذ عبدوا غيره، واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم. . أما والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله تعالى وأنا مخضب بدمي».

وانتظر الحسين والجميع أن يكون هناك جديد، ولكن طال انتظارهم ولم يحدث شيء، إذ بقي العدو في مراكزه. . ومضى الوقت ولم يتحرك بما كان منتظراً. وذلك. . لأن العدو هاله ما أصابه من خسارة فادحة لم تكن

بالحسبان، ولو حتى كان مقابله جيش يماثله بالعدد والعدة.

وجمع عمر قواد جيشه ومعاونيه في فسطاطه وأخذ يشاورهم بذلك قائلاً بحدة صارخاً:

ـ «. . ثكلتكم أمهاتكم. . حفنة صغيرة من الرجال تفعل بكم هذا الفعل الذريع، تفظع بكم وتنزل بكم هذه الخسارة الفادحة؟».

فقال أحدهم:

ـ «أحصيت الخسائر فكانت كثيرة جداً جداً بين قتيلٍ وجريح».

فقال عمر وقد هاله الأمر وجحظت عيناه:

«ما هذا؟ أهذا الذي كنتم تقدرونه من أنكم ستأكلونهم بساعة من الزمن؟ بضعة هجمات يفعلون بكم مثل هذه الفعلات الشنيعة المنكرة، وهم حفنة صغيرة لا تتجاوز المئة؟».

فقال شبث بن ربعي موضحاً:

ـ «ولكن أيها الأمير لا تنس أنهم أبطال المصر وأشراف عشائرهم وقبائلهم، فحبيب ومن لا يعرف حبيب وزهير بن القين ومسلم بن عوسجة والحر وعابس وجون وسعيد وأكثرهم أبطال المعارك الكبرى فمسلم بن عوسجة بطل معركة أذربيجان بين المسلمين والمشركين، وحبيب من أبرز أبطال صفين وثم. .».

ثم أضاف مرتبكاً:

ـ «ولا تنس العباس بن علي فأنت رأيته بأم عينك فهو وحده جيش».

فقال عمر صارخاً:

ـ «ما هذا الذي تقولونه وأنتم عشرون ألفاً، وبجولات أذهبوا منكم الربع. والله لو بقوا على ما هم عليه لأفنوكم قبل أن تفنوهم».

فقال شمر:

ـ «أيها الأمير أرى أن نؤجلٍ القتال اليوم، ونرسل إلى الأمير عبيدالله بن زياد، نطلب منه عشرة آلاف مدداً لنا».

فقال عمر بغضب شديد:

ـ «يا للعار والشنار.. أنرسل نطلب المدد ونحن عشرون ألفاً، وهم لا يتجاوزون المئة؟ ماذا سيقول الناس عنا؟ بل ماذا سيقوله الأمير عبيدالله؟». ثم أخذ يضطرب مرتبكاً بغضب.

فقال شمر:

ـ «وما العمل؟ فنحن لا نستطيع الوصول إلى الحسين قبل أن نفنى.. ثم إن الرعب دب بجيشنا خاصة من العباس فهم لن يصمدوا، وقلوبهم تنهلع عندما يرونه ومن معه يهجمون».

ونظر شمر إلى الجميع متسائلاً عن صحة رأيه فهز الجميع رؤوسهم علامة الموافقة.. فأضاف بلؤم:

ـ «ثم إذا أجلنا القتال للغد يكون المدد قد أتانا ويكونون هدهم العطش.. وأرى أن نعزز الحراسة على الماء مجدداً».

وظهر على الجميع الارتياح للفكرة ونظروا لعمر ليقرر.. فإذا به يهدأ وينظر إلى شمر وقال بارتياح:

ـ «إنه رأي صائب.. وما سيقال عن طلبنا المدد سيمحوه نصرنا على الحسين».

وارفض الجمع ليذهب كل قائد إلى وحدته يأمرها بالتوقف عن القتال.. بينما انتقى عمر عشرة من الجنود على أفراس سريعة وقوية وطلب إليهم الذهاب إلى عبيدالله يطلبون المدد. فانطلق العشرة متجهين إلى الكوفة..

* * *

وكان عبيدالله، قد حسب لكل ذلك ألف حساب وكلها يسيطر عليها

الخـوف من الحسين، وفكر بكـل الاحتمالات، ومنهـا أنـه يمكن للحسين أن ينتصـر، أو يخونـه جيشه فينضم إليـه فيزحف بـه على الكوفـة. . فجند جيشـاً بمؤازرة يزيد ووعده بإرسال المدد المطلوب ساعـة شاء. . مـع العلم أن المال في خزينة الكوفة والبصرة كان قد نفد كما أنه في خزينة يزيد بدمشق كان على النهاية.

لذلك جند عبيدالله جيشاً كبيراً، وخرج من الكوفـة وعسكر بـه في مكان اسمه النخيلة، في الطريق بين الكوفة وكربلاء. . وأخذ يتابـع عن قرب مصيـر المعركة. .

وإذا بالفرسان العشرة يـطلّون عليه، وكان أمام فسـطاطه الكبيـر الفخم، وبيـده سوط، وأخـذ يستطلع الخبـر بلهفة عمـا جـاؤوا بـه. ووصلوا وتـرجلوا مسلّمين، فلم يرد عليهم بل هتف بلهفة:

- «ها. . ما وراءكم؟».

فقال أحدهم مرتبكاً بخوف وهو يلهث:

- «يطلب منكم الأمير عمر بن سعد المدد بعشرة آلاف رجل».

فنظر ابن زياد إلى المتكلم بحقد ولؤم مرير ثم انفجر صارخاً:

- «جبناء. . كلاب. . فئران». ثم ركل المتكلم بقـدمه وانهـال بالسـوط على البقية. . وتراجع لاهثاً وأخذ يصرخ:

- «ماذا ذهبتم تفعلون يا كلاب؟. . عشرون ألف رجل كلفتمونا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. . ماذا فعلتم؟ قولوا لي يا صعاليك، يا خنـازير، من تحاربون؟ وكم عددهم؟ قيل لي إنهم قليلون كم عددهم؟».

وسكت وهو يلهث بحقد وغضب شديد. فقال الرجل بعد أن وقف ذليلاً مرتبكاً:

- «إنهم. . إنهم مئة. .».

فصرخ ابن زياد:

ـ «مئة . . مئة ألف؟».

فقال الرجل وهو يكاد يموت خوفاً:

ـ «إنهم . . إنهم مئة رجل».

وبدا ابن زياد من الغضب والانفعال وهو يقفز كالمجنون وصرخ:

ـ «مئة رجل . . مئة يفعلون بكم الفعل الشنيع وأنتم عشرون ألفاً؟».

ثم نظر إلى العشرة محدقاً وقال لاهثاً بلؤم وكأنه يعض على الكلمات عضاً:

ـ «اسمعوا . . سأرسل المدد الذي طلبه عمر، وقولوا لأميركم إذا عدتم بدون رأس الحسين، سأسلبكم عطاياكم وأسمل عيونكم وأقتلكم كلكم وأهدم دوركم على أهلكم . . سأفعل ذلك وأنتم تعرفون من أنا».

ثم صرخ بنفس اللهجة لأحد قواده وقال:

ـ «جهز على الفور عشرة آلاف رجل وليذهبوا إلى عمر بن سعد».

ثم التفت إلى العشرة وقال منتهراً لهم وهو يكاد ينشق غيظاً:

ـ «اغربوا عن وجهي . . كلاب . . خنازير».

ثم دخل إلى فسطاطه وهو يردد: «كلاب . . خنازير».

ولم يمض وقت طويل حتى تجهز العشرة آلاف فارس وساروا مجدين متوجهين إلى كربلاء.

* * *

وأعود بك أيها القارىء لمخيم الحسين، وجيش الحسين، فنجد الجميع وقد اشتد عليهم الحر، إذ توسطت الشمس السماء وأصبحت محرقة، فلجأ أكثرهم إلى ظلال خيامهم، والعرق يتصبب من وجوههم ويبلل ثيابهم فيمتزج بالدماء وسيف كل منهم أو رمحه أو قوسه لم يزل بيده، وعيونهم جميعاً ناحية العدو.

ولكن طال الوقت ومضت ساعة وساعات والعدو لم يحرك ساكناً، والكل يـراقبون بحـذر تحركـاته. . وأخـذ الجميع يفكـرون بتأخـر العدو عن متـابعـة الهجوم ولكن طول الوقت جعلهم يستنتجون أنه انتظار لطلب المدد.

ومـالت الشمس للمغيب، فتأكـدوا أن الليـل سيحجـز بينهـم إذ من غيـر الممكن قيامهم بالهجوم ليلاً، فتحرروا من الرقابة والاستعداد للحرب، وذهب كل إلى خيمته يبدل ثيابه أو يصلح من شأنه. .

وغـابت الشمس، وأتى الليل، وأخـذ الكـل بـالعبـادة. . بـالتسبيـح. . بالصلاة. . بالدعاء. . بالابتهال والتكبير، كبيرهم وصغيرهم شيخهم وفتـاهم، وعلى رأسهم الحسين وأهل بيته جميعاً وكأني بهم في عبـادتهم نسوا عـطشهم القاتل وخـوفهم المريـع. . بل نسـوا أن هناك عـدواً يحيط بهم يحمل بسيـوفه ورمـاحه المـوت. . نسوا كـل ذلك ولم يعـودوا يذكرون إلا لحظات ارتبـاطهم بحبل الله وكأنه شعاع من النور يصل أرواحهم من الأرض إلى السماء.

ويكمل التاريخ قصة القـافلة المقدسـة والحسين العظيم وأهـل بيته رمـز الطهر والـرفاق وشبـاب آل محمد. . ذلـك الجيش الأسطوري الـرائع الهـائل الذي لا يتجاوز المئة والذي هز الدنيا في يوم من الأيام وبقي يهزهـا لأنه خلق لـذلك. . بقي يهـزها حتى تخـرج الأرض أثقالهـا فتميز بين الـطيب والخبيث والإيمان والكفر والحق والباطل والحرية والعبودية. .

ولنعد مرة أُخرى للتاريخ ليقص علينا ما جرى ويروي لنا تتمـة الملحمة الإلهية:

في ليلة العـاشر من المحـرم أي ليلة عاشـوراء أتى المدد لعمـر بعشـرة آلاف مقاتل، وكان جيشه قـد خسر خمسـة آلاف فيكون الجيش الـذي أصبح متـأهباً للقتـال خمسة وعشـرين ألفاً، يسـاندهم الغـدر والاحتيال واللؤم وهـذه لعمـري لهي أشد وأدهى من المقـاتلين، لأنها بـلا ضميـر ولا شـرف، وهـذا بالذات ما جعل العطش أحد أسلحتها الذي فتـك بالأطفـال والنساء فتكـاً كان يصيب الرجال الشرفاء بطعناته السريعة المتتالية، مع كل صرخة طفل أو نـظرة

إليه وهو غائر العينين، أصفر اللون ولسانه يكاد يلتصق بفمه، حتى أصبحت صرخته كالحشرجة فبان يذوي وكأنه زهرة تذبل رويداً رويداً.

ومع الأطفال نساء جفت حلوقهن وأجوافهن حتى إن الدموع جفت من عيونهن فأخذن يبكين بكاء مراً ولكن قد يكون لأول مرة يحدث ذلك بالأجيال.. بكل الأجيال.. أن يكون بكاء بلا دموع..

ومع ذلك كان الحسين.. عظيم الوجود وكل الوجود يصبر ويصبر ويصبر حتى أنه وزّع من الصبر على شباب أهل بيته وكل رجاله ما كفاهم ويكفيهم لأن يقاتلوا أياماً وأياماً.. حتى إنهم كانوا عطاشاً ولكن بالصبر الذي وهبهم إياه الحسين كانوا وكأنهم يشربون من سلسبيل..

لذلك استقبل الجميع يوم العاشر من المحرم بمثل ما بدأوا به الأمس لم يغير منهم القتال المرير ولا العطش الرهيب ولا أشباح الموت المرعبة شيئاً.

عادوا ليقفوا وقفتهم التي أباهي بها الأجيال والعالم.. وقفوا وقد نقصوا أربعة. والعباس أمامهمَ جميعاً وزهير وحبيب، كلٌ أمام فرقته ووراء العباس عاد سعيد ووهب وهاني ونافع وجون.. كلهم وقفوا يديرون ظهورهم للحسين، وكان أروع ما بهم نظرتهم النبيلة اليقظة المتحدية... هذا يسوي سيفه بيده، وهذا يمسح وجهه بكمه، وذلك يحك ذقنه بسهم، وغيره يداعب غرة رأس فرسه، ولكن تجمعهم جميعاً وحدة الهدف، ونظرة واحدة تصب صباً على الأعداء.. الأعداء الذين عادوا لساحة المعركة بمددهم الجديد وهم أشد قوة ولؤماً وثقة بأنفسهم، ينخس جنباتهم تهديد ابن زياد إذا خذلوا بقتل الحسين.

* * *

وأخذت الخيل تتقدم هذه المرة، وكأن العدو رسم خطة جديدة حتى اقتربوا من معسكر الحسين. ولم يحرك العباس ساكناً فتقدم رجل من الأعداء اسمه عبدالله بن حوزة صارخاً:

ـ «يا حسين أبشر بالنار».

فقال الحسين مجيباً:

ـ «كذبت. . بل أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع».

ثم رفع يديه نحو السماء وقال:

ـ «اللهم خذه إلى النار».

وحصل العجب العجيب إذ نفر به فرسه وشرد، فسقط عنه ورجلاه معلقتان بالركاب ومر به وهو شارد قرب مسلم بن عوسجة فضرب رجله بالسيف فبترها وعدا به فرسه يضرب رأسه بكل حجر ومدر حتى قطع ومات.

وتقدم رجل آخر لم يعتبر، وأنى للكافر أن يعتبر، فقال على مسمع من الحسين:

ـ «أين الحسين؟».

فقال الحسين:

ـ «ها أنذا».

قال الرجل:

ـ «أبشر بالنار تردها الساعة».

فقال الحسين:

ـ «أبشر برب رحيم وشفيع مطاع. . من أنت؟».

فقال الرجل:

ـ «أنا محمد بن الأشعث»[1].

فقال الحسين:

ـ «اللهم إن كان عبدك كاذباً فخذه إلى النار واجعله اليوم آية

---

(١) محمد بن الأشعث المذكور غير الذي ورد سابقاً.

لأصحابه».

فإذا بفرسه هو الآخر يقفز به وكأنه ضرب ألف عصا فسقط عنه وتعلقت رجله بالركاب وأخذ يضرب به هنا وهناك حتى هلك. فتبسم برير وهز برأسه بحب عميق للحسين.

وتقدم آخر، والكفر كفر دوماً، يتحدى الإيمان وقال باستهزاء:

- «أين الحسين؟».

فقال الحسين:

- «ها أنذا».

فقال الرجل متحدياً:

- «أبشر بالنار».

فقال الحسين:

- «من أنت؟».

فقال الرجل:

- «أنا شمر بن ذي الجوشن».

فقال الحسين:

- «الله أكبر. قال رسول الله رأيت كأن كلباً أبقع يلغ في دماء أهل بيتي.. وأنا رأيت كلاباً تنهشني وكان فيها كلب أبقع كان أشدها علي هو أنت». فرجع شمر والحقد يأكله.

فدمدم برير:

- «لم تقاتله! فيك سر أبيك وجدك يا سيدي وابن سيدي».

وركب الحسين فرسه واستنصت الناس، فأبوا أن ينصتوا فرفع صوته قائلاً:

ـ «ويلكم ما عليكم أن تنصتوا فتسمعوا لي، وإنما أدعوكم إلى سبيل الرشاد فمن أطاعني كان من المرشدين ومن عصاني كان من المهلكين وكلكم عاصٍ لأمري غير مستمع قولي فقد ملئت بطونكم من الحرام وطبع على قلوبكم».

فهاج معسكر العدو وعلا ضجيجه وبدا كأنه يتحفز للهجوم فانتهرهم صارخاً:

ـ «ويلكم.. ألا تنصتون؟ ألا تسمعون؟».

وبأن العدو يتلاوم بعضه بعضاً لينصتوا فإذا بالهدوء يعم الجميع رويداً رويداً.

فقال الحسين بشدة بحيث يسمع الجميع، بعد الحمد لله والصلاة على رسول الله:

ـ «تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً..»

فقال برير لوهب:

ـ «هذه الخطبة ستكون للأجيال.. لكل الأجيال نوراً للمؤمنين بالحسين..

والحسين يكمل:

ـ «.. أحين استصرختمونا والهين فاض خناكم موجفين، وسللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً قدحناها على عدوكم وعدونا، فأصبحتم ألباً على أوليائكم، ويداً عليهم لأعدائكم، بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم إلا الحرام من الدنيا أنالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه من غير حدث كان منا ولا رأي تفيل لنا، فهلا لكم الويلات إذ كرهتمونا وتركتمونا تجهزتموها والسيف مشيح، والجأش طامن والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم إليها كتداعي الفراش، فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، فإنما أنتم طواغيت الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب،

ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام، ومحـرفو الكتاب.. مطفئـو السنن وقتلة أولاد الأنبيـاء ومبيدو عتـرة الأوصياء، وملحقو العهّـار بـالنسب، ومؤذو المؤمنين، وصـراخ أئمة المستهـزئين الذين جعلوا القـرآن عضين، ولبئس ما قـدمت لهم أنفسهم، وفي العذاب هم خالدون، وأنتم ابن حرب وأشياعه تعضـدون، وعنا تخاذلون.. أجل والله الخذل فيكم معـروف وشجت عليه أصـولكم، وتآزرت عليه فـروعكم، وثبتت عليـه قلوبكم، وغشيت صـدوركم، فكنتم أخبث ثمـر شجى لناظر وأكلة للغاصب، ألا لعنة الله على الناكثين الذين ينقضـون الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً فأنتم والله هم».

وسكت قليـلاً ليبدو على الأعـداء نوع من الـذل جعلهم كأنهم يـذوبون ويذوبون ويتضـاءلون. بينمـا كان أنصـار الحسين يرفعـون رؤوسهم اعتزازاً بـه وكأنها تطاول السماء.

وأكمل الحسين بنبرة شديدة كلها عزة وكلها إباء قال:

ـ «ألا إن الـدعي ابن الدعي، قـد ركز بين اثنتين، بين السلة والـذلـة، وهيهـات منا الـذلة، يـأبى الله ذلك لنـا ورسولـه والمؤمنون، وجـدود طـابت، وحجور طهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية، لا تؤثر طاعة اللئام على مصـارع الكرام.. ألا قد أعذرت.. ألا قد أنذرت ألا وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وكثرة العدو وخذلان الناصر».

وسكت قليلاً وقال مكملاً بثقة الأمر المسلم به:

«أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريث ما يـركب الفرس، حتى تـدور بكم دور الـرحى، وتقلق بكم قلق المحـور. عهـد عهـده إلي أبي عن جـدي، فـأجمعـوا أمـركم وشـركـاءكم ثم لا يكن أمـركم عليكم غمـة ثم كيـدوني ولا تنظرون، إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هـو آخذ بنـاصيتها إن ربي على صراط مستقيم.. اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف..».

ولا شعورياً تبادل سعيد ونافع وهاني النظرات المدهوشة إذ علموا أن المقصود بغلام ثقيف هو المختار بن أبي عبيدة الثقفي.. بينما أكمل الحسين:

- «.. يسقيهم كأساً مصبرة، ولا يدع فيهم أحداً، إلا قتلة بقتلة، وضربة بضربة، ينتقم لي ولأوليائي وأهل بيتي وأشياعي منهم، فإنهم غرونا وكذبونا وخذلونا، وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير».

وسكت قليلاً والذهول يعم الجميع والدهشة تسيطر على كل من بتلك البطاح، وقال الحسين آمراً:

- «ادعوا لي عمر بن سعد». فدعي له فقال الحسين:

- «يا بن سعد.. أنت تقتلني وتزعم أن يوليك الدعي ابن الدعي بلاد الري وجرجان.. والله لا تتهنى بذلك أبداً عهداً معهوداً، فاصنع ما أنت صانع، فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، ولكأني برأسك على قصبة قد نصبت بالكوفة، يتراماه الصبية ويتخذونه غرضاً بينهم».

فغضب ابن سعد، وأخذ يرتجف حقداً وصرخ بجيشه:

- «ما تنتظرون به احملوا بأجمعكم.. إنما هي أكلة واحدة».

فهاج معسكر العدو.. ولكن الحسين بقي حيث هو وأخذ يحدجهم بنظرة كنظرة الصقر، وكأنها سياط تسلخ جلودهم مما جعلهم يهدأون ويتململون تحت وطأتها.. فأدار عنان فرسه وعاد إلى فسطاطه والرفاق يترقبون بحذر هجوم العدو.

وفجأة علت صرخة الهجوم..

* * *

وكان العباس والكل بيقظة تامة، ورفع العباس سيفه بيمينه للعلاء ولوح به، وكأنها كانت إشارة فهمها الكل فإذا بهم يصبحون صفاً واحداً طويلاً على طول معسكر الحسين يبعد الواحد عن الآخر قليلاً، وانتصف الصف منهم

عشرة رماة حتى إذا بدأ العدو التحرك بدأوا بالرمي، فبدأ سقوط القتلى منه قبل الوصول إلى جيش الحسين.. ولحظات وصلوا وبدأ الالتحام.. وبدأت أصوات قعقعة السلاح تملأ الفضاء وأخذت سيوف طلائع النور ورماحها ونبالها تفعل الفعل الذريع بالمهاجمين، وبدأ الصرعى يسقطون من جديد.

ولكن الهجوم كان قوياً وكثيفاً، فأخذ أنصار الحسين يتراجعون مرغمين أمام الضغط الهائل من الأعداد الضخمة.. ورأى ذلك العباس فصرخ وهو في وسط العدو:

- «وامحمداه»..

وإذا بالكل، وكأن كل واحد ينقلب إلى فرقة فأخذت تسرع ضرباته،.. وبان الغضب في عيون الرفاق سعيد ووهب وجون ونافع وهاني، فصرخ سعيد بنافع وهو يرى شدة ضغط العدو حتى قربوا من الحسين:

- «نافع.. أين كنانتك وقوسك؟».

فانسحب نافع بفرسه على الفور، وهو لم يزل يقاتل بسيفه قتالاً شديداً، حتى تملص من المعركة، ثم قفز عن جواده ووجهه نحو الحسين، وضربه فركض هارباً من ساحة المعركة، بينما قفز قفزات وإذا به أمام الحسين، فركع ونثر سهامه من كنانته على الأرض وبدأ يسددها إلى كل من يفلت من صف الرفاق فإذا بكل واحد يتقدم خطوات عن خط الرفاق يسقطه سهم..

ولكن صرخة العباس كان لها معنى آخر إذ كان أمراً لشباب آل محمد لمساندة الرفاق أيضاً فهرول الشباب إلى المعركة مشرعي السيوف وبدأوا القتال.

وكانت مساندة رائعة إذ سدوا جميع الثغرات التي أجبر العدو الرفاق على فتحها.

ومن جهة ثانية كان سعيد ووهب وجون والكل يقاتلون قتالاً شديداً مريراً، بصبر نادر، وخاصة سعيد، فقد كان يقتفي أثر العباس حتى كانا يبدوان

وكأنهما خياليين أو أسطوريين.

وأسقط بأيدي الأعداء، من الوصول للحسين، فأخذوا بالتراجع تاركين أعداداً هائلة صرعى على الأرض من قتلى أو جرحى، وما إن رأى العباس تراجعهم حتى ثبت بمكانه فثبت الجميع فتوقف القتال فعاد العدو إلى مراكزه، وعاد الرفاق إلى حيث بدأوا، وعاد شباب آل محمد إلى مراكزهم.

ونظر الرفاق إلى بعضهم البعض ليجدوا أنهم فقدوا أربعة آخرين.. ومعنى ذلك أنهم فقدوا ثمانية، ومعنى ذلك أيضاً أنه أصبح بهم نقص، ولم ينظروا إلى المئات من القتلى والمئات من الجرحى من الأعداء بل كان همهم أن تكون حماية الحسين مؤمنة.. وأيقظهم من ذلك خروج فارسين من العدو.. ثم تقدما يطلبان المبارزة إذ كان العدو أسقط في يده من الوصول إلى الحسين، فارتأى بعض القادة أن يبارزوهم لعلهم يخففون منهم بعضهم.

وقال حبيب مشيراً إلى الفارسين:

ـ «هذا يسار مولى زياد، وذاك سالم مولى عبيدالله بن زياد، وهما شرسان قويان وبطلان معروفان».

ثم تقدم نحو الحسين يطلب الإذن بمبارزتهما فرفض فتقدم عبدالله بن عمير الكلبي وكان طويلاً عريض المنكبين ضخماً فاستأذن الحسين فأذن له، فجرد سيفه وتقدم منهما فقال له يسار:

ـ «من أنت؟».

فانتسب له. فقال يسار بتكبر:

ـ «لست أعرفك ليخرج إلي زهير أو حبيب أو برير».

فانتهره ابن عمير قائلاً:

ـ «يا ابن الخبيثة.. وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس.. ولا يبرز إليك أحد إلا وهو خير منك». ثم هجم عليه وبضربات قليلة جندله وقتله. فهجم عليه سالم وسرعان ما جندله. وانتظر عبدالله حتى يبرز غيره. ولما لم

يتقدم أحد عاد لموقفه . .

ثم برز أربعة من العدو، فتقدم سعيد من الحسين طالباً الإذن للخروج إليهم، فنظر إليه الحسين متأملاً ثم أجابه بالإذن، فتقدم سعيد إلى الأربعة . . وبدأ القتال مع أحدهم وسرعان ما قتله سعيد، فهجم عليه الثلاثة، وإذا بسعيد يفعل ما يثير الإعجاب، فأخذ يصرع الواحد تلو الآخر.

وكان فعل سعيد، مع ما فعل ابن عمير، قد أساء الأعداء فتقدم أكثر من عشرة إلى سعيد بالسيوف والرماح، إلا أن سعيداً وكما هو دائماً أخذ يجندل الواحد تلو الآخر حتى صرعهم جميعهم. ولكن إذا بعدد كبير من الأعداء وقد هالهم ما رأوا، فهجموا على سعيد فقابلهم بالمثل فاستدرجوه إلى جهة معسكرهم فانخرط بينهم وبدأ قتال عنيف. وكأن الأعداء تحولوا كلهم إلى أمنية واحدة وهي أن يقتلوا سعيداً. ولكن سعيداً كما يدل عليه مظهره، فقد خرج بعد وقت طويل من بينهم وقد قتل الكثيرين وجندل الكثيرين، فتراجع الباقون. وعاد سعيد وهو يلهث ووقف متحدياً جميع الأعداء فأحجم الكل عن مبارزته.

* * *

وكانت جميلة تراقب من باب خيمتها قتاله حين تسنح لها الفرصة حتى إذا خرج للمبارزة وقفت باهتمام تتابعه بنظرها بلهفة.

ولم تكن تعرف عنه مثل قوته وذكائه وحنكته في القتال إلا أنها تحبه وفقط، لأنه كان طول حياته مسالماً نبيلاً طيباً لطيفاً. ولكن كم كانت دهشتها عندما رأته يقاتل بعنف وبطولة، ثم وهو يبارز في ساحة المعركة، بل كم رأته رائعاً وجميلاً وقد أضاف بخيالها، أنه شجاع وشريف وبطل، يجندل الأبطال ويهزم الفرسان، ويتغلب على أعداء الحسين، حتى إذا عاد من ساحة المعركة منتصراً لينضم لرفاقه انفلتت لتقف في إحدى زوايا الخيمة، وهي تعاني صراعاً رهيباً بين حبين يسيطر عليهما خوفان. حب سعيد وحب أهل البيت. . وخوف على سعيد وخوف آخر على أهل البيت، فباتت بحيرة ممضة وارتباك

مؤلم لم تجد إلا دموعاً صامتة تنسكب من عينيها الجميلتين، وبدت بذهول وشرود يسيطر عليها حيرة خانقة.. ولكن فجأة انبعث صوت.. كان صرخة.. أيقظتها، فمسحت دموعها بسرعة، ولملمت ثوبها، وأسرعت لإحدى الخيم.. حيث انطلقت الصرخة.. إذ كانت من عبدالله الرضيع الذي أخذته من أمه لتضمه إلى صدرها تهدهده وقد نسيت بعينيه الغائرتين الزائغتين من العطش، وبوجهه الحلو البريء، وبفمه الصغير الجاف الذي كان يرطبه بلسانه بلهفة.. وبه كله، نسيت حبها الكبير لسعيد وخوفها على نفسها وعليه.

وتقدم الحر إلى الحسين طالباً الإذن بالبراز، فأذن له فتقدم من ساحة المعركة، فخرج ثلاثة من الأعداء وسرعان ما قتلهم. وإذا بفرقة كبيرة تخرج فهجم عليهم، وبعد قتال يسير فروا من أمامه، وبدلاً من أن يرجع وجه عنان فرسه إلى الأعداء وتابع هجومه والمبارزون يعدون أمامه، وسرعان ما غاص بين القوم، وعلا الغبار حتى حجب ما يجري.. وطال الوقت ولكن الغبار ما زال يثور كلما هدأ يدل على أن هناك حركة وقتالا وإذا بالحر يخرج من بين الأعداء على فرسه مسرعاً نحو معسكر الحسين ولكن به ضربة على جبينه والجراح تملأ الفرس.. ودل ذلك أن قتاله كان مريراً عنيفاً ولو لم يكن وكأنه فرقة كاملة لم يكن له أن يعود.. ووقف أمام الحسين والدماء تسيل على وجهه مرفوع الصدر والرأس، فأخذ الحسين عصابة حمراء وعصب بها رأسه بيديه فنظر الحر إليه نظرة طويلة وتراجع.

وبرز مسلم بن عوسجة فكان على الأعداء من أسوأ ما نزل بهم وكان كلما برز إليه أحد يقتل.

وإذا بصوت يرتفع من معسكر العدو صائحاً وعرف الجميع أنه صوت الخائن عمرو بن الحجاج، قال:

- «يا حمقاء.. أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان أهل المصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين.. لا يبرز إليهم أحد.. والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم».

وأيده عمر بن سعد فأمر عسكره بـأن لا يبارز أحـد أحداً. . وكـان مسلم ما زال في ساحة المعركة، ولما لم يعد ينازله أحد عاد أدراجه.

* * *

وغير العدو خطته، فأمر ابن سعد بأن يهجم عمرو بن الحجاج من ناحية الفرات أي من ناحية جناح معسكر الحسين، وهو يرجو تخفيف رجاله، فتوجه بعض الرفاق لصد الهجوم، منهم عابس ومسلم بن عوسجة وبرير وزهير.

وكان قتال شديد عززه على الفور شبـاب آل محمد فهـزموا المهـاجمين ولكن إذا بمسلم بن عوسجة صريعاً. . وعرف الأعداء بذلك فأخذوا يصـرخون فرحين: قتل مسلم. . قتل مسلم. . فتألم الحسين فذهب ومعه حبيب. وكـان زهير قد آلمه مقتل مسلم فبقي عند رأسه. . وانحنى عليه الحسين قائلاً:

ـ «رحمـك الله يـا مسلم. . منهم من قضى نحبـه ومنهم من ينتـظر ومـا بدلوا تبديلاً». وكان لم يزل به رمق فدنا منه حبيب قائلاً:

ـ «عز علي مصرعك يا مسلم أبشر بالجنة».

فقال مسلم بما يشبه الهمس:

ـ «بشرك الله بخير».

فقال حبيب:

ـ «لولا إني أعلم أني في الأثر من ساعتي هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمك».

فقال مسلم بصوت ضعيف متقطع وهو ينظر إلى الحسين:

ـ «أوصيك به. . قاتل دونه حتى تموت». ومات بطل معارك أذربيجان. وكأن موته بعث الحياة من جديد في العدو فهجم شمر بن ذي الجوشن بفرقتـه على الجناح الأيسر لمعسكر الحسين هجوماً قوياً، ثم تبعه جميع الأعداء. .

ومال الرفاق لصد هجوم شمر أولاً. . وكانت معركـة هائلة، وإذا بـالعدو

وقد انفتح أمامه الجناح الأيمن، يتدفق كالسيل حتى اجتاز أعداداً من الرفاق، ووصلوا إلى خيم معسكر الحسين. . وهالهم ذلك وأرادوا جمع صفوفهم ولكن عبثاً، وكان القتال شديداً رهيباً. . وغاص الرفاق والعباس أمامهم بين العدو وكأن كل واحد منهم زورق صغير تتلاطم به أمواج محيط هادر. . واستمات الفرسان منهم والمشاة وأخذوا يقاتلون بعنف وقسوة.

وثبت الأعداء الذين أجبر قتالهم الرفاق على التباعد، إلا أن الفرسان كانوا على جيادهم يرون بعضهم وكان العباس والراية بيده اليسرى وبيمناه السيف يبطش بعنف يتبعه كل الرفاق خاصة الفرسان منهم فكان فتكهم ذريعاً منكراً. . وطال الوقت وطال القتال وكثر القتلى وملئت ساحة المعركة بالصرعى والمجندلين.

وجرب سعيد ووهب وجون وهاني ونافع أن يبقوا قرب العباس، وكان ذلك عبثاً، ولكن إذا بهم يرون تقدم العدو نحو الحسين، وهال ذلك سعيد فصرخ:

ـ «الحسين». وفهم رفاقه مراده فأخذوا يتراجعون وهم يخترقون بصعوبة الفرسان والمشاة من الأعداء، ومع ذلك يقاتلون باستماتة لفتح الطريق أمامهم. . وبعد جهد كبير وصلوا ليشكلوا صفاً صغيراً أمام الحسين وبدأوا يبطشون.

ومن جهة ثانية كان شباب آل محمد يحيطون بمخيم النساء إحاطة تامة. . وتقدم الأعداء بأعداد هائلة منه، فكانت سيوف الشباب ورماحهم بانتظارهم وباشروا القتال. . وكان منظراً مخيفاً مرعباً فالقتال عام شامل ومتقارب والحلقة محكمة على معسكر الحسين وكان على الرفاق الإتيان بمعجزة ليتم إنقاذ المعسكر ومن فيه.

* * *

وكانت المعجزة. . من العباس ومن كل واحد من الرفاق. . فقد صرخ

العباس معلناً عن مكانه، وآمراً بالاستمرار بالثبات:

ـ «وامحمداه».

. . وتبعه الكل بذلك فأخذوا يستدلون على مكانهم وعلى بعضهم من صوته وشعاره، وجددوا الصبر على القتال، وبدأوا بعملية تقارب لبعضهم وبذلك بدأوا عملية كسح هائلة، وخاصة كان ذلك من الفرسان، فإذا بفرسان العدو بعد قليل يبدو عليها ضعف مقاومتها، بل وكأن بها تجري عملية تخفيف. فصرخ قائد فرسان الأعداء بأحدهم:

ـ «اذهب للأمير، وقل له أما ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة؟ ابعث إليهم الرجال والرماة».

وسمع العباس ذلك فشدد حملته، وشدد الجميع، وإذا بالفرسان ينهزمون. ومن جهة أُخرى ما إن رأى مشاة العدو انهزام الفرسان حتى تضعضعوا، وفقدوا ثقتهم، فأخذوا بالتراجع، وهم يتلقون ضرباً وطعناً غريباً من الممكن لم تشهد مثله الدنيا، ولن تشهد مثله. . وكان الضغط خانقاً على الرفاق مما ملأ الحقد قلوب البعض منهم، وأولهم جون، لهذا ما إن رأى تراجع الأعداء حتى كر عليهم مع الرفاق، وأخذ يضرب الأيدي والأرجل. وفعل ذلك البعض، ولما رأوه يعطي نتيجة حسنة ويرمي بإصابات أكثر، بل إن ذلك كان كالقصاص من الأرجل التي تهجم على أهل البيت، وللأيدي التي ترفع السلاح مهددة أهل البيت. .

وسرعان ما كانت الأيدي تقطع، والأرجل تبتر، وبدأ صراخ الأعداء مخيفاً، صراخ كله استغاثة، فهذا يمسك يده المقطوعة ويهرب صارخاً، وذاك يسقط يتخبط بدمه، وقد قطعت إحدى رجليه. وأحس جون ومعه كثيرون بأن ذلك يشفي صدورهم، فلحقوا بهم وخاصة أن ذلك بدا سهلاً، لا يكلف قتل العشرة من الجهد بقتل واحد. ولكن الحسين كان يتابع المعركة بدقة، وما إن رأى ذلك حتى صرخ بأعلى صوته والعدو يتراجع:

ـ «لا تشللوا ولا تطرفوا». (أي لا تقطعوا الأيدي والأرجل). وأطاع

الرفاق على الفور، وغيروا خطة القتال، وجون يلحق بالأعداء، وهو يدمدم:

ـ «بأبي أنت وأمي، لا تنسى دينك في أصعب موقف يقفه بشري؟ لو نسيته مرة واحدة.. لنبيدنهم.. بأبي أنت وأمي.. بأبي أنت وأمي» وتابع بطشه العنيف، وهو يردد: بأبي أنت وأمي.. وفي تلك اللحظة كان عمر، يأمر بعض رجاله بحرق منازل (خيم) الحسين وتقويضها، فأسرعوا إلى المخيم من الجهة الخلفية، فتنبه شباب آل محمد لذلك، فأشعلوا النار بالخندق فمنعهم ذلك من التنفيذ، فعادوا واخترقوا الصفوف الجانبية قبل أن يتم تراجعهم، وأخذوا يرمون النار على المنازل أو يضربون أطنابها بالسيوف فانهار البعض منها.. فعاد قسم من الرفاق المشاة لمساندة شباب آل محمد، لحماية المنازل، وتركوا الفرسان وبقية المشاة يلاحقون المنهزمين، وبذلك بدأت عملية إبادة للذين تسللوا إلى المنازل، وأخذوا يقتلونهم الواحد تلو الآخر.. ثم تمت مجدداً الهزيمة المنكرة للأعداء..

وعاد العباس والرفاق إلى مراكزهم.

* * *

وبدأ عمر يتشاور مع أعوانه وقواده في أمر هذه العدة اليسيرة، كما عرفها الأعداء، والتي قالوا أنها ستكون أكلة واحدة.. ولكن ها هي هذه العدة اليسيرة، لم يأكلوها، بل هي أكلتهم، وكل واحد منهم كان أمر من الحنظل وأشنع من العلقم، في حلوقهم وأجسامهم.

وارتأى بعض القادة أن يذهب خمسمائة من الرماة يرشقون خيل فرسان الحسين ليعطلوها، بينما تكون بعض الفرق توالي حملات متقاربة متتابعة. ووافق الجميع.. وعلى ذلك. بدأت الفرق تهجم بحملات يساندها الرماة.

أما جيش الحسين، وليس كثيراً أن يقال عن أنصاره أنهم جيش، فكانوا كأنهم خلقوا فقط ليكونوا أبطال هذه المعركة، بل كأن أرض كربلاء أنبتتهم منذ نزول الحسين فيها ليدافعوا عنه.. لذلك لم يكونوا عاديين،.. كانوا

أسطوريين.. كانوا جبابرة عمالقة بكل شيء، بضربهم.. بطعنهم حتى بمشيهم وركضهم، حتى بوقوفهم أو كلامهم.. وهم أنفسهم الذين قابلوا الأعداء في معارك طاحنة رهيبة، هم أنفسهم، يتقدمهم العباس، عادوا ليقفوا بصف على طول معسكر الحسين.. وما إن بدأ وصول الأعداء حتى قابلوهم بسيوف كأنها من نار ورماح كأنها الشهب، وسهام تحمل الموت الذريع للمهاجمين..

ولكن يا للهول.. فقد أخذ الرماة يتصيدون جياد الفرسان، فإذا بها تعقر، فتحمحم متألمة، وتقفز وتشرد، أو تثور بفارسها.. ولاحظ ذلك العباس فنزل عن جواده وضربه فذهب هارباً إلى ناحية معسكر الحسين، وكذلك فعل الحر ونافع.. وأمر الكل أن ينزلوا، فنزلوا والسهام تنغرس بعنف بالخيول، فركض البعض هارباً شارداً، والبعض سقط قتيلاً.. وأصبح جيش الحسين بلا فرسان.. والهجمات تتتابع والقتال لم يزل مستمراً. وتضعضع الرفاق وتفرقوا عن بعضهم لكثرة الحملات وتقاربها، ثم لسعة المعركة.

ولجأ العدو ـ كعادته ـ للخداع، والاحتيال، فأمر عمر بتراجع الفرسان والمشاة بسرعة. ثم ببقاء الرماة الخمسمائة عن قرب.. وتراجع العدو. فإذا بكثير من الرفاق ـ ممن لم يستطع الإسراع بالتراجع ـ مكشوفين، وبدأ عمل الرماة، فإذا بخمسمائة سهم تطير.. منطلقة في أقل من ثانية، وكأن السماء تمطر سهاماً.. وتتابعت بكثرة وسرعة، وبدأت الإصابات بالرفاق تفري بهم فرياً ذريعاً، وإذا بكثيرين يسقطون والسهام تنغرس بظهورهم أو صدورهم، فيظهر هذا يقف فجأة ثم ينهار رويداً رويداً، ويركع والسيف بيده ثم يسقط. وذاك ينفتل من شدة وقع السهام، ويتجه نحو الأعداء، ثم يرميهم برمحه ويسقط قبل أن يسقط رمحه إلى الأرض صريعاً.. وهنا أحدهم صريعاً وقد ملأت جسمه الجراح، والدم يسيل من رأسه ووجهه وبدنه، يمسك بسيفه بكلتي يديه، وقد وجه رأسه للأرض ووضع جبهته على قبضته وتجمع عليها. وهناك آخر يهم بالسقوط وهو يقاوم، ولكن السهام المتتابعة المنغرسة في

ظهره، جعلته يفتح فمه بصرخة ثم يهوي.

كان كل واحد منهم يقتل بطريقة تختلف عن الآخر، ولكنهم كانوا كلهم يجتمعون بوحدة، هي البطولة.. هي العظمة.. هي الفداء.. هي الإيمان.. تلك الوحدة كانت كلمات جمعت بينهم جميعاً: فقد كان كل واحد وهو يستشهد يتمتم أو يصرخ:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله».

* * *

وهنا تتجلى عظمة بطولة كربلاء، وجبابرة كربلاء، وعظماء كربلاء.. فقد وصل الباقون أمام الحسين، فإذا به ينظر إلى الرفاق الصرعى عن بعد وهو يتمتم، والدموع تتلألأ بعينيه بفخر، باعتزاز، بحب، بحزن، بألم، فقد أخذ يتمتم مجيباً بصوت مسموع كلما رأى بطلاً يصرع ويسقط صارخاً، أو هامساً: السلام عليك يا أبا عبدالله:

ـ «وعليك السلام.. فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا..».

* * *

... وكان الرفاق الباقون، وأكثرهم في حالة يرثى لها، قد كثرت بهم الجراح، حتى سعيد نفسه فقد أصيب، وكذلك نافع وجون ووهب وهاني وعابس وسويد وكثيرون، وقفوا أمام الحسين يلهثون والدماء تلوث وجوههم وأجسادهم وثيابهم، وقفوا ينظرون إليه، وهو ينظر إليهم نظرة يتمنى كل قادة الدنيا وعظماء الدنيا، أن لهم واحدة منها، من أحد من هؤلاء.

وتقدم أبو تمامة الصائدي من الحسين، قائلاً:

ـ «يا مولاي.. نفسي لنفسك الفداء.. هؤلاء اقتربوا منك.. ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن ألقى الله ربي وقد صليت هذه الصلاة، فقد حان وقت صلاة الظهيرة». وكانت أمنية، وما أقدسها من بطل.

فقال له الحسين:

ـ «ذكرت الصلاة.. جعلك الله من المصلين الذاكرين.. نعم هذا أول وقتها». ثم التفت إلى حبيب وزهير، قائلاً:

ـ «سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي». فذهب حبيب وزهير يتقدمان من القوم يطلبان ذلك، فبرز لهما أحد القادة، وهو الحصين بن نمير، صارخاً:

ـ «إنها لا تقبل صلاتكم».

فانتهره حبيب، قائلاً:

ـ «زعمت لا تقبل الصلاة من آل رسول الله وأنصارهم، وتقبل منك يا خمار؟».

فغضب الحصين وهجم على حبيب، فامتشق سيفه وضربه به، فسقطت الضربة على وجه الجواد، فنفر الجواد وسقط الحصين، وهجم حبيب عليه، فخرج كثيرون من معسكر العدو، وهجموا على حبيب وزهير، وبدأت معركة صغيرة واستعد الرفاق، وهرولوا لإنقاذ حبيب وزهير، ولكن عمر أمر رجاله بالعودة، تاركين قتيلاً واحداً، فعاد حبيب وزهير والرفاق، وقد أظهر ابن سعد الرضى بوقف القتال حتى يصلي الحسين بأصحابه.

* * *

وتقدم الحسين للصلاة، واصطف الباقون من الرفاق خلفه.. وكانت أغرب أو أعظم صلاة يؤديها محاربون، يكفي أن يكون وضوؤها الدم بدلاً من الماء. وبدأ الحسين الصلاة. وكان سعيد خلفه مباشرة.

ولكن..

لم تمض لحظات، وإذا بعدو الإيمان في أي زمان ومكان، وهو مزيج الحقد والخيانة واللؤم والجبن.. إذا بهذا العدو يغتنم فرصة انشغال الحسين وشباب آل محمد والرفاق بالصلاة، وقد تركوا أسلحتهم جانباً، واستسلموا لله وحده، يرفعون له صلاة لا تفضلها إلا صلاة الأنبياء والمعصومين..

. . . فقد تقدم العدو متسللاً، ثم بدأ يرمي المصلين بالسهام وخاصة الحسين . .

وأخذت السهام تطير، متتابعة وبكثرة، وكأنها رسل الحقد واللؤم والخيانة والكفر، وأكثرها موجه للحسين . . وتنبه المصلون ليجدوا السهام تنزل عليهم كالمطر، فتركوا الصلاة وذهب كل واحد منهم ليأخذ سلاحه، أو ليتقيها بينما بقي الحسين يكمل الصلاة . . وعم الهرج والمرج، فأطل الأطفال والنساء وجميلة منهن من منازلهم (خيمهم) يستطلعون، ليروا رجال الحسين بفوضى وقد سقط البعض قتلى منهم من كان راكعاً، وأصيب فسقط، ومنهم من كان ساجداً فصرع . . ثم :

وهنا تتجلى البطولة بأبرز وأدق معانيها . . بطولة نادرة، مثالية، رائعة، يستطيع الحسين، ومحبو الحسين، أن يفاخروا بها الدينا بأسرها . . وكانت ممثلة بسعيد . . الذي هالته السهام الموجهة إلى الحسين، فقطع صلاته وشمل ما يجري بلهفة، وبلمح البصر، اتخذ قراراً رهيباً . .

تقدم سعيد خطوات، ووقف أمام الحسين، وقد باعد بين قدميه وشد قامته، فبدا عملاقاً رائعاً بصدره البارز المرتفع، ومنكبيه العريضين، وجسمه الرياضي الطويل، وأنفه الأشم، وشبابه الفياض، وكل حيويته . . وقف وقفة لم يقفها ولن يقفها، إلا من رسخ الإيمان في قلوبهم، وخلقوا ليكونوا رمز البطولة . .

وكانت رشقات السهام تطير متوجهة للحسين . .

ولكن ها هو درع أمامه . . درع من لحم ودم . . درع من بطل اسمه سعيد. وانثرت السهام حوله، هذا لا يمسه، وهذا يعلق بثوبه . . والحسين يكمل الصلاة . . وتوالت الرشقات، وكثر سقوطها حول سعيد . . وبقي البطل واقفاً لم يتزحزح . .

ولكن إذا بسعيد يهتز قليلاً، وقد انغرس سهم في صدره، فبقي كما هو وكأن شيئاً لم يحدث . . وانغرس الثاني والثالث وبقي واقفاً . . .

وفغر الرفاق جميعهم أفواههم للمنظر الرهيب الرائع للحظة، وهم يرون سعيداً والسهام تتطاير حوله، وهو يقف جباراً عنيداً. . وانغرس السهم الرابع والخامس والسادس، وسعيد هو هو، تمثال بدون حركة، اللهم إلا من اهتزازه عندما يتلقى سهماً بصدره. . ولكن ها هو يتحرك إلى اليمين قليلاً، ثم إلى اليسار، وظن الجميع أنه قتل وسيسقط، ولكن كم كان إعجابهم عظيماً شديداً، عندما أدركوا أن حركته لم تكن إلا ليتلقى سهاماً جديدة، كانت ستفلت من ناحية جنبيه إلى الحسين. وأصبحت السهام عشرة في صدره ونحره، . . والحسين يكمل الصلاة.

وصرخ العباس حاملاً ترسه، وهو يركض ناحية الحسين وسعيد:

- «إلي بالتروس. . اصنعوا جداراً منها».

وكان ذلك بلحظات. مما جعل نافعاً وهانياً ووهب، وجون يحدقون برعب وخوف على سعيد، ممزوج بالحقد على الغادرين الفاجرين، وما إن سمعوا نداء العباس، حتى ركضوا يحملون تروسهم، وفعل ذلك كثيرون، بينما كان سعيد يتلقى مزيداً من السهام، حتى أصبحت ثلاثة عشر سهماً، عدا ما كان فيه من الجراح. . ولكنه بقي واقفاً وقد بدا عليه التعب الشديد، وأخذ يترنح، ولكنه تابع وقوفه، حتى سمع جلبة الرفاق، وهم قادمون، ممتزجة بتسليم الحسين معلناً انتهاء صلاته. . عند ذلك سقط البطل راكعاً على قدميه. وبلهفة القائد، وحب وحنان الصديق احتضنه الحسين. . في تلك اللحظة كان الرفاق يؤلفون جداراً حديدياً من التروس جعلوه كمظلة فوق الحسين وسعيد، حيث كان حاجزاً من سقوط السهام، التي كانت لم تزل تنزل كالمطر الغزير، وسقط سعيد.

ومسح الحسين وجه سعيد، الذي نظر إليه بحب كبر وكبر حتى أصبح اسمه الفداء، ثم فتح فمه قائلاً بهمس، والسهام تملأ صدره ونحره، وأكثرها منغرس إلى نصفها فيه:

- «مولاي. . لي رجاء».

فتساءلت نظرات الحسين بلهفة:

فأجاب سعيد:

ـ «. . اتركوني هنا. . لن يمروا إليك إلا على جثتي».

فحدق به الحسين وتمتم بصوت مسموع:

ـ «رحمك الله يا سعيد. . وأدخلك فسيح جنانه».

فقال سعيد مبتسماً بضعف تحية أبطال كربلاء:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله».

فوقف الحسين تحت مظلة التروس، وقد ترك سعيداً بلطف وقال بصوت متهدج:

ـ «وعليك السلام. . منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا».

. . ورجع الحسين تحت مظلة العباس والرفاق إلى مخيمه.

وكانت جميلة تقف بباب خيمتها، وقد رأت كل ما حصل، وهالها الأمر، وجحظت عيناها، . . وإذا بها تخرج راكضة كالمجنونة. .

ووصلت لترتمي عليه كالذاهلة، تتلمسه بلهفة وتناديه. . ولكن سعيداً كان جثة هامدة. . فركعت عند رأسه، وهي تنظر إليه، وبدت كأنها فقدت عقلها فأصبحت زائغة البصر، منبوشة الشعر، وبدت على وجهها مسحة مرعبة، ثم أخذت تلهث وهي تحملق به، وتتمتم:

ـ «سأموت معك. . سأموت معك. . خذني معك».

ثم إذا بها تقف صارخة، وانحنت والتقطت سيفاً، وهجمت على الأعداء تصرخ فيهم:

ـ «مجرمون. . قتلة. . كفرة. . فجرة»، ولكنها لم تخط خطوات، وإذا بالسهام تنهال عليها، وينغرس كثير منها في صدرها، فترنحت وهي ترمي

السيف من يدها، ثم سقطت عن قرب من سعيد، وإذا بها تتحرك بصعوبة وتزحف نحوه لتحتضن إحدى قدميه، وتهمس:

ـ «لن أتركك يا حبيبي». وماتت.

وكان منظراً مفجعاً، جعل معسكر الحسين بصمت، وعيونهم تنصب على سعيد وجميلة، جعل الجميع يحيونهما تحية الشهداء، بدموع تلألأت في عيونهم، وخاصة رفاق سعيد ووهب ونافع وجون وهاني.. فقد أخذوا ينظرون إليهما عن بعد، وقد انحدرت الدموع على خدودهم وأخذت تختلج ملامح وجوههم، وترتجف شفاههم، ثم أدار كل منهم وجهه لناحية، يخفي تأثره ومشاعره، فنافع عض على شفته يغالب نفسه من أن ينفجر باكياً وهو يهتز، ووهب يضغط بأسنانه على أسنانه مرتبكاً، وهاني يتلمس رقبته وكأنه يختنق، وجون يمسح دموعه بكمه، وقد تبدلت كل ملامحه حتى أصبح مرعباً.

* * *

ضعفت مقاومة الرفاق، لما نزل بهم من خسائر كبيرة، فقد أصبحوا كلهم من المشاة إلا نافعاً بقي جواده سالماً وكذلك الحر رغم الجراح.. ثم قتل منهم أكثر من نصفهم فأسقط بأيديهم، وأصبح من شبه المؤكد أنهم كلهم مقتولون.

وتقدموا من الحسين، وأحس بذلك رفاق سعيد، وتبادلوا النظرات، وانضموا للجميع الذين وقفوا أمامه، والعباس يقف قربه، وواجهوا الأعداء من جديد.. وسرعان ما تبدلت نظرتهم جميعاً بما فيه رفاق سعيد، فقد جفت دموعهم، ونسوا كل شيء إلا الأعداء والدفاع عن الحسين، وانتقل الحر من صف الرفاق، ووقف أمام الحسين، وقال:

ـ «مولاي أبا عبدالله.. إذا كنت أول من خرج عليك فأذن لي أن أكون أول قتيل بين يديك.. لعلي أكون ممن يصافح جدك، غداً في القيامة».

وأذن له الحسين. فقال الحر تحية أبطال كربلاء:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله».

فقال الحسين:

ـ «وعليك السلام. .».

وتوجه الحر نحو الأعداء. . وما إن ابتعد قليلاً حتى تمتم الحسين:

ـ «منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر. . .».

وكان الأعداء شعروا بغلبتهم على الرفاق، ورأوا قلتهم. فأمر عمر بتراجع الرماة، ووقف الفرسان والمشاة عن بعد، وقد تجمعوا وسووا صفوفهم، ومع أنهم نقصوا آلافاً إلا أن بقاياهم ما زالت آلافاً متراصة.

وتقدم الحر فارساً، على مهل، ثم لما وصل منهم عن قرب، وقف مسلطاً سيفه بيمينه، وترسه بيساره، ورأسه سافر، وهو معصوب بعصابة الحسين، وطلب البراز. .

وخرج من القوم واحد، وما هي إلا ضربتان، حتى كان مجندلاً. . وخرج آخر ولحق بالأول، ثم آخر، وسرعان ما قتل. فشد الحر على العدو، وهجم مخترقاً صفوفهم وبدأ يقاتل قتالاً شديداً، ولكن الأعداء تكاثروا عليه وكثرت ضرباتهم وطعناتهم، فكان يتقيها بحكمة وحنكة، مما جعل أكثرها ينزل بفرسه فعقر وسقط، فقفز عنه الحر، وعاد يشد راجلاً عليهم، وهو يضرب بشدة، حتى قتل أكثر من أربعين مقاتلاً. . ولكن، إذا به يصاب بسهم ترنح له، واغتنم الأعداء الفرصة فانهالوا عليه بالسيوف ضرباً، وأثخن على الفور بالجراح، فتراجع نحو معسكر الحسين، ثم إذا به يسقط عن قرب.

وكان الحسين والرفاق يراقبون ذلك، فتقدم بعضهم إلى الحر وحملوه ووضعوه بين يدي الحسين، الذي انحنى عليه يمسح التراب عن وجهه، ويقول:

ـ «أنت حر كما سمتك أمك، حر في الدنيا والآخرة».

فتبسم الحر، ومات.

* * *

وتقدم بعده عمرو بن خالد الصيداوي، وسعد مولاه، وجابر بن الحارث السلماني، ومجمع بن عبدالله العائذي.. ووقفوا أمام الحسين قائلين:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله».

فرد الحسين:

ـ «وعليكم السلام.. تقدموا، إنا لاحقون بكم عن ساعة».

فتقدم الأربعة مشاة، ثم هرولوا يهجمون على الأعداء، والحسين يتمتم:

ـ «منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر..».

وسرعان ما أوغلوا يقاتلون بشدة، وإذا بالأعداء يحاصرونهم ويقطعون عليهم طريق العودة.. فنظر الحسين للعباس.. وقال له:

ـ «أدركهم».

وكان العباس، وكأنه كله سمع، فإذا به يمتطي جواده، ثم يركز رايته بالأرض، ثم يطلق لجواده العنان.. وأخذ يعدو والعباس مسلط سيفه، ولا يشك من يراه من أنه القضاء المحتم، وكان الرفاق الأربعة بضيق شديد، وقد حوصروا وأصيبوا بجراح بليغة.. وإذا بالعباس يصل وينزل بالأعداء كالصاعقة وبدأ يضرب ضرباً منكراً، أخذ يكشفهم شيئاً فشيئاً، وسيطر الرعب عليهم، فصرخ أحدهم: «إنه العباس.. إنه العباس»، فعمهم الرعب وهربوا من وجهه، وصل للرفاق الأربعة فاتحاً أمامهم الطريق للعودة، فرجعوا والدماء تتفجر من رؤوسهم ووجوههم وأجسامهم.

وعاد بهم، ولكنهم بالطريق وقفوا، وكأنهم تنبهوا لأمر، فقال أحدهم:

ـ «يا أبا الفضل، إلى أين سنذهب؟.. نحن هنا لنموت أمام

الحسين. . نريد أن نعود». فتطلع إليهم العباس ليرى أن لا أمل أمامهم، وقد أثخنوا بشكل مريع، فتركهم ليعودوا ليستأنفوا القتال. . ولكنه لم يطل، وأخذ يسقط الواحد تلو الآخر مضرجاً بدمه.

وتقدم برير، وقال للحسين:

- «السلام عليك يا أبا عبدالله. . والله يشهد إني على هداك وهدى أبيك».

فقال الحسين:

- «وعليك السلام يا برير. . تقدم إنا لاحقوك عن ساعة».

وهجم برير على الأعداء بقوة، فأخذوا يفرون منه، فأخذ يصرخ بهم:

- «اقتربوا مني يا قتلة المؤمنين. . اقتربوا مني يا قتلة أولاد البدريين. . اقتربوا مني يا قتلة رسول رب العالمين وذرية الباقين».

وتقدم أحدهم قائلاً:

- «أتذكر يا برير، وأنت تقول أن معاوية ضال مضل، وأن إمام الهدى والحق علي بن أبي طالب؟».

فقال له برير:

- «أشهد أن هذا رأيي، وقولي».

فقال الرجل:

- «أشهد أنك من الضالين».

فقال له برير:

- «إذن قف لأريك من هو المحق منا والمبطل».

وضربه ضربة فلقت رأسه فسقط قتيلاً. وعطف الأعداء عليه وأخذ يقاتلهم، حتى قتل عدداً كبيراً. . ولكن تكاثروا عليه فسقط.

* * *

وكان وهب تلك الأثناء نوى أمراً، فتقدم نحو خيمته ليجد أمه تحتضن هانية زوجته، وهي تبكي بكاء شديداً، ودخل قائلاً:

ـ «أماه استودعك الله. . وأنت يا هانية. . استودعك الله».

فوقفت هانية وارتمت عليه، وهي تبكي بكاء شديداً، وقالت وقد غلبها حبها له، وكأن هناك ما يدفعها لقولها:

ـ «بالله عليك يا وهب، لا تفجعني بنفسك».

فاعترضت الأم، وقالت لوهب:

ـ «لا. . اذهب وقاتل».

فنظرت هانية إلى أمه، وهي لم تزل تبكي نظرة كأن بينهما سراً لا يعرفه وهب. . فتساءل. . فقالت الأم بلا مبالاة:

ـ «إن هانية حامل». وشعر للحظة بفرحة تعم كيانه، ولكن الموقف لم يكن موقف فرح، فقالت الأم:

ـ «. . انصر ابن بنت رسول الله يا بني».

وما إن سمع ذلك، حتى نسي كل شيء فخرج، وإذا بالأصوات تهتف:

ـ «قتل برير. . قتل برير. . »

وتقدم وهب من الحسين، وإذا بهانية تلحقه، ووقفت هي الأُخرى أمام الحسين، لتقول له على مسمع من جميع الرفاق:

ـ «سيدي. . وهب يريد البراز. . ولي شرط».

فقال الحسين:

ـ «ما هو؟».

فقالت بطيبة وبراءة: «إذا قتل، فسيذهب للجنة، وهناك حور عين. . وشرطي أن تأخذ لي منه عهداً، أن لا ينساني».

وشعر الرفاق بكلماتها تنزل كالطعنات بهم، أما الحسين فانحدرت

الدموع على وجنتيه حناناً واحتراماً لذلك الحب الكبير، وقال:

ـ «جزيتم من أهل بيت خيراً. . ذلك لك».

فعادت هانية إلى خيمتها، لتقف ببابها، والخوف على وهب يسحقها، وأمه تواسيها بأروع وأعظم ما تحمل الأمومة من صبر، وقال وهب للحسين:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله».

فتأمله الحسين قليلاً وقال:

ـ «وعليك السلام يا وهب».

وانفتل وهب، ملتفتاً إلى جون ونافع وهاني، قائلاً بهمس:

ـ «الرماة».

وذهب متجهاً نحو الأعداء. . وأوهمهم أنه سيهجم على الفرسان، ثم انعطف لناحية يكثر فيها الرماة، وبدأ معركة شديدة، وأخذ يفتك بهم فتكاً أثار إعجاب معسكر الحسين، وحقد الأعداء الشديد. . وقد تجلت كل بطولته وشدته ومهارته بالقتال، حباً ودفاعاً عن الحسين، ثم حقداً وانتقاماً للغادرين بسعيد. . وكثر الصرعى والقتلى، فتكاثر عليه الرجال والفرسان والرماة، وضربه أحدهم على شماله فقطعها، فبقي يقاتل بيمينه والدماء تتفجر من يده. . وكأن فكرة خطرت لأحد القادة، كلها لؤم وحقد فهتف: «اقطعوا يمينه واتركوه». وكثرت حوله السيوف، وهو لم يزل يقاتل، وإذا بضربة ثانية تبتر يمينه، فسقط السيف من يده، وأصبح بلا يدين، والدماء تتفجر منهما، وتركه الأعداء ليتشفوا به، ولينتقموا منه، فتراجع نحو معسكر الحسين، ولكن أحد الرماة سدد سهماً إلى ظهره، ورماه به، قائلاً:

ـ «أما بعد هذا، فلن يعيش». وانغرس السهم بعنف في ظهر وهب، فترنح قليلاً، ثم تابع سيره، وهو يجر نفسه جراً. .

وكان كل من بمعسكر الحسين يراقب ذلك، ومنهم هانية التي هالها ما أصاب وهب، فالتقطت سيفاً وركضت نحو وهب، وهي تهجم على

الأعداء. . أما الأم، فقد كانت ترتجف بعنف تأثراً وألماً على ولدها، وهي تغالب مشاعرها، قائلة بألم مرير:

ـ «أبداً. . أبداً. . مت في سبيل ابن بنت رسول الله».

وتابعت هانية طريقها نحو الأعداء، فقطع عليها وهب الطريق، وأمسك ثيابها بأسنانه، وأخذ يجذبها ويجرها بشدة، وهي تصرخ وتقاوم تريد متابعة هجومها. ووصل بها إلى الحسين، ووقف مترنحاً، فقال الحسين:

ـ «جزيتم من أهل بيت خيراً». ثم قال لهانية:

ـ «ارجعي إلى النساء، رحمك الله»، فرمت السيف من يدها بينما سقط وهب، فانكبت عليه تبكي بشدة وتناديه، فقال لها بصوت ضعيف، وكأنه يريد أن يقول شيئاً:

ـ «هانية»، فأنصتت. . فقال:

ـ «إذا ولد لي ولد، سميه الحسين».

فنظر إليه الحسين نظرة طويلة، وقد بدا التأثر الشديد على محياه النبيل، وانسكبت الدموع من عينيه. فالتفت وهب إلى الحسين، وقد رفع صوته:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله».

فتمتم الحسين:

ـ «رحمك الله يا وهب. . منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر. .».

وأغمض وهب عينيه. . ومات البطل . وكانت أمه تقاوم مشاعر الأمومة فيها، ولكنها لم تستطع، فانفجرت أخيراً، وخرجت من الخيمة، وهي تركض لتنكب على وهب، تبكيه بحرقة، ثم وقفت وأخذت عمود خيمة، وهجمت على الأعداء، وأخذت تضربهم بالعمود، ولكن الأعداء كانوا على عهدهم من اللؤم، فانهالوا عليها بالسيوف، وقتلت على الفور. . بينما كانت هانية تعود كالمحطمة إلى خيمتها.

وكـان كل معسكـر الحسين يتابـع ذلك إلا نـافع، فقـد أخذ ينحني هنـا وهناك، يلتقط سهاماً ويضعها بكنانته، ثم تقـدم نحو الحسين، وقـد بدا بـائساً يائساً كهرم، وقال:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله».

فقال الحسين متأثراً:

ـ «يا نافع.. بلغني أن لك مخطوبة.. والقوم لا يريدونك».

فعبس نافع، وارتجفت خلجات وجهه، وقال:

ـ «السلام عليك يـا أبا عبـدالله». وكان ذلـك منه إصـراراً على الإذن له بالبراز.

فقال الحسين، عند ذلك:

ـ «وعليك السلام يا نافع».

فتـراجع قليـلاً، ثم هتف بـاسم جـواده، فـإذا بـه يـأتي، ويقف أمـامـه محمحماً. ووضع كنانته وقوسه في محلها، ثم وضع كفـه على ظهر الجـواد، وقفز وأدار العنان، وهو ينظر إلى هاني وجون بصرامة، وأطلق لجواده العنان.

ورآه العـدو، وهو يقتـرب وعرفـوه، أنه ذلـك الفتى الرشيق، والمقـاتـل بذكائه أكثر من قوته، فبرز له ثلاثة واتجهـوا نحوه، وامتشق سيفـه وهجم على أحـدهم، وضربـه فقتله، وضرب الثـاني، ولكنـه كـان يلبس درعـاً فلم تفعـل الضربة به شيئاً، وبسرعة فكر ونفذ، فانحنى عن جواده والفارسان يـلاحقانـه، والتقط رمحـاً من على الأرض ثم استوى على جـواده بخفة، وأخـذ يبتعد عن الفارسين، وظن الجميع أنه هرب، ولكنه عاد ورجـع إليهما، والجـواد يركض به بسرعة حتى قرب من أحدهما، وإذا بنافع يشد العنان، فيقف الجواد فجأة، واندفع من ظهر جواده طائراً، وبيـده الرمـح الذي انغـرس بعنف مخترقـاً درع الفارس من صدره إلى ظهـره، وسقط على الفور، ونـافع قـربه على الأرض. وهجم الفارس الثاني وقد هاله ما رأى، ولكن نـافعاً التقط رمحـاً آخر وتـراجع

راكضاً وعاد واستدار نحو الفارس وركض، وعلى بعد خطوات من الفارس ركز رمحه بالأرض، وهو ممسك أعلى الرمح بيديه، واندفع بالهواء ليسقط على الفارس الذي هوى، ونافع فوقه يمسك سيفه ويقتله.. وكان قد وصل على مقربة من الأعداء، فتقدم وأخذ الكنانة والقوس من سرج جواده، ثم احتمى خلف جواد مقتول، وسدد قوسه نحو الرماة، وبدأ الرمي..

وكان نافع رائعاً، أكثر منه هائلاً، فكانت كل حركاته جميلة تسترعي الانتباه والإعجاب، لذلك كان معسكر الحسين ينظر له بحب عميق وإعجاب شديد، وهو يرمي، وكل سهم يطلقه يصعق واحداً منهم، وكثر القتلى فيهم وبادلوه بالمثل، فأصابوا جواده فقتل، وطال الوقت وهو لم يزل يرميهم بإحكام وتسديد، ولكن سهامه أخيراً نفذت.. فامتشق حسامه وهجم عليهم..

وكما أن معسكر الحسين، كان ينظر إلى نافع بملء الحب والإعجاب، كان معسكر العدو ينظر إليه بكل الحقد، فهتف عمر قائلاً:

ـ «آتوني بهذا الفتى حياً..». وكان نافع يهجم، وإذا بالعدو يفتح له الطريق، ثم حين أصبح بينهم قطعوه عليه، وأخذ يقاتل بخفة ورشاقة قتالاً شديداً، وقاتله الأعداء قتالاً مماثلاً، فإذا به يصاب بجراح في رأسه ووجهه، ثم إذا بهم يضربونه على يده اليسرى فكسرت من العضد، واتبعوا ذلك بضربات على يده اليمنى لتكسر أيضاً، ويسقط السيف من يده، وشلت حركته على الفور، فأحاطوا به وأمسكوه يقودونه إلى عمر حيث كان مع قواده.. فوقف نافع أمامه لاهثاً، والدماء تغطي وجهه، فقال عمر وهو لا يستطيع أن يخفي إعجابه:

ـ «يا نافع.. ما حملك على ما صنعت بنفسك؟».

فقال نافع متحدياً:

ـ «إن ربي يعلم ما أردت.. ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني».

فامتشق شمر سيفه، وقال لعمر:

ـ «هبه لي لأقتله».

فقال نافع باحتقار:

ـ «لو كنتم من المسلمين، لعظم عليكم أن تلقوا الله بدمائنا، فالحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه».

فقال عمر، وقد انقلبت سحنته بتشف:

ـ «لا.. دعوه حياً».

فقال شمر:

ـ «إذاً.. سيموت كل لحظة ميتة أشنع من الأُخرى». ثم هتف برجاله:

ـ «أركبوه فرساً، ووجهوه حيث يرى ما يحل بحسين وأصحابه».

وأركبوا نافعاً فرساً، ووجهوه نحو معسكر الحسين، ليرى جون يتقدم من الحسين، وعرف أنه يطلب الإذن بالبراز وقال جون:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله».

وأجابه الحسين.. فتقدم جون راجلاً، وبيده اليمنى سيف وباليسرى ترس، وقد بدا كأحد الجبابرة. وخرج إليه على الفور من الأعداء عدد كبير يحيطون به، ولكن جون الضخم، جون الهائل، الذي كان يهزم العشرات بترس، كان هنا أعنف وأشد وأرهب، فإذا به يبددهم، وكأنه يفعل عملية إبادة، واستئصال، وأخذ القليل القليل المتبقي منهم يفر من وجهه هارباً، وهو يتابع هجومه حتى وصل للرماة، وانقض عليهم، وقابلوه بالسيوف، وبدا كأنه يحاسبهم محاسبة دقيقة وردوا عليه بشدة هجومه، فثبت لهم، وأخذ يتصيدهم، أفراداً وجماعات.. حتى جندل منهم عدداً كبيراً.

واستطاع عدد آخر من الأعداء الانسحاب، ليأخذوا أقواسهم بأيديهم بسرعة وفوضى، وألقموها السهام، ثم صرخوا بالثابتين لجون، أن يخلوا المعركة، فارفض هؤلاء من حوله، وأصبح جون وحيداً وسط المعركة، يواجه الرماة والسهام.. وأراد العودة للهجوم، ولكن إذا بالسهام تنطلق كثيرة مسددة

إليه، فتوقف وقد انغرست في صدره بعنف، فانفتل قليلاً، وإذا بدفعة ثانية تغوص بظهره وجنبيه، فوقف مترنحاً، وهو يقاوم وكأنه لا يريد السقوط، ولكن دفعة أخرى من السهام، جعلته يركع ثم يسقط إلى الأرض، والسيف لم يزل بيمينه والترس بيساره. .

ومن البعيد، كان الحسين يقول، وهو ينظر للبطل الشهيد:

- «اللهم بيض وجهه وطيب ثراه، واحشره مع الأبرار وعرف بينه وبين محمد وآل محمد».

أما نافع فقد ظهر وكأن الأمر لا يعنيه إذ كان يعرف سلفاً كما يعرف نفسه، من أن الجميع سيسقطون، لذلك لم يبد على وجهه أي تأثير.

* * *

أما الأعداء، فقد أرعبهم من جديد ما فعل بهم جون، ومن سبق جون من الرفاق، فهجمت أعداد كبيرة على مخيم الحسين، وهي كأنها تستعجل انهاء القتال ولكن. . ما بقي من الرفاق ظهروا لهم كعادتهم وكما هم وعلى حقيقتهم، السيوف رهيبة، والرماح مرعبة، والسهام كالصواعق. . ولكن المهاجمين اقتربوا مع ذلك من الحسين، فوقف حنظلة بن سعد الشبامي وعمرو بن قرظة الأنصاري أمامه، يدافعون عنه بينما تفرق الرفاق والعباس أمامهم، هنا وهناك يدافعون دفاعاً مستميتاً، ومع ذلك كادوا يصلون إلى الحسين، ووسط الضجيج وقعقعة السلاح رفع حنظلة بن سعد الشبامي صوته، عالياً ينادي، ولم يزل يحارب:

- «يا قوم. . إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلماً للعباد. . يا قوم، إني أخاف عليكم يوم التناد، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم. . يا قوم. . لا تقتلوا حسيناً فيسحقكم الله بعذاب، وقد خاب من افترى».

وفي تلك اللحظة كان عمرو بن قرظة الأنصاري يحارب قربه، أمام

الحسين، والسيوف تنزل عليه بعنف، والرماح تطعنه، والسهام تنغرس في وجهه ونحره، وصدره.. وسقط البطل، بينما كان البعض من الأعداء يشتمون حنظلة بن سعد، وكل الرفاق، وهم يوجهون له ضربات السيوف، وطعن الرماح وسهاماً تثبت بوجهه ونحره وجسده.. وسقط البطل الثاني..

وكأن المهاجمين، اكتفوا بسقوط اثنين من الرفاق،فتراجعوا وبقي الرفاق الباقون حول الحسين.

وتقدم الحسين من البطلين، فقال عمرو هامساً:

- «يا بن رسول الله.. أوفيت؟».

فقال الحسين:

- «نعم أنت أمامي في الجنة، فاقرأ رسول الله عني السلام، واعلمه إني بالأثر».

فقال عمرو:

- «السلام عليك يا أبا عبدالله».

فرد الحسين:

- «وعليك السلام.. منهم من قضى نحبه...».

وتقدم الحسين إلى حنظلة، الذي فتح فمه بضعف، وقال:

- «السلام عليك يا ابن رسول الله وعلى أهل بيتك، وجمع بيننا وبينك في الجنة».

فقال الحسين:

- «وعليك السلام.. آمين.. آمين»، ثم أضاف:

- «منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر...»، ومات البطلان.

وتقدم أبو تمامة الصائدي من الحسين، قائلاً:

- «السلام عليك يا أبا عبدالله».

فرد الحسين كالعادة، كما يرد على الجميع، وذهب أبو تمامة وقاتل قتالاً شديداً، ثم احتوشوه وقتلوه.

* * *

ثم تقدم سويد بن أبي المطاع، وقال:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله».

فرد الحسين عليه وذهب سويد مشرعاً سيفه وبدأ يقاتل قتالاً عنيفاً، يشبه إلى حد بعيد قتال سعيد، وغاب بين جموع الأعداء قليلاً، ثم ظهر وقد أثخن بالجراح، وإذا بالسهام تنتشر حوله، وكثير منها يصيبه، فمشى مترنحاً نحو معسكر الحسين، وعلى بعد سقط..

وتقدم زهير، وجرى له ما جرى لمن سبقوه.. وبعد قتال شديد سقط، فقال الحسين، وهو يرى زهيراً يصرع:

ـ «لا يبعدك الله يا زهير، ولعن قاتليك، لعن الذين مسخوا قردة وخنازير».

وتقدم عابس بن شبيب الشاكري، ومعه شوذب، وكان المتكلم شوذب، فقال:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله ورحمة الله وبركاته.. أستودعك الله».

فرد الحسين عليه، فخرج وقاتل حتى قتل.. وقال عابس للحسين وبجبينه جرح كبير:

ـ «يا أبا عبدالله.. أما والله ما أمسى على وجه الأرض قريب ولا بعيد أعز علي وأحب إلي منك، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم، أو القتل، بشيء أعز من نفسي ودمي لفعلت».

ثم أضاف:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله.. أشهد الله إني على هداك وهدى أبيك».

فـرد الحسين عليه، كمـا هي العادة. . وتقـدم عابس مسلطاً سيفـه، ثم هجم على الأعداء هجوماً لا يشبهه إلا هجوم جون، فـأخذ يبـطش بهم بطشـاً عنيفاً أرعبهم ففروا من أمامه. . فوقف وأخذ عمـامته وضـرب بها الأرض، ثم رمى بترسه، وبدا مرعباً رهيباً، وأخذ يصيح:

ـ «ألا رجل لرجل. . ألا عشرة لرجل؟».

فصاح أحد الأعداء:

ـ «أيهـا الناس، هـذا أسد الأسـود، هذا ابن شبيب البـطل القـوي، لا يخرجن إليه أحد منكم. . ارموه بالحجارة».

عند ذلك نزع عابس درعه ورماه، وهجم عليهم هجمة أطارت صـوابهم من الخوف، فأخذوا يفرون من بين يديه، وكانوا أكثر من مئتين، وهو يلاحقهم ويضربهم بسيفه ضرباً عنيفاً، فيسقط منهم العدد العـديد. . ولكن لحقـه عدد كبير من الأعداء من الخلف، وإذا به في الوسط، فتراجع الهاربون وألفوا حوله حلقة، وأخذوا يرشقونه بالسهام والحجارة، وهـو يهجم من هنا وهنـاك، ولكن لم يطل الوقت، وإذا بالبطل يسقط قتيلاً.

وتقـدم حبيب بن مـظاهـر، جليـلاً مهيبـاً، ولحيتـه بيضـاء تنسـدل على صدره، ونور الإيمان يشع من وجهه، ووقف أمام الحسين بصمت للحـظات، ثم احتضنه معانقاً، وقال:

ـ «السـلام عليـك يـا أبـا عبـدالله. . استـودعـك الله». . وبكى بنشيـج خـافت، فبكى الحسين بصمت. . ثم تركـه حبيب، وتقـدم لـلأعـداء، وبـدأ يقاتلهم قتالاً شديداً، وكأنه يبدأ من جديد، بل وكأنه لم يحارب لمدة طـويلة، ودخل بين القوم حيث احتـوشوه، بعـد أن فرى بهم فـرياً ذريعـاً، ولكنه سقط بينهم، والسيوف تنهال عليـه بعنف، والرمـاح تخترق جسـده كله، فبدا التـأثر الشديد على الحسين وهو يرى صفوف القوم تبتلعه. . وكأنه صدم صدمة قـوية وكيف لا وهـو يـرى تـاريخـاً من البـطولات والإيمـان والكفـاح ضـد تحـريف

الإسلام ينطوي، فقال:

- «منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر...»، ثم أضاف بألم عميق:

- «عند الله أحتسب نفسي، وحماة أصحابي».

وتقدم عمرو بن خالد الأزدي، وقربه ابنه خالد بن عمرو.. وقال الأب مردداً كما فعل من تقدم قبله:

- «السلام عليك يا أبا عبدالله»، ثم ذهب يشيعه الحسين بنظرة يتبعها قوله:

- «وعليك السلام.. منهم من قضى نحبه...».

وذهب للقوم يقاتل قتالاً شديداً، ثم تبتلعه تلك الأمواج البشرية الهادرة.. وتبعه ابنه، فجرى له مثل ما جرى لأبيه..

* * *

وأخذ الأبطال، وكانوا يقفون أمام الحسين، ويواجهون الأعداء.. يستدير كل واحد منهم نحوه، ويتقدم مرفوع الرأس، مشدود القامة، ويقول بلهجة تختلف عن الآخر، ولكنها كلها تتوحد بالآباء، بالفداء، بالطاعة.. بالحب، بالوفاء: «السلام عليك يا أبا عبدالله». ثم ينفتل ويتجه بكل ما فيه من إباء، وفداء.. وطاعة.. وحب.. ووفاء.. وقد سطرت سيوفهم بالأعداء كلمات كانت بأحرف من جراح ودماء، أصبحت درساً للأجيال وكل الأجيال، تنبيء عن عظمة ملحمة كربلاء، وبطولة معركة كربلاء.

تقدم... سعد بن حنظلة التميمي، وعمير بن عبدالله المذحجي، وعبدالرحمٰن بن عبدالله اليزني، وقرة بن أبي قرة الغفاري، ومالك بن أنس المالكي، وعمرو بن مطاع الجعفي، وأنيس بن معقل الأصبحي، والحجاج بن مسروق الجعفي (وهو مؤذن الحسين)، وفتى سبقه أبوه، أخذ يصول ويجول منشداً نشيد الشباب المؤمن: «أميري حسين ونعم الأمير».

وجنادة بن الحارث الأنصاري، وعبدالله وعبدالرحمن أبناء عروة الغفاريان وهما أخوان، وسيف بن الحارث بن سريع ومالك بن عبدالله بن سريع الجابريان.. ثم غلام تركي كان للحسين، ثم أبو عمر النهشلي، ومالك بن رودان.. ثم إبراهيم بن الحصين الأسدي.

* * *

تقدموا جميعاً، الواحد تلو الآخر، وكان كل واحد ينهي حياته في كربلاء ممهورة بدمه، مسجلاً اسمه في قلب وسمع وبصر عالم الشهداء، محفوراً على صدر الوجود، خالداً ليوم القيامة.. والحسين يبارك كل واحد منهم، ويضع حول رأسه إكليلاً لم تشهد البشرية، ولن تشهد مثله.. إكليلاً من نور مؤلفاً من كلمات:

- «وعليك السلام.. منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر...».

وبقي بعد ذلك من الرفاق ثلاثة، تقدموا من الحسين، ولم يبرزوا، ووقف واحد على يمينه وواحد على يساره وواحد خلفه.. وأصبحوا كأنهم جزء منه، إذا تحرك تحركوا وإن مشى مشوا وإن وقف وقفوا..

* * *

وتقدم شباب آل محمد، ستة عشر شاباً، ما عدا العباس. وهم: أبناء علي بن أبي طالب، وأبناء جعفر بن أبي طالب، وأبناء عقيل بن أبي طالب، وأبناء الحسن بن علي، وأبناء الحسين.. واصطفوا أمام الحسين، يواجهون الأعداء، ويديرون ظهورهم له.

وأول من تقدم، زين الشباب، شبيه الرسول، الولد البار، الابن الصالح، الفتى الوسيم، الذي يشبه الوردة، وكفاه أنه شبيه الرسول، وهو لا يتجاوز العشرين، علي الأكبر، يلبس درعاً والسيف بيده، ووقف أمام أبيه مشدود القامة نبيل الملامح.. ولم يقل شيئاً، ولكن وقفته كانت تعبر أدق تعبير عن طلبه.. ونظر الحسين إليه نظرة الأب، والقائد والصديق والإمام، وعلي

الأكبر أمامه يمثل أثمن شيء بالدنيا لرجل، فيه يتمثل الولد البار، والفتى الصالح التقي النقي، والمثل الأعلى للأخلاق، وفيه تتمثل حيوية شاب في ربيع العمر، وفيه تتمثل أعظم وأغلى ذكرى لمؤمن، وهي صورته التي تشبه الرسول جد الحسين.. وأخذت نظرة الحسين تنقلب لصراع عنيف ورهيب، فارتجف قليلاً وارتبك، ولكن بعظمة الحسين، ومثالية الحسين، وشخصية الحسين الفريدة، تمالك نفسه وأطفأ ذلك الصراع بدموعه، ثم نظر إلى ولده بإصرار واحتضنه مقبلاً، ثم مجهشاً بالبكاء المرير، وضمه إلى صدره بقوة، وهو يحتضنه.. وطال الوقت، ثم إذا بالحسين يبعده عن نفسه ويتأمله، وقد بلت الدموع كل وجهه، وأصدر القرار..

القرار الصعب الذي من المستحيل أن يصدر من أحد من الدنيا إلا من شخص كالحسين.. ولم يعط الحسين ولده الإذن ولم يطاوعه قلبه، أن يقول لولده إذهب للقتل، بل رفع سبابتيه نحو السماء، والرسالة الحسينية العظمى، تملي عليه قوله، ثم أرخى عينيه حزناً وألماً رهيباً رهيباً، وقال:

ـ «اللهم كن أنت الشهيد عليهم.. فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلْقاً وخُلُقاً، ومنطقاً برسولك.. وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك، نظرنا إليه..».

ثم قال، وهو ينظر إلى الأعداء:

ـ «اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرقهم تفريقاً، ومزقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً ولا تُرضِ الولاة عنهم أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا، ثم عدوا علينا يقاتلوننا».

وكان ذلك لعلي الأكبر كالإذن له بالبراز، فتقدم من فرسه وركبه، ثم شمل شباب آل محمد، والكل بنظره، وأطلق لفرسه العنان نحو الأعداء، والحسين يقول: ﴿**إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل عمران وآل ابراهيم على العالمين...**﴾.

* * *

وفي معسكر الحسين، كان قلب آخر غير قلب الحسين يتمزق ويتألم ويتفتت.. كان قلب أم علي الأكبر زوجة الحسين التي ما إن رأت ولدها الحبيب يخرج للأعداء، حتى بدت كمن فقدت عقلها فخرجت ناشرة شعرها هلعة مرعوبة، وهي تبكي وتصيح.. وقابلها الحسين، وأخذ بيدها إلى خيمتها وعيناها تذهبان حسرة ولهفة ورعباً لتحتضن علياً، الذي وصل إلى الأعداء واخترق صفوفهم.. وبالخيمة أخذت تلطم وجهها وتصرخ بمنظر تتفتت من فجيعته القلوب.

ولكن الحسين.. عظيم الوجود.. عملاق الصبر.. أمين الرسالة المحمدية، أصبح شخصين، شخصاً متعلقاً بالله وحده والرسول وحده، وما قاله الله والرسول كقائد وإمام.. وشخصاً كأب.. وهنا عظمة أهل البيت تتجلى كمثل أعلى لتنفيذ وتصديق ما أنزل الله والرسول.. فقد تقدم الحسين بشخصية الأب باكياً من الأم يواسيها قائلاً:

ـ «ادعي له حتى يعود.. سمعت جدي رسول الله يقول: دعاء الأم مستجاب في حق ولدها».

فنشرت الأم شعرها وتوجهت إلى السماء رافعة يديها إلى الله صارخة بصوت مبحوح، كالحشرجة، لا يصدر إلا عن أم كعلي لزوجة كالحسين، وقالت:

ـ «رباه.. رباه.. ردَّ إلي ولدي».

وبشخصية القائد الإمام، خرج يتابع باعتزاز وفخر جولات ذلك البطل الشاب، يغوص بالصفوف، ويخترق الرجال ويكر عليهم كالأسد.. وطال به الوقت، وهو يفري بهم فرياً منكراً ثم عاد.. أو الأصح أعاده الله استجابة لقلب.. عاد سالماً يحيط به جميع من في معسكر الحسين بنظرات الحب والإعجاب.. وهرول الحسين نحوه، بأعظم وأبلغ وأروع ما في الأبوة من لهفة، واحتضنه يشمه ويقبله، ثم قال بنفس اللهفة:

- «ولدي.. حبيبي.. أمك.. اذهب إلى أمك وطمئنها».

فتقدم علي إلى خيمة أمه لتستقبله باتجاهها إلى السماء تشكر الله على رد ولدها لها، لتضمه وتقبله وتشمه، وتبكي بلهفة وحرقة. ثم احتضنت وجهه بكفيها، وقالت بانكسار:

- «ولدي.. اذهب وانصر أبا عبدالله». ومن هو أبو عبدالله؟ لم يكن الحسين في تلك اللحظة، ولم يكن الأب، ولم يكن الزوج، وإنما كان القائد والإمام.. وانحنى على يدي أمه يقبلها، ثم خرج لتتجمع الأم على نفسها كومة ضئيلة جمعها الحنان، وشدها الألم، تبكي وتبكي وتبكي.

وتقدم علي من الحسين قائلاً:

- «أبتاه.. العطش».

فقال الحسين، والغصة في صدره:

- «اصبر حبيبي، فإنك لا تمسي حتى يسقيك رسول الله بكأسه الأوفى».

وعاد علي لجواده وركبه ليغوص بالأعداء من جديد، ويقاتل من جديد، شجاعاً باسلاً.. بطلا.. والحسين عن بعد يتابعه بنظره بلهفة.. ولكن إذا بلهفته تنقلب لذهول ودهشة، إذ سكنت الحركة بالأعداء، فعرف أن علياً صرع، فامتشق حسامه وهرول نحوهم، وهو يصرخ:

- «يا بن سعد، قطع الله رحمك، ولا بارك لك في أمرك، وسلط عليك من يذبحك بعدي على فراشك، كما قطعت رحمي، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله».

كان يهرول، والثلاثة الرفاق، وشباب آل محمد يتبعونه، والعباس أمامهم، ووصلوا.. وإذا بالحسين يبدو شخصاً آخر، كلماته السيف، وحجته الدماء، فكشفهم، ليجد ولده صريعاً، بينما كان العباس والشباب والرفاق

الثلاثة يبعدون الأعداء عن الحسين الذي انحنى على ولده بلهفة يحتضنه، وقال:

ـ «قتل الله قوماً قتلوك يا بني.. ما أجرأهم على الرحمٰن وعلى انتهاك حرمة الرسول.. على الدنيا بعدك العفا».

ثم قال للشباب:

ـ «احملوا أخاكم»، فحملوه. وعاد الجميع لتستقبلهم زينب بنت علي، أخت الحسين، عقيلة بني هاشم، وهي تمثل بحالتها المحزنة المؤلمة، الجد والأب والأم والأخت وكل الأحبة، تستقبلهم بما يفطر القلوب تأثراً.

ووضعوه أمام الفسطاط، والكل حوله ليقول لأبيه:

ـ «عليك السلام.. هذا جدي يقرؤك السلام، ويقول لك عجل علينا».

وذوت الزهرة، وغابت للأبد صورة الرسول عن أعين أهل البيت والمؤمنين. ولكن الحسين عظيم الوجود، عاد قائداً وإماماً ليلتفت للأعداء بنظرة قائد دنيا وإمام دين.. أما الشباب وعلى رأسهم العباسُ، فقد توجهوا لموقفهم الأول، وأداروا ظهورهم للحسين، وكل منهم صورة مشرقة لعلي الأكبر.

واحد فقط، من كل من كان في المعركة ينظر، وكأنه تجرد من الأحاسيس والمشاعر.. كان نافع يرى الرفاق المهاجمين، ثم علياً الأكبر عن قرب، وهم يقتلون ويقتلون، وهو ينظر لذلك كله، ونظرته جامدة قاسية، ولا يرف له جفن.

* * *

وتقدم للحسين، الشاب عبدالله بن مسلم بن عقيل، وهو لا يتجاوز العشرين، وهتف:

ـ «السلام عليك يا سيدي».

فنظر إليه الحسين بألم مرير، وهز برأسه علامة الموافقة. . فاستدار عبدالله نحو الأعداء ثم أسرع نحوهم. . والعباس يراقبه وقد بدت على ملامحه القسوة والشدة والتجهم. . ودخل الشاب بين الصفوف، واختفى. وبدا العدو لمعسكر الحسين مائجاً وكله حركة، ولكن بعد قليل هدأ، وإذا بعدد من الأعداء يحملون عبدالله، وهو قتيل ويقتربون من معسكر الحسين ويرمونه عن قرب.

وتقدم أخوه، الشاب محمد بن مسلم بن عقيل، وجرى له ما جرى لأخيه.

وتقدم الشاب جعفر بن عقيل، وجرى له ما جرى لمن سبقوه ورأوه يقتل خمسة عشر فارساً. .

وتقدم الشاب عبدالرحمٰن بن عقيل، وجرى له ما جرى لمن قبله، ورأوه يصرع سبعة عشر فارساً.

وتقدم عبدالله الأكبر بن عقيل، فصال وجال، وجرى له ما جرى لإخوانه، ورأوا كثيرين من الأعداء يصرعون.

وتأكد الأعداء أن الحسين قل ناصروه، ولم يعد معه إلا القليل، فبدأت فرق كبيرة منهم تتحرك نحو معسكره. . وفي تلك اللحظة كان الشاب محمد بن عبدالله بن جعفر يتقدم، ولما رأى زحفهم، وقف مكانه حتى وصلوا إليه، وأخذ يقاومهم، ولكن ما تستطيع أن تفعل الصخرة، مهما كانت كبيرة، من أن تمنع سيلاً من طويها، فطووه وتابعوا طريقهم إلى معسكر الحسين وأحاطوا به عن قرب، فتقدم الشاب عون بن عبدالله بن جعفر، وكان شديداً على صغر سنه، فجندل ثلاثة فرسان، وثمانية عشر راجلاً.

وتقدم الشاب عبدالله بن عبدالله بن جعفر، وقاتل بشدة، واحتوشته السيوف والرماح، فقتل. .

وتقدم القاسم بن الحسن بن علي، ابن أخ الحسين، ووقف أمامه

بصمت، كان مفهوماً أنه يطلب الإذن، فنظر إليه الحسين بلهفة، وارتبك بانفعال شديد ثم هتف:

- «لا، لا. .» وكأن الأمر هاله. فأنصاره قتلوا، وابنه الحبيب قتل، وأبناء عمومته قتلوا، وها هو ابن أخيه القاسم بن الحسن، وهو الذكرى الحبيبة، من أخيه الحبيب، فهاله أن تجري عملية إبادة من الأعداء لآل الرسول. . فرفض أن يأذن للقاسم، فأخذ القاسم يقبل يديه، لأن يأذن له فرفض. . فركع على قدميه وأخذ يتوسل. . ولكن الحسين رفض بشدة، فذهب القاسم وكأنه خجل من نفسه من أنه لن يفدي عمه، وجلس بخيمته وهو يتلوى ألماً. . وصاح الحسين بصوت مرير، والموت يختطف الأقارب والأحبة والأنصار:

- «صبراً يا بني عمومتي. . صبراً يا أهل بيتي، فوالله لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم».

في تلك اللحظة، كان القاسم يشعر كأنه يختنق، وهو ينفرد بنفسه بخيمته، وإذا به يحدق فجأة، ثم يمد يده إلى عضده الأيسر، وينزع منها تميمة فتحها بسرعة ولهفة، ليجد بها رقعة، كتب فيها:

- «ولدي. . لا تتخل عن عمك، مت في سبيله». وفغر فمه، وعادت به الذكرى للبعيد، لترن بأذنيه كلمات كانت يوماً من أبيه، وهو يوصيه: «يا قاسم. . عندما تشعر بألم لم تشعر به من قبل، افتح التميمة التي على عضدك الأيسر».

وحمل القاسم الرقعة، وخرج مسرعاً للحسين يناديه:

- «عماه. . تفضل».

وأخذ الحسين الرقعة، وعرفها على الفور، انها بخط أخيه الحسن، فنظر إلى القاسم أعتنقه وبكى ثم أذن له بالبراز.

أسرع القاسم راجلاً وانخرط بالأعداء. وبدا شديداً قاسياً عنيفاً، وهو يخترق الصفوف لحظات ثم يخرج منها ثم يعيد الكرة، يبطش بعنف وقوة وخبرة بالقتال وحنكة، حتى كثر عدد القتلى.. فهال الأعداء أن يفعل بهم غلام مثل هذه الفعلة المنكرة.

ولكن..

إذا بنعل القاسم ينقطع، فانحنى عليه ليصلحه وسط العدو، وكأن ذلك منه كإعلان لاحتقاره لهم وعدم مبالاة بهم فاغتنم البعض الفرصة، ورشقوه بالسهام، ثم ضربه أحدهم بالسيف ضربة، صرخ معها القاسم متألماً:

ـ «يا عماه». فهجم الحسين والرفاق الثلاثة، والعباس أمامهم يفرق الجموع، حتى وصلوا إلى القاسم، فإذا به قتيل.. فقال الحسين:

ـ «بعداً لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك وأبوك.. عزّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا ينفعك.. صوت والله كثر واتره، وقل ناصره».

ثم انحنى عليه واحتضنه، وحمله وجاء به ووضعه مع القتلى من أهل بيته.

* * *

وتقدم العباس يطلب الإذن بالبراز.. فاستنكر الحسين ذلك ورفض بشدة.. فتقدم أخو القاسم، أبو بكر بن الحسن، وقاتل واحتوشته السهام فقتل..

وتقدم، عبدالله بن الحسن، وقاتل، واحتوشته السهام أيضاً فقتل.. فعاد العباس يطلب الإذن والحسين يرفض.

ثم تقدم أخوة الحسين، وهم عبدالله الملقب بأبي بكر، وعمر بن علي، ومحمد الأصغر بن علي، وعبدالله بن علي، وكل واحد يقاتل حتى يقتل.

ثم تقدم أخوة الحسين، وهم أخوة العباس من أبيه وأمه. وهم عبيدالله، وجعفر، وعثمان. . وأخذ يخرج كل منهم الواحد تلو الآخر، فيقاتل كالذين سبقوه قتالاً شديداً عنيفاً. ولكن العطش وكثرة الأعداء، كانوا يفتكون بهم الواحد تلو الآخر. . .

ومع كل ذلك، كان الأطفال والنساء يسحقهن الجزع والخوف والحزن، فيعلو صراخهن بين الفينة والفينة، ويرتفع العويل والبكاء على شباب آل محمد، المثل الأعلى للشباب. . للبطولة. . للفداء. . للطهارة، للنقاء. الذين تركوا الدنيا وما فيها مجتمعين، متماسكين بوحدة الإيمان والطاعة، يسيطر عليها جميعاً شرف الانتساب للرسول الأعظم، وكونهم جزءاً من أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس. . فقتلوا والشهادة تحتضن أرواحهم تباهي بها الدنيا.

وبقي الحسين والعباس، والرفاق الثلاثة.

وإذا بأطفال صغار يخرجون من الخيم، على مرأى من الأعداء، والجميع يبكون بأصوات مبحوحة، وعيونهم زائغة، وقد اختفى بريقها، ووجوههم مصفرة، وأفواههم وشفاههم ناشفة بيضاء مشققة، وبشرة وجوههم عليها مسحة غريبة. . واتجهوا نحو الحسين يصرخون. . العطش. . العطش، وكأن أمنيتهم الوحيدة من الحياة قطرة من الماء تبلل أجوافهم الملتهبة، وأفواههم اليابسة، والعطش كالغول يطاردهم مرعباً رهيباً.

وتفطر قلب الحسين، والذي لو لم يكن قلب عظيم الوجود، لتمزق إرباً، وهو يرى أصحابه يقتلون واحداً واحداً، وفتيان أهل بيته شباب آل محمد، يبادون إبادة مفجعة، وأطفاله وأطفال أهل البيت، تلتهم نيران العطش أكبادهم. . ولكنه كان قلب الحسين وكفى. . الحسين الرمز الأشم لعزة النفس، والنبل والشجاعة والآباء. . الحسين المثل الأعلى للصبر والتضحية. . الحسين الصدّيق، الصادق، المصدق المنفذ بدقة أوامر الله والرسول. . والعباس قربه يقاسم أخاه الغصات والآلام والمحن والمصائب

الكبـرى الرهيبـة. . ومع كـل ذلك فقـد تقدم العبـاس مرفـوع الصدر مـرفـوع الـرأس، يمثل الأخـوة التقية النقيـة. . والـطاعـة الكـاملة. . والإيمـان العميق بالحسين ومبادىء الحسين، وطلب الإذن مجـدداً بالبـراز، وقد قست مـلامحه عن ذي قبـل، وبدا صـارماً رهيباً مـرعبـاً، وهـو يـرى الأطفـال الـذين أحبهم وأحبـوه، وطالمـا احتضنهم واحتضنوه، وقبلهم وقبلوه، وهم يعـاملون وكـأنهم ليسـوا أبناء مسلمين على الأقـل، إذا لم يكونـوا آل محمد. . ثم يـرى النسـاء هـاتفات بـاكيات شـاكيات، وهن اللواتي طـالما حمـاهن، ودافع عنهن ومنـع آلاف الأعداء حتى عن الاقتراب من أخبيتهن. . كان يراهن في تلك الصحراء غرباء مظلومين، بلا حماة، بلا مدافع. . وهو العباس. . فهل للحياة طعم بعد ذلك؟ وهو لن يـدع الحسين يقتل قبله. فـألح بـطلب البراز. . فقـال الحسين بانكسار:

ـ «يـا أخي. . أنت العلامـة في معسكري وإذا قتلت يحـل بي الدمـار، ولكن اذهب، واطلب شيئاً من الماء لهؤلاء الأطفال».

وبصمته المعهود، تقدم العباس، وانتـزع الرايـة من الأرض، حيث كان غرسها، ثم تقدم بها نحو الأعداء ورفعهـا قليلاً ثم غـرسها بعنف، وأخـذ ينظر إليهم عن قرب ويشملهم بطرفه بتحد، فأخذت صفوف الأعداء تموج رعباً من ذلك العملاق الذي أصبحوا يعرفونه جيداً.

ثم انفتـل راجعاً ليحمـل قربـة ورمحاً، ويعتلي جـواده والحسين يتابعـه بنظره، وهو ينطلق نحو الفرات، وكأنه يخسر أغلى وأثمن ما يملك.

وتـأكد الأعـداء من أنهم وصلوا لمبتغاهم الـذي كلفهم آلافـاً مؤلفـة من الضحايا والقتلى، حتى إن خسارتهم كانت لا تعد بين قتيل وجـريح. فـأخذوا يتقدمون رويداً رويداً، والعباس يتابع طريقه إلى الماء الـذي كان عليـه خمسة آلاف مقاتل. لأن اللؤم والخوف من الحسين ومن معه جعلهم يركزون اهتماماً خاصاً عليه لأنهم كانوا يعرفون معرفـة جيدة، أن الحسين لـو شرب المـاء ومن

معه لأفنوهم، ولكن كما خطط اللؤم كـان، فكان العـطش فتاكـاً يوازي بفتكـه ضرب آلاف السيوف والرماح، وخاصة هناك نساء وأطفال.

* * *

وأحاط الأعداء بالماء بصفوف متراصة بوجـه العباس. . ولكن العبـاس كان يرى كل دمعة طفل تقابـل مائـة فارس، وكـل نقطة دم من أصحـابه وأهله بمـائة أخـرى، وكل صـرخة من امـرأة أو فتاة بمئـات ومئـات. . فهجم عليهم هجوماً يدفعه صراخ الأطفال يريدون الماء، فإذا برمحه يعمل عملاً لو لم يكن من العباس نفسه، لما عمله جيش كامل، وأخذ يفري بهم فرياً ذريعاً فأخذوا يفرون بين يديه، ويفتحون الـطريق مرغمين، وهـو يشقه بخط مستقيم بينهم، وهم يعودون ليقاوموه بعنف، ولكنه كـان كسهم من النار، يـذهب إلى هدفـه، مخترقاً كل شيء يعترضه. . ووصل.

وبسـرعة أدار ظهـره إلى الماء، ورمى بـرمحه مهـاجميه ليختـرق صـدر أقربهم إليه، ثم امتشق حسـامه وكـر عليهم. . وعمهم الرعب من فعله وقتـاله ومنـظره، فثبتـوا قليـلاً ثم فـروا. . فنـزل عن جـواده وغمس القـربـة بـالنهـر فامتلأت. . ووضعها جانباً، ثم مد كفه للماء وملأها بلهفة وقدمهـا لفمه يـريد أن يشرب. فهو من كل الأحياء المتبقين مع الحسين، فالعـطش كان استبـد به بشكل مريع، والحر شديد والحرب قاسية، والماء يوازي الروح، بل هو أثمن في تلك الحالة، ولكن العباس، معجزة الأخـوة، معجزة البـطولة والنبـل، هز رأسـه مستنكراً من نفسـه أن يشرب، ثم هتف والمـاء أمامـه، بل بكفـه، وهو يرتجف:

ـ «لا. . لا. . والحسين عـطشـان. . والأطـفـال عـطاش والنسـاء عطاش؟».

ثم رمى الماء من يده، والتقط القربة وتوجه لفرسه. .

وكـان الأعداء تجمعـوا وعادوا يهـاجمونـه، فنظر حـوله يفتش عن مخبـأ للقربة لئلا تصاب، فوجد صخرة صغيرة بـارزة، فوضعهـا تحتها، وكـر عليهم بسيفه، وأخذ يبطش ويبطش بعنف ويجندل الفرسان، ويصرع المشـاة، وأخذ الصـرعى يسقطون بكثـرة، جعلت الأعداء يعـودون للفرار تـاركين عشرات من القتلى وهربوا. . وعاد للقربـة يحملها ويتقـدم من فرسـه. . وعاد الأعـداء من جـديد يتجمعـون ويهجمون، وعـاد العباس لفعلتـه الأولى وخبـأ القـربـة وكـر عليهم، وازداد عدد القتلى، عشرات تتلو عشرات، وعادوا للهرب، وعاد يأخذ القربة، ويتقدم من فرسه. . وهالهم ذلك فعادوا يكرون عليه.

وكـان ذلـك ست مـرات. يخبىء فيهـا العبـاس القـربـة ويهجم عليهم الهجمات المنكرة المفزعة الرهيبة، لتتساقط عشرات وعشرات من القتلى وهم يعـودون له. . وفي المـرة السادسـة لحقهم وأخذ يعـدو خلفهم وهم يهـربـون أمامه، وقد ملأهم الرعب والفزع الشـديد، فـابتعدوا. . فعـاد للقربـة وحملها بلطف وهو يلهث، وعيناه تبـدوان ببريق مخيف، ثم ركب فـرسه، واتجـه نحو معسكر الحسين.

وصرخ قائد الأعداء بفزع:

ـ «ويحكم. . امنعـوه من الـوصـول إلى الحسين، فـوالله إن شـرب، لأفناكم عن آخركم».

فعـاد الأعداء للتجمـع، والهجوم بشـدة وعنف، وكـأنهم رجـل واحـد، واحتضن العبـاس القربـة بيده اليسـرى إلى صدره وبـدأ حربـاً طاحنـة، فكان الفـرسان يسقـطون وكأنهم ورق على غصن تفـرطها يـد قـويـة، وهـو يغـوص بينهم، وكأنه نوى إبادتهم كلهم بأسرع وقت ممكن.

ومن البعيـد، كان عمـر بن سعد يتـابع مـا يجـري بين العبـاس وجيشـه فصرخ بدهشة من ذلك المنظر الفظيع، متسائلاً:

ـ «ما هناك. . ما يجري هناك؟». فأخبروه. . فأمـر بأن تبقى فـرق كبيرة

تحاصر مخيم الحسين، بينما سار يتبعه الكل ليجدوا جميعاً العباس يواصل عملية الإبادة ببقايا الخمسة آلاف، الذين أخذوا يفرون محتمين بجيش عمر، الذي ذهل للحظات وهو يرى القتلى تملأ تلك البطاح، عاد بعدها ليجد نفسه أنه هو وجيشه كله بخطر.. وهنا برز نوع آخر، أو لنقل برز اللؤم بوجه آخر، اسمه الغدر، فأمر أحد القادة عشرات من الرماة بالذهاب وعمل كمين للعباس على الطريق، في حال إفلاته من الجيش، فذهبوا وأخذت الهجمات تتوالى على العباس، وعاد العباس يبطش.

وأنا التاريخ أشهد، لم أر مقاتلاً كالعباس، إلا أباه علي بن أبي طالب..

وأخذ البطل يشق طريقه، وكأن المئات من الفرسان والمشاة أعشاب هشة، يحصدها بسهولة، وهو يتابع طريقه والقربة على صدره، وكانوا يلحقونه بالسيوف، بالرماح.. ولكن بضربات من سيفه، يحطمها جميعاً، ويصرع كل من يحملها.

وأسقط في أيديهم، وهو يتابع طريقه، فصرخ الغدر المتمثل بقائد:

ـ «دعوه.. لن تستطيعوا وقفه.. وهناك من يتولى الأمر عنكم».

فتركوه، وعادوا لقتلاهم ليروا خسارتهم، فإذا بالجرحى قليلون جداً جداً، أما القتلى فكانوا مئات على طول الطريق أما على شاطىء النهر فكانوا مائة وعشرين قتيلاً وبكل واحد منهم ضربة واحدة.

وأكمل العباس طريقه، وقد شعر بالاطمئنان، فأخذ يمسح بيده على القربة بلطف.. ولكن فجأة.

انطلقت من خلف أعشاب كثيفة، وجذوع أشجار دفعات كبيرة من السهام، وكلها موجهة إليه، وإلى القربة والجواد.. وإذا بالماء يتفجر من القربة وقد خرقتها السهام ثم إذا بسهام تنغرس بعنف مخترقة الدرع إلى جسده.

وهاله أن يرى الماء يراق بين يديه، وبقي ممسكاً بالقربة وكر عليهم، وقد تبدل هدف قتاله، إذ كان دفاعاً عن القربة، ولكنه الآن بدأ بالانتقام.. وأخذ يضربهم بسيفه ضرباً عنيفاً، ويلاحقهم حيث يتوجهون، وبدأ القتلى يسقطون من جديد هنا وهناك، والسهام مغروسة بجسده، وهو كأنه لا يحس بها.. فلم يسقط.. فعادوا للغدر فكمن له بعضهم وراء جذع نخلة حتى إذا مر قربه، ضرب على يساره ضربة كلها حقد فقطعت على الفور.. فاحتضن معجزة البطولة ببقية يده القربة وما تبقى فيها من ماء وعاد يهاجمهم وهم يفرون أمامه ويسقط القتلى.. وكمن البعض الآخر له، وضربه أحدهم بالسيف على يمينه، فبترت وسقط السيف، فاحتضن القربة ببقية يديه، وأراد متابعة طريقه، إلى معسكر الحسين، وكان قد قرب جداً إليه، فتجمهر الأعداء وأخذوا يرشقونه بوابل غزير من السهام، من كل جوانبه، فصرخ متألماً:

ـ «أدركني يا أخي». وكانت لفظة أخي هي المرة الأولى والأخيرة يقولها معجزة البطولة العباس العظيم.. وشلت حركته وأخذ ينهار رويداً رويداً، وسقط عن جواده.. وتقدم الأعداء بكل ما فيهم من حقد وغدر ولؤم، يحيطونه ثم ينهالون عليه ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح، ولم ينسوا القربة فمزقوها شر ممزق.

وسمع الحسين نداء البطل.. فركض وهو ممتشق حسامه والرفاق الثلاثة ما زالوا كظله، وأخذوا يفرقونهم يميناً وشمالاً، ووصل إلى العباس وهو يجود بأنفاسه، واحتضن الحسين رأسه بلهفة تحت قعقعة سلاح الرفاق الثلاثة، والأرض مليئة بالقتلى، وهو ينادي بألم وحرقة وقد هده مصرع العباس هداً:

ـ «الآن انكسر ظهري.. الآن قلت حيلتي».

ثم انحنى عليه ليحمله إلى المخيم، فقال العباس بصوت ضعيف:

ـ «لي رجاء.. أبقني هنا.. إنني أستحي من الأطفال فلم آت لهم بالماء». ثم نظر إليه محدقاً وقال: «السلام عليك يا أبا عبدالله».

فأكب الحسين عليه يقبله ويبكيه، ويبكيه، ويبكيه، بينما أغمض البطل عينيه إلى الأبد، والحسين يتمتم: «وا حبيبي».

* * *

وعاد الحسين والرفاق الثلاثة يدفعون عنه العدو، بينما وقف عمر وقواده وبقايا جيشه ينظرون إليه بالسبب الأكبر الذي جاء بهم، وهو الحقد الذي انقلب إلى تشف، وهم يرون الحسين يسير وقد هزه مقتل العباس هزاً عنيفاً. . لذلك أهابوا بجنودهم ليعودوا ليزدادوا تشفياً به، فتركوه يصل إلى معسكره، ليقابل بصراخ النساء والأطفال وعويلهم، وقد أدركوا ما أصاب العباس. . هذا طفل يبكي صارخاً: أين عمي؟. وهذه تقول أين عمي؟ وهذه امرأة تسأل بلهفة أين أخي؟ بما يفتت القلوب. . وأنا التاريخ أشهد أن قلبي تفطر لذلك. . وزاده هتاف من السماء يصرخ بلهفة وألم وحرقة: «إبني. . إبني. . ولدي العباس». وكان من فاطمة الزهراء، ولم يكن لها ابناً بل كان أخاً لابنها الحسين، من أم غيرها. . ولكن مواساة العباس للحسين ودفاع العباس وأدب العباس، وطاعة العباس، وبطولة العباس، هي التي رفعته للزهراء ليزداد قرباً للرسول.

وزيادة بالتشفي بالحسين، هجم الأعداء هجمة مركزين على الرفاق الثلاثة، الذين صمدوا بادىء الأمر ولكن أمواج الأعداء عادت وطوتهم، وكلما سقط أحدهم يصرخ:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله».

وبذلك أصبح الحسين وحيداً فريداً، لا أخ ولا ولد، ولا قريب ولا ناصر، اللهم إلا من ولد له كان مريضاً طريح الفراش وكان معه، وفي إحدى الخيم. . وهو لم يبلغ العشرين، هو علي بن الحسين زين العابدين، الذي كان يقوم مرة بعد مرة لينصر أباه، ولكن المرض يقعده فيبكي بحرقة لذلك.

ووقف الحسين أمام فسطاطه، ولم يبق إلا الأطفال والنساء.. وقف وحيداً، طريداً، شريداً، عطشاناً، غريباً، مقتول الأهل والأنصار.. وأخذ ينادي بأبلغ وأعظم ما ينادي أب وعم وقائد جميع الأحبة.. أخذ يناديهم بأسمائهم واحداً واحداً.. إلى أن قال:

ـ «يا أبطال الصفا.. ويا فرسان الهيجا..

مالي أناديكم فلا تسمعون؟.

وأدعوكم فلا تجيبون؟.

أنتم نيام فلا تتنبهون؟.

أم حالت مودتكم عن إمامكم فلا تنصرون..

فقوموا من نومتكم هذه يا كرام وامنعوا عنه الطغاة اللئام.

وإلا لما كنتم عن دعوتي تقصرون..

ولما كنتم عن نصرتي تحتجبون..

ولكن والله صرعكم ريب المنون وغدر بكم الدهر الخؤون.. وها نحن عليكم متفجعون، وبكم لاحقون وإنا لله وإنا إليه راجعون».

* * *

وهنا تكمن عظمة الحسين عظيم الوجود ومعجزة الكون.. إذ وقف بروعة، بنفس الإباء.. بنفس العزة والكرامة.. بنفس الشمم وتطل من عينيه نظرات كلها تحد وكلها إصرار على إتمام رسالة الله والرسول ليعود دين الإسلام ديناً، كما أنزل، بعد أن كاد يمسخ.

وقف الحسين وقد تجرد عن كونه أبا أو أخاً أو زوجاً أو قائداً وبقي فقط روحاً تأتمر بأمر واحد، وهو أمر الله والرسول.. وعقلاً فقط يفكر بالماضي

الذي اغتصب فيه الحق، والحاضر الذي يمسخ فيه الحق، والمستقبل الذي يبدأ من لحظة قتله، وفيه سيعود الحق للحق، والدين للدين والإسلام للإسلام، وأنا أقر أنه لن يتسنى لأحد بالدنيا قبل الحسين كما لن يتسنى ليوم القيامة، لشخص أن يقف ذلك الموقف، والسبب بسيط أنهم كلهم لم يخلقوا لذلك، وهو فقط خلق ليكون الفداء الأعظم للدين الأعظم.

في تلك اللحظة خرج غلام صغير، لم يتجاوز السابعة.. غلام من أهل البيت، الشجرة الطيبة، حاملاً عصا صغيرة وقد رأى الحسين الأب والعم والزعيم، وقد غلب على أمره، فأراد أن ينصره، وأخذ الغلام يضربهم بعصاه، وكان الجواب كما هو المتوقع، وكما هي عادة اللؤم، فقد انهالت عليه السيوف، فتركه الحسين متوجهاً إلى باب خيمته هاتفاً بأخته زينب:

- «أعطني ولدي الصغير حتى أودعه».

فأتت أم المصائب، الصديقة الصغرى، زينب، بعبدالله الرضيع، وعمره لا يتجاوز شهوراً، وهو يريد أن يبكي ولا يستطيع، وقد ذبلت عيناه، وفتح فمه الصغير يلهث من العطش، ولسانه يمسح بصعوبة شفتيه اليابستين.. وحمله الأب العظيم وانحنى إليه ليقبله، وإذا بسهم يسقط بنحر الطفل ويذبحه.. فأعاده لأخته ثم وضع يديه تحت نحره، فتجمع فيها الدم، فقذف به في الفضاء، وكم كانت دهشة الجميع ورعبهم عندما لم يسقط قطرة على الأرض والحسين يقول:

- «اللهم لا يكن عليك أهون من فصيل.. هون علي ما نزل به أنه بعين الله». ووضع ذلك الطفل البريء قتيلاً بين القتلى.

ومد الحسين العظيم يده إلى سيفه يمتشقه من جديد وهجم على الأعداء.

يا للمعجزة..

كيف يقف من كان مثله؟. بل كيف يتحرك؟ بل كيف يقاتل وهو بما هو عليه، والوقت عصر، وأيام مضت بلا ماء، ومعارك رهيبة طاحنة مرت، وهو

هـدفها كلهـا. ورأى بعين الأب وقلب الأب أبناءه يقتلون، حتى لـو كان أحـد غيره لصعق مرة واحدة، وهو يرى طفلاً مثل عبدالله يذبح على ساعديه.

ورأى بعين الأخ وقلب الأخ أخوته يقتلون ويكفيه منهم العباس، معجـزة البطولة، قمر بني هاشم، وحامي حرم رسول الله.

ورأى بعين العم وقلب العم، أبناء عمومته وأبناء أخـوته، وهم يسقـطون الواحد تلو الآخر. .

ورأى بعين القائد والإمام والصديق، الأنصار والأصحاب، الذين قال هو عنهم: لستُ أعلم أصحاباً خيراً من أصحابي، كلهم يقتلون أمامه.

ومـع كل ذلـك بقي واقفاً. . ثم وهـو يمتشق حسامـه أيضاً ويحـارب. . وخلفه نساء وأطفال.

نعم كان الحسين معجزة الكون. . فقد امتشق حسـامه، وركب فـرسه، وتوجه نحو الأعداء. . واستوقفه صوت حبيب، كان صـوت زينب التي تقدمت منه قائلة:

ـ «انحن قليلاً».

فانحنى. . فاحتضنت رأسه وقبلته بوجنتيه قائلة:

ـ «كانت أمنا الـزهراء، أوصتني قبـل موتهـا، أن أقبلك عنها عنـدما تقف هذا الموقف بكربلاء».

أعيـد القول. . لـو لم يكن الحسين معجزة الكـون، وعـظيم الـوجـود، لكـان من المستحيل أن يقف على قـدميه. . واكتفى بـأن اهتز تـأثـراً من ذكـر الصديقة الكبرى، ابنة الرسول، ثم نظر إلى أخته امتناناً، وذهب إلى الأعداء.

وانخرط بهم. . وعادت المعركة تبعث من جديد والحرب تبدو طـاحنة، فعلا قرع السيوف وتكسر الرماح، وبـدأ القتلى يسقطون بـأعداد كبيـرة، ودبت الحركة هائلة عنيفة. . الفرسان والمشاة. . كلهم بحركة. . واختلطت الميمنة بـالميسرة والقلب بـالكل، وعمت صفـوف الأعداء فـوضى، وأخذ كثير منهم

يدوس بعضهم بعضاً، فسقطت راية الحسين إلى الأرض. . والحسين يصول ويجول. . وطال الوقت وطال القتال. وعاد اللؤم والغدر والحقد يبرزان بهجوم من أعداد كبيرة على مخيم النساء. . وهال ذلك عظيم الوجود ومعجزة الكون. . هاله أن يقترب أحد من الأعداء إلى مخيم حرمه وهو حي، فتوقف عن القتال صارخاً:

ـ «ويلكم يا شيعة آل أبي سفيان. . إن لم يكن لكم دين ولا تخافون يوم المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم هذه. . وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون».

أعود لكلمة لبرير كان قالها عن هؤلاء الأعداء، إنما هم بهائم على بهائم فهم مجردون ـ أو لنقل ـ جردهم المحرفون من إنسانيتهم. فقال أحدهم وهو شمر:

ـ «يا بن فاطمة ماذا تقول؟».

فقال منتهراً:

ـ «أقول إني أقاتلكم وتقاتلونني، والنساء ليس عليهن جناح. فامنعوا عتاتكم وجهالكم وطغاتكم من التعرض لحرمي ما دمت حياً».

ولو لم يكن الحسين أعظم بكثير وكثير من المحرفين والمنحرفين، لما قال شمر، ورنة الإعجاب تتغلب على اللؤم والحقد والغدر:

ـ «لك ذلك يا بن فاطمة». ثم صاح بالجيش:

ـ «إليكم عن حرم الرجل، واقصدوه بنفسه فلعمري هو كفؤ كريم».

فتراجع المهاجمون لينضموا لمن هم حول الحسين، وجعلوا يحملون عليه. . والحسين يصمد لهم تارة، وتارة يهجم عليهم ويكشفهم ويفرقهم وهو يصرخ بهم:

ـ «أعلى قتلي تجتمعون؟. أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخط عليكم لقتله مني. . وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله لو قتلتموني لألقى الله بأسكم

بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم».

ولكن الأعداء طبع على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فهم لا يشعرون ولا يسمعون، ولا يرون، فوالوا هجماتهم.. والحسين يصدها ويبددهم ويفري بهم فرياً ذريعاً حتى إذا فروا، وقف ليستريح وهو يقول بصبر عجيب:

- «إنا لله وإنا إليه راجعون».

ثم يعودون للهجوم ثانية، ويعود لهم يبطش بهم ويبطش ويبطش، ويضربهم ضرباً صارماً رهيباً، مزق.شملهم وفرق جموعهم..

وخرج من إحدى الخيم طفل وهو عبدالله بن الحسن بن علي وركض نحو عمه، فلحقته زينب لتحبسه قبل عودة الأعداء للهجوم ورآه الحسين فهتف بأخته:

- «احبسيه يا أختي».

وأمسكته زينب، فأخذ يشد نفسه من يدها ويقاومها وهو يصرخ:

- «لا أفارق عمي..». وانفلت منها ووقف جنب الحسين وهو يردد لاهثاً: «لا أفارق عمي».

وأراد الحسين أن يقول شيئاً، وإذا بالأعداء يعودون للهجوم وتقدموا منه بخيلهم ورجالهم، ورفع أحدهم سيفه ليضرب به الحسين، فصرخ به الطفل:

- «ويلك يا بن الخبيثة أتقتل عمي؟». ومد يده الصغيرة الطرية الندية، يريد - على زعمه - أن يضربه بها.. وعاد اللؤم والحقد للمرة الألف، يتمثل بضربة من ذلك السيف، ليد عبدالله بن الحسن فقطعها فصرخ الطفل:

- «يا أماه.. يا عماه». فنزل الحسين عن فرسه واحتضنه وضمه إلى صدره قائلاً متفجعاً:

- «يا بن أخي اصبر على ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين». وعاد اللؤم والحقد يتمثل بسهم ينطلق من الأعداء ويستقر بنحر الطفل ويذبحه وهو في أحضان عمه فسقط إلى الأرض قتيلاً..

فرفع الحسين يديه إلى السماء هاتفاً:

ـ «اللهم أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض.. اللهم فإن متعتهم إلى حين، ففرقهم فرقاً واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترض الولاة عنهم أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا، ثم عدوا علينا فقتلونا».

ثم عاد لفرسه وتوجه إلى الأعداء وأخذ يقاتل ويقاتل.. ولكن..

إذا بسهم يأتيه ويثبت في حنكه، فمد يده بسرعة ينتزعه، فتفجر الدم على الفور، فاغتنم الأعداء فرصة انشغاله بنفسه، فرشقوه بالسهام، حتى كادت تغطي جسده، فأصبح كالقنفذ ومع ذلك هجم عليهم، ولكن هجومه كان به ضعف.. وإذا بحجر يصدم جبهته، فانفجر الدم على الفور، فمزق رداءه، وعمل عصابة وربطه، ثم عاد للقتال..

وأتى شمر يوجه رجاله فأمر بقطع الطريق على الحسين، ومنعه من الرجوع إلى منازله وأهله، فقطعت. فأصبح الحسين جريحاً محاطاً بالأعداء. ثم أمر شمر المشاة أن تتقدم الفرسان ومعهم الرماة، الذين أمرهم برميه بالنبال من جديد، فرموه، وكان الحسين يقف ليستريح قليلاً، وإذا بالنبال تتجه إليه من كل جانب، وتنغرس به بحدة، فترنح قليلاً، ثم عاد ليهجم ولكن بودر بضربة سيف تصدم رأسه الشريف، وتشق العمامة فيتفجر الدم، فأخذ طرف ثوبه يريد مسح ذلك الدم، وإذا بسهم له ثلاث شعب يخترق صدره، فضعف عن القتال، وتقدم أحدهم وضربه بالسيف على عاتقه فشجه، فسقط الحسين عن جواده إلى الأرض صريعاً.. وبه أكثر من سبعين جرحاً.

وتقدم منه الأعداء، كل يريد الإجهاز عليه ولكن هيبته العظيمة.. وشغلهم نور وجهه، وجمال هيئته، ورهبة منظره، عن الفكرة، فاستسقي الماء وهو صريع. فقال أحدهم مجدداً العهد على اللؤم والخسة والغدر والحقد والنفاق والكفر ممثلاً جميع أعداء الحسين بقوله:

ـ «والله لا تذوق الماء حتى ترد الحامية فتشرب من حميمها».

فقال الحسين العظيم العظيم، على مسمع منهم:

ـ «أنا أرد الحامية فأشرب من حميمها؟ لا والله بل أرد على جدي رسول الله وأسكن معه في داره، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأشرب من ماء غير آسن وأشكو إليه ما ارتكبتم مني وفعلتم بي».

فصاح شمر يحرضهم على الإجهاز عليه:

ـ «.. ما تنتظرون بالرجل.. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم».

فحملوا عليه.. وكل واحد يمثل شيئاً.. واحد يمثل اللؤم، وآخر الحقد، وآخر الخيانة، وآخر النذالة، وآخر السفالة، وكلهم يجتمعون بأمر واحد هو النفاق بالدين والكفر المستتر بالشهادتين.. والحسين ممثل الإيمان العظيم، فكما لم ينس الله طرفة عين.. وكما كان عظيماً عظيماً في حياته كان أعظم ألف مرة بمماته. وكما كان مصدقاً ومنفذاً للرسالة الإلٓهية في حياته، كان أعظم تصديقاً ألف مرة بمماته فكانت آخر كلمات لفظها:

«باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله»

وعلت الأصوات: «قتل الحسين.. قتل الحسين».

عند ذلك فقط تحركت جوارح نافع، ودبت بها الحياة فانتفض صارخاً: «اقتلوني.. اقتلوني».

وقفز عن الجواد، يركض نحو الحسين وهو يصرخ ويبكي، «اقتلوني.. اقتلوني». ويداه المكسورتان تمنعه من السرعة.. وإذا بالسهام تلاحقه لتنغرس بظهره فيسقط على الأرض صارخاً، وكأنه ينوب عن شباب الدنيا كلها:

ـ «السلام عليك يا أبا عبدالله. يا مولاي وابن مولاي». ممتزجاً صوته ببكاء وعويل بقايا أهل البيت من النساء والأطفال وصراخ الأعداء: قتل الحسين.. قتل الحسين..

ومن بين الرفاق وشباب آل محمد، وفي وسط أرض المعركة المفروشة بالقتلى، تحرك جسد وانتفض، وكان البطل سويد، فما إن سمع بقتل

الحسين حتى وقف متعباً، وبه جراح فظيعة، مغمس بالدم، وانتضى سكيناً كان في حذائه، وهجم على الأعداء مترنحاً يجر نفسه، وأخذ يضربهم بالسكين وهو يقول بلهفة الشهداء، وجميع الشهداء المؤمنين المصدقين الصادقين في إيمانهم بالله وبالرسول وما بدلوا تبديلاً:

ـ «بأبي أنت وأمي يا مولاي.. يا أبا عبدالله».

وما كان أسرع سقوطه مجدداً تحت ضرب السيوف وطعن الرماح، ورمي النبال، فسقط قرب راية الحسين الملقاة على الأرض. وزحف سويد، وأخذ الراية، ووقف بتعب شديد وغرسها بالأرض، وتجمع عليها بكلتا يديه، ثم أخذ يسقط رويداً رويداً، وهو ينظر إليها بلهفة وقد لوثتها الدماء. وانهار كجبل.

ولم يكتف اللؤم والغدر والخيانة والنذالة والكفر.. فقد انتدب عمر عشرة من فرسان جيشه ليرضوا ظهر الحسين وصدره.. وفعلوا.

ولن أصف كيف حصل ذلك، يكفي أن أقول أن هؤلاء الأعداء المنحرفين عن الإسلام، المحرفين للكتاب والسنة، قد كشف رض جسد عظيم الوجود، الكفر المستتر بالشهادتين..

* * *

وبينما كان الكفر يفعل فعله، أتى فارس من البعيد يركض به جواده يضرب الأرض بحوافره بعنف، فيسمع له صوت رتيب.. ووراء الفارس يطير بالهواء كجناح طائر، والتفت الأعداء إليه وهو يسرع نحوهم ووصل.. ووقف.. وإذا به فارس ضخم، عريض المنكبين، يطل النبل والشجاعة والإقدام والجرأة من عينيه.. وقال بصوت أجش ونبرة آمرة:

ـ «أين الحسين؟».

فقال بعضهم يتهامسون:

ـ «هذا.. الهفهاف الراسي.. المرعب القوي».

وردد الهفهاف صارخاً بنبرة شديدة:

- «أين الحسين؟».

فأجاب البعض:

- «قتل.. وانتهى كل شيء».

ولم يتموا لفظة قتل حتى كان سيفه كالشعلة، يجرده ويهجم عليهم صارخاً:

- «يا قتلة أولاد النبيين.. يا كفرة.. يا فجرة.. يا مجرمين.. يا فاسقين».

وأخذ يخترق صفوفهم.. وأدرك الأعداء أن كل شيء لم ينته، بل بدأ.. بدأ بمعركة يمثلها واحد من محبي الحسين، والمهتدين بهدي الحسين، وبدأ التافهون يهوون، يصرعهم سيف الثأر لأبي الشهداء وعم الشهداء وسيد الشهداء.. والهفهاف الراسي كان البطل الأول الذي امتشق سيف الحق ليثأر ويثأر للشهيد ابن الشهيد أخي الشهيد أبي الشهداء وسيد الشهداء..

* * *

وانتهت الملحمة الإلهية في كربلاء.. ومرت بقايا الأعداء الممزقة على جثث الرفاق.. على جثث حبيب، وزهير، وبرير، وسعيد، ووهب، ونافع، وجون، وسويد، والاثنين وسبعين بطلاً. وبعدهم مروا على جثث شباب آل محمد.. على جثث العباس، وعلي الأكبر، وعبدالله، وجعفر، وعون، والقاسم، وأبناء عقيل، وأبناء مسلم، وأبناء الحسن، وأبناء الحسين، حتى الأطفال منهم... مروا عليها جميعاً حتى وصلوا إلى الحسين.

وصلوا وقد مزق قناع التستر بالإسلام، وبدت وجوه الكفر والفسق والنفاق والخداع واللؤم والحقد، سافرة على حقيقتها، فألقت الضوء على الماضي الذي صنعوه، فبدا مبهماً، والحاضر الذي أظهروه فبدا غريباً

ممسوخاً، والمستقبل الذي كان كله للحسين، ومن يهتدي بهدي الحسين.

ومع ضربات الهفهاف الراسي الثائرة الناصرة، الطالبة بالثأر، تلقي الرعب والهول والخوف في قلوب الفجرة الأعداء، كانت تساندها السماء بالثورة فبدت عليها مسحة سوداء مظلمة، ثم اغبرت، ثم تحولت للون أحمر، حزناً وغضباً للإيمان.. للحق.. للدين.. للإسلام.. للعدالة.. للخير كله الممثل بالحسين.. فكان الرعب والهول في قلوب الفجرة، لوقت، ظنوه دهراً، استيقظوا بعده على أصوات اللؤم والحقد والكفر للنهب والسلب.. فزحفت بقايا ذلك الجيش الممزق.. الذي كان ثلاثون ألفاً.. وأصبح بقايا.

زحفوا يطوون الهفهاف الراسي البطل، وقد أصبح شهيداً، ومعه اثنان وسبعون بطلاً شهيداً وسبعة عشر بطلاً شهيداً من شباب آل محمد، وهم يتخطونهم لسلب ونهب ثقل الرسول، وأحمال الرسول، ثم لسبي نساء الرسول، وبنات الرسول، ونساء أهل بيت الرسول.

ثم عادوا بذلك كله يمرون من جديد بساحة كربلاء.. ويمرون على الشهداء ليبتعدوا ويتركوا الأبطال بالعراء يلفهم الصمت الرهيب، الكئب، والموت يبسط وشاحه الأسود عليهم جميعاً، وقد فرضت الشهادة على كل منهم، وضعاً يختلف عن الآخرين، لكن تجمع بينهم السكينة بمسحة محزنة مؤلمة.

شيء واحد في ذلك السهل الفسيح، كان واقفاً يتحرك، هو راية الحسين التي رفرفت منذ ذلك اليوم، وبقيت وستبقى، لتدل أن معركة كربلاء كانت.. الملحمة الإلهية.

وستبقى تتردد صرخة الأبطال، لتدوي في جنبات الكون:

«السلام عليك يا أبا عبدالله»

تمت بحمد الله وعونه

مراجع الملحمة

كان لزاماً علينا ذكر مراجع لهذه الملحمة، ولكن كثرتها جعلتنا نحجم عن تحديدها لأن كل الكتب التي أرخت التاريخ الإسلامي تناولتها بصورة منثورة مما يجعل الإعتماد عليها كمصدر مستقل صعباً، ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى بعض منها كأبي مخنف والطبري وابن الأثير ومعالي السبطين (ولواعج الأشجان والمجالس السنية) للمقدس السيد محسن الأمين الذي حقق ودقق ووضع أحداث كربلاء في الإطار الصحيح. . كما أن طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى بجزأيه رسم صورة واضحة لبني أمية ومن قبلهم (كسلطة) للإنحراف والتحريف مع أن قلبه كان يحن لهؤلاء وأولئك.

ثم إن كل ما بهذا الكتاب متداول حتى أصبح كالعرف ـ وكما كنا قلنا ـ أن الأهم المحافظة على حرمة وقدسية التاريخ وهذا ما كان.

الفهرست

كلمة الناشر للطبعة الثانية

كثير من أهل الدين والفكر والمؤمنين تمنوا علينا طباعة هذه الملحمة مرة ثانية، ونحن لهم شاكرين ثقتهم ولطفهم الكريمة رغم صدور كتب كثيرة وكبيرة جدا بموضوع كربلاء قبل هذا الكتاب وبعده.

وقد تكون لثقتهم وتقديرهم لأن به ميزات:

١ ـ إن كربلاء، لم ولن تشبهها معركه قامت أو ستقوم.

٢ ـ أحداث كربلاء لم يصدر كتاب سابق يرويها بشكل متسلسل خطوة خطوة من أولها إلى آخرها وبكل تفاصيل أحداثها لأن هذه منثورة في كتب التاريخ ولم سبق أن رويت كاملة متكاملة.

٣ ـ إظهار الانضباط والنظام ودقة التنفيذ في أحداثها من شباب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وأنصار الحسين عليه السلام التي جعلتهم يقاومون طويلاً عدواً بلغ ثلاثين ألفاً كله لؤم وحقد.

٤ ـ تميز الكتاب بأنه رواية، أحداثها متتابعة ومترابطة فلا يمل القارىء منه.

٥ ـ التصرف الحيد بتصوير بعض أبطال القصه مما لا يتنافى مع حرمة التاريخ؛ والتدقيق بأحداث المعركة مع مراعاة قدسية وصدق التاريخ، وتصويرها بأسلوبٍ جذاب يجعل القارىء يتعرف عليها بأصدق وأوضح صورة.

٦ ـ كربلاء مدرسة قائمة بذاتها لها مبادؤها وأهدافها، ثم هي شعلة أضاءت وتضيء درب الحق والهدى والإسلام.

الناشر



بئر العبد ـ شارع معوض
ص.ب: ٢٥/٤٥ الغبيري ـ بيروت